الطبعة 2

الموريسكي الأخير

رواية

صبحي موسى

الدار المصرية اللبنانية


الموريسكي
الأخير
رواية

موسى، صبحي
الموريسكي الأخير: رواية صبحي موسى .- ط2.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2015.
296 ص؛ 20 سم.
تدمك: 7 - 973 - 427 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان 813
رقم الإيداع: 2015/3139

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى: ربيع آخر 1436هـ - يناير 2015م
الطبعة الثانية: 2015م

كُتبت هذه الرواية بدعم من الصندوق العربي للثقافة والفنون «آفاق»



صبحي موسى

الدار المصرية اللبنانية

إهـــداء

إلى عبير وآيات

دونهما ما كان لهذا العمل أن يكون.

1

العالـم أضيق مـن ثقب إبرة، هكذا قال الموريسـكي في نفسـه، فثمَّة حشـود كثيـرة تملأ الميدان، حشـود مـن كل القرى والمـدن والمذاهب والأحـزاب والطوائـف والفئـات، باتـت الحيـاة فـي مصر شـبه متوقفة، ولا عمل لها غير الثورة، حتى إن المشهد اليومي لم يعد يعرف غير أناس تبيت في الشـارع محتفية بأنها ما زالت على قيد الحياة، رغم أن أنفاسهم مطعمة برائحة دخان قنابل الغاز، وأعضاءهم ترتجف من الخوف والبرد وتوقُّـع مـا لا يُحتمل، مشـهد ثابـت لكنه يمـوج بالحركة الدائبـة في كل تفاصيله الصغيرة، يمـوج بالإصرار على الثبات في مواجهة آليات القمع السـاعية لإبادتهم، وكأنهم قرروا دون اتفاق مسـبق وضـع نهاية للطاغية العجوز عبر أجسـادهم الممددة على الأرصفة، الشـيء الوحيد الذي بدا جديدًا ومختلفًا عما اعتاده الجميع هو الظهور المفاجئ لطائرات «F16» بصوتها العالي في طريقها إلى الميدان، تلك التي سرعان ما أخذت تميل بأجنحتها يمينًا ويسارًا منحنية برأسها كما لو أنها ترغب في النزول وسط المتظاهريـن، هـؤلاء الذين أصابتهـم المفاجـأة بالجمود، فظلـوا ثابتين

فـي أماكنهـم كبشـر من نحـاس، ينظرون في عيـن المـوت المحلِّق على رؤوسـهم بعيون وآذان مشـدوهة على اتساعها، ينظرون إلى نوافذ الأبنية التي اسـتحالت نثارًا أمامهم، وكأن يوم القيامة قد بدأ وليس عليهم سوى أن يتسلَّموا كتبهم إما باليمين أو باليسار.

لكن هؤلاء الشـهود لم يتوقفوا لحظة عن حرصهم على الحياة، فمع الارتفـاع السـريع للطائرات نحو السـماء هتف الموريسـكي بشـيء غير مسـموع، وأشار بيده حول رأسه إشارة يعرفها الجميع، فراحوا يتلقفونها بفـرح هاتفين خلـف الصـوت المتباعد، مُشـكِّلين حلقة حـول صاحب الإشـارة والصرخـة غير المسـموعة وهـو يرقص في عمقها رقصة تشـبه حـركات زوربا العجـوز، حين عـادت الطائرات من جديـد كان الجميع يلوحون لها بإشارة الجنون، وبدا أن قائديها قد وصلتهم الرسالة، فراحت حـدة الصـوت تقـل، وبدا تمـوج الطائرات علـى الرؤوس غيـر مخيف، وصعودها وهبوطهـا نحوهم هادئ على نحو جعلها جزءًا لا ينفصل عن المشهد الكبير، بعدها غابت في السماء تاركة لونًا من البهجة في المكان، وإحساسًـا لـدى المحلِّقين حول الكعكة الحجريـة أن النصر قريب؛ لأن الطائـر العمـلاق لم يعد مخيفًا، وقـدرة الأرواح صارت أكبر من الشـبح الجاثم على النفوس منذ سنين.

علـى نحوٍ مـا كان الموريسـكي قـد مات بالفعـل، فما حـدث جعله شخصًا غير الذي وطأت أقدامه الميدان هذا الصباح لأول مرة، ربما لأن رعبه الشـخصي كان أكثر من رعب الآخرين، وربما ليقينه بأنه من سلالة

على وشك الانقراض، سلالة تفرَّقت ما بين المغرب والشام وبلدان العالم القديم والجديد، وظل آباؤها عبر ترحالهم الطويل يحلمون بأن يجتمع شملها ولو على متر واحد من الأرض، متر واحد يتسع للجميع، لكن ها هو الشخص الوحيد الباقي من بينهم يحلِّق الموت على رأسه كواحدٍ من بين الحشود التي خرجت على الخوف الأبدي في شوارع المحروسة، ربما كان إصراره على الحياة أكثر منهم، أو أن خوفه أكبر من خوفهم جميعًا؛ لذا لم يشعر بنفسه إلا وهو يجأر في وجه قائد السرب: «توقف.. هذا جنون»، بينما راحت يده تدور حول رأسه لتترجم صرخة بعمق عشرات العقود، هذا الرأس الذي أطلَّ على نحوٍ ما من الشاشة الموضوعة أمام قائد السرب، صارخًا في عينيه: «توقف»، حتى بدا للأخير أن المطل برأسه عليه قادر على تفجير الطائرة وما خلفها، فملامحه كانت حاسمة إلى حد كبير، وحركة يده لم تكن تحمل كثيرًا من التأويل، فارتعد القائد واهتزَّت يداه وتموَّجت الطائرة رغمًا عنه، فتبعتها طائرات السرب في تلويحها للجماهير، ولم يكن أمام القائد سوى أن يعلن انضمامه إليهم، فينحني كأنه يقبِّل الرؤوس بطائرته، مبديًا لصاحب الرسالة أنه الآن فهمهم.

كان الأمر مفاجأة بالنسبة للموريسكي، فقد رأى الرجل رؤية العيان، وصرخ في وجهه بالعودة من حيث أتى، صرخ فيه بأن ما هو مقبل عليه ليس سوى خطيئة لا غفران لها، ولا سبيل أمامه سوى الرجوع، رأى شبح الخوف على وجهه، رأى انحناءة الطائرات نحو الرؤوس ولم

يفزع، وظل شاخصًا ببصره نحو السماء، مهددًا قائد السرب برسالة لم يقرأها سواه، كانت فرحته بلا حدود حين اكتشف أنها وصلته بكل هذا الوضوح، فأخذ يرقص على إيقاع فلامنكو قديم يتردَّد صداه في أذنيه وحده، مائجًا بذراعيه نحو اليمين ونحو اليسار كطائرة توشك على الإقلاع، باسطًا يديه لعجوز ترغب في عبور أمواج الميدان الواسع، حين حملها بين ذراعيه لم يشعر بأنها ثقيلة أو خفيفة، فقط رأى أنه يعبر بها بين الناس كما لو أنه يمشي على صفحة الماء، حين أوصلها إلى حيث أيقن أنه لم يعد مراد القديم، فالموريسكي الغريب لم يعد غريبًا، وثمة شيء كبير يربطه الآن بهذا المكان.

عاد في طريقه نحو الذين كان يقف بينهم، وشخص بنظره من جديد نحو السماء، شخص بعيدًا حيث الدخان المتبقي من رحيل السرب الغائب في زرقة الصفحة البيضاء لذلك النهار الشتوي، رأى قائد السرب مضطربًا كما لو أنه نجا من الموت المحقق، ابتسم في وجهه، وطلب منه العودة لتحية الجموع، على نحوٍ ما بادله القائد ابتسامًا بابتسام، ومال بطائرته من جديد، حينها وقف مراد يعيد حركة يديه حول رأسه من جديد، بدت للناس كما لو أنها صيحة النصر التي تلقفوها فراحوا يرسمونها حول آذانهم مبتهجين، بينما بريق أعينهم يتعالى خلف سرب الطائرات الذي ترك دخانًا متقطعًا على هيئة أقواس نصر عظيمة، ساحبًا خلفه شبح الموت من الميدان، تاركًا الموريسكي في حالة من السكينة التي قرر بعدها العودة إلى بيته، حيث جدته العجوز المقعدة التي نادت عليه ثلاث مرات ولم يجبها.

2

تحـدَّث فرناندو بطلاقـة في ذلك اليـوم، كان يعلـم أن والدي اعتزل الحيـاة العامـة بعد مقتـل ابنته وانتحـار زوجته، وأنه مهما سـعى الجميع لإخراجـه من هذه الحالة فلن يخرج منهـا، حتى إن البعض نصح بتجهيز مقبرتـه تحسبًا لرحيلـه فـي أي وقـت، لكن سـنوات مرَّت وهـو جالس فـي ذلـك الركـن المنزوي مـن غرفـة الجلـوس بالبيـت دون أن يحدث شـيء، ولولا تكفُّل فرنانـدو بنا ورعايته لأرضنا ربمـا لمتنا جوعًا أو قتلًا بالتـرك، قـال فرنانـدو إن الأمور لـم تعُد تُطاق، لقد خسـرنا ديننـا ولغتنا وكتبنـا وأزياءنا، لقد خسـرنا أنفسـنا ولم يعد بمقدورنـا التنفس دون إذن مـن القس أو الشـرطة، فـأن تكون موريسـكيًّا فذلك لا يعني سـوى أنك الشيطان، الجميع ينظر إلينا ليس بوصفنا بشرًا مثلهم لكن على أننا غنيمة سـقطت في أيديهـم، ملوكهم يريدوننـا نصارى، والقساوسـة لا يريدون سوى التفتيش في ضمائرنا ليل نهار، والنبلاء يريدوننا عبيدًا في أرضهم، ورجال الشـرطة لا همَّ لهم سـوى أن يسـتريحوا من وجوهنا، كل شـيء هنا يدفعنا إلى الجنون، وليس أمامنا سـوى الموت أو أن نحمل أشـلاءنا

ونتجـه إلى الجنـوب، حيث اختار آخـر ملوكنا أن يبيـع ضيعته ويذهب، وحيث الأتراك المنشغلون بفتوحاتهم هناك، وأنت قابع في ركنك المظلم تتذكـر وتنتحب، وكأن النحيب سـيعيد ما كان، أنـت البقية الباقية من بني جهور في هذه البلاد لا ترشدنا إلى شيء، كأنك لست كبيرنا ولا كبير قرية قديـار، ولـم تكن يومًا وزيرًا لبنـي الأحمر، أو واحدًا من أعلام السياسـة فـي غرناطة، تركتنـا لتعيش في أحزانك على زوجتـك وابنتك الراحلتين منتظرًا اللحاق بهما، فو الله إن الموت على خشـبة التعذيب لأشـرف لنا من خنادق الجبن التي نعيش فيها يا سيدي الوزير عبد الله بن جهور.

عند هذه النقطة توقف فرناندو ليرتشف بعضًا من قطرات النبيذ، تاركًا لأبـي فرصـة التفكير في موقفه ممـا تجري به الأيام على الموريسـكيين، لكـن أبـي لم يرفع عينه عـن المدفأة التـي تصطرع أطـراف نيرانها، وظل سادرًا في صمته كما لو أن كلمات فرناندو لم تزده سوى مزيد من الغرق فـي بحار الحـزن علـى مُلك أضاعـه بنو الأحمـر، بصراعهـم وضعفهم وتباريهـم فـي الاسـتعانة بالنصـارى علـى بعضهـم، شـعرت أن دولاب الذكريات راح يدور في رأسـه كطاحونة هواء في يوم ريح شـديد، طاويًا أربعـة قـرون مـن التربُّـع علـى كراسـي الخلافـة والملك؛ ليقـذف بكل ذلـك فـي غمضة عين إلى كأس مـن الهوان عليه وعلى مَـن بقوا في هذه الأرض أن يتجرَّعـوه حتـى النهاية، شـعرت أنـه تذكر كيـف دخلوا عليه بجثـة أختي مهجـة أو ماريا، عاريـة إلا من مفرش لفوها بـه، يومها غلت الدماء في شـرايينه ناسـيًا مَن هو وأين يعيش وبأي الشروط، فتناول بلطته

وخرج دون أن يرسل لأحد كي يكون في معونته، كان صوته ذو السبعين عامًا يجأر في جنبات القرية على خوسيه أرمانديز، ذلك القاتل بصحبة مجموعة العاطلين الذين يرافقونه ولا همَّ لهم سوى السكر والتطاول على المستضعفين، حين وجدهم على باب الكنيسة يمزحون كأنهم يعيدون تمثيل المشهد لبعضهم بعضًا، نادى عليه، فتوقفوا في مكانهم جامدين كأن صاعقة نزلت على رؤوسهم من السماء، بعضهم تجنب العراك وقرر الانسحاب بعيدًا، بعضهم وقف في مواجهته إلى جانب خوسيه، صاح والدي فيه: «مَن الذي فعل ذلك بابنتي؟»، فانفجر القاتل في ضحك مليء بالسكر والسخرية: «نحن فعلناها، فهل تريدنا أن نفعلها بك أيضًا أيها النصراني المستجد»، هنالك اشتعلت أعصاب العجوز صائحًا: «لست نصرانيًا ولا يشرفني أن أنتمي لدين يضم أمثالكم»، ورفع يده بالبلطة متقدمًا تجاههم، إلا أن الذين تجنبوا العراك عادوا فجأة من الخلف وهاجموه، وكادوا يفعلون به مثلما فعلوا بها، لولا أن شرطيًا خرج بصحبة قس من الكنيسة، فتركوه قائلين: «هذا الرجل سبَّ ديننا قائلًا إنه لا يشرفه الانتماء إليه»، فابتسم القس الذي كان يعرف عبد الله بن جهور أكثر مما يعرف آباءه، ودون أن يهتم لمصابه أو مقتل ابنته قال في برود: «اكشفوا عنه ملابسه»، فجرَّدوه منها وهم يصرخون: «إنه مختون، إنه مسلم»، فأمرهم بصلبه على شجرة أمام الكنيسة طالبًا من الشرطي حراسته حتى الصباح، فلما أوثقوه جَلَده الشرطي بعصا مرصعة بالمسامير حتى كلَّت ذراعه فألقاها وجلس يفرِّق الناس إلى بيوتهم.

كانت محاكم التفتيش بدأت عملها منذ زمن في غرناطة، ولم يكن لقضاتها همٌّ سوى البحث في ضمائر مَن ورثوهم عن آبائهم من المسلمين حتى وإن تنصَّروا على أيديهم، كانوا يبحثون عن دليل إدانة في الزي أو الكلام أو الممتلكات كي يسلبوهم أموالهم وأرواحهم، مغلقين حمَّاماتهم العامة وهادمين نوافذ بيوتهم ومصارع أبوابهم مستبيحين لأنفسهم الدخول عليهم في أي وقت، وكان يكفي لأن يشهد شخص واحد على أيٍّ منهم أنه ما زال على دينه القديم كي يحمله جنود الرئيس ديسا إلى قاعات التعذيب، وإما أن يموت هنا فترحمه السماء من أيديهم، وإما أن يظل في العذاب إلى أن يعترف بإثمٍ لم يرتكبه، فيحكم عليه بمصادرة ماله وتهجيره من قريته هو ومَن يعترفٌ عليهم، كان مجرد ذكر اسم في أقبية المحكمة زورًا أو حقًّا يعني أن صاحبه أصبح على قائمة المشردين، ولم يكن أمام أمي سوى الذهاب بنفسها لتبكي تحت أقدام القس إيمانويل في قريتنا كي ينقذ عائلتها من الجحيم المنتظر، ولم يكن إيمانويل راغبًا في أكثر من ذلك، فلسنوات كان يعبر على حيِّنا بدعوى التفتيش من أجل رؤيتها، لكنه لم يكن يخشى أكثر من عبد الله ابن جهور وغضبته، سنوات ضيَّق فيها على الأهل والجيران حتى لحقوا بمَن سبقوهم إلى المغرب، ولم يبقَ سوى عبد الله وابن أخيه فرناندو من تلك العائلة التي توزَّعت على قرى وسفوح البشرات، قالت أمي: «أنت تعلم أنه شيخ عجوز، لم يولد نصرانيًّا، لكنه تنصَّر بعد مجيئه من البيازين، والدك الذي عمَّده بيديه في هذه الكنيسة، فكيف تتهمه بما ليس فيه».
نهض إيمانويل من مقعده ليُجلسها مكانه قائلًا: «سيرا الجميلة لا ينبغي

أن تقف على قدميها أمام شخص ضعيف مثلي»، لكنها دفعته عنها قائلة: «اسمي عائشة، أبي وأعمامي أسموني عائشة، ولن أتخلى عن اسمي ما حييت»، فراوغها من جديد: «الأسماء يا سيرا لا تعني شيئًا في ملكوت السماء»، حينها دفعته إلى كرسيه وراحت تعلِّمه كيف يتحدث إلى سادته، فابتسم ساخرًا: «يؤسفني يا عزيزتي أننا سنفتقد عائلتك الكريمة بيننا، وسنستريح مما يلوكه بني جهور كل لحظة عن ملكهم وتاريخ نبلائهم العظيم»، في تلك اللحظة تذكرت ما أتت من أجله، تذكرت أن زوجها المعلَّق على شجرة أمام الكنيسة ينتظر يد الخلاص، وأنه لا وجود لهذا الخلاص إلا في يد هذا القس العفن، حين بدت ملامح الخوف على وجهها ابتسم إيمانويل كثعبانٍ عجوز: «الشهود يا عزيزتي يزيدون على عشرة أشخاص، من بينهم شرطي وقس ورجل معتدى عليه، وزوجكِ العظيم يا سيرا اعترف أمام الجميع أنه ليس نصرانيًا، فما الذي سيحكم به قاضي التفتيش في غرناطة؟»، لم يكن أمامها سوى أن تسأله عن مخرج من المأزق، فعبث في لحيته قليلًا قبل أن يقول: «لكل شيء ثمن، ولم يبقَ سوى بضع ساعات قبل أن يأتي جنود ديسا في الصباح، وبعدها لا يملك القس الجالس أمامك الآن أن ينفع عائلتك بشيء مما تحلمين به».

حين عادت إلى البيت وجدت بعضًا من الأقارب والجيران يجلسون بجانبي في غرفة المعيشة، فوقفت على الباب شامخة بوجهها الباكي متقبِّلة العزاء من الجميع وهي تقول: «عبد الله سيعود في الصباح لبيته كي يتلقَّى عزاء ابنته بنفسه»، ثم أخذتني من يدي إلى غرفتها قائلة: «تذكر دائمًا أنك من بني جهور، وأنه لا ينبغي لحرٍّ أن يخضع لعبدٍ مهما كان»،

كانـت تتحـدث ودموعهـا تنهمـر كالسـيل أمـام عينـي، دون أن تخبرني بسببٍ لهذه الدموع، في النهاية احتضنتني طويلًا قبل أن تعطيني المراهم والماء الفاتر هامسـة: «نظِّف جروح أبيك بنفسـك، وقل له إن بقاءه حياة لمَـن مـات، وأن موته حياة لمـن أجرم»، ثم أخرجت ورقـة من صدرها: «أعطهـا للشـرطي كـي لا يمانعـك فـي شـيء»، يومهـا جلسـت بجانبـه لا أقـدر على فكِّ وثاقه، فرحت أمسـح الدماء عن ظهـره وكتفيه، وأدسُّ الطعـام فـي فمه رغمًـا عنه، حتـى أوشـك الفجر علـى البـزوغ، فأمرني الشـرطي بتركـه والعودة إلـى البيت، لكنهـا لم تكن هنـاك، رحت أطرق أبواب الجيران لأسألهم دون جدوى، عدت من جديد أطرق باب فرناندو المغلق منذ المساء، ذلك الذي عثرنا عليه في الصباح فاقد الوعي بالقرب من بيت خوسـية أرمانديز، أمي التي قالـت: «ليس للحر أن يخضع للعبد مهمـا كان» جاءنـا بعد ثلاثة أيام خبـر بوجود جثتها طافيـة على وجه ماء جـدول في قرية بعيدة، تعرَّفنا عليهـا وتعجَّبنا من جرف الماء لها كل هذه المسـافة بعيدًا عنَّا، وجلس الناس حولنا لا يعرفون هل يقدمون العزاء لنا فيها أم في مهجة النفوس أم في فرناندو الذي ظلَّ بين الحياة والموت عدة أيـام، أم في والدي الذي عاد إلى بيته جسـدًا بلا روح، عـاد مغلقًا نوافذه علـى نفسـه، فلا يحادث أحـدًا، ولا يقبل عـزاءً من أحـد، ولا يهتم حتى بتطبيب جراحه، فقد اختار لنفسه ذلك الركن القصي من حجرة الجلوس ليدفن نفسـه فيـه، فظل في أعيننا حيًّـا ميتًا إلى أن قال فرنانـدو ما قاله في ذلك اليوم، فجلست أمامه باكيًا وأنا أخاطب عينيه قائلًا: «لو كنت تحبها حقًّا فإنها قالت إن حياتك بقاء لمن مات وموتك بقاء لمن أجرم».

3

كانت الوفود تجيء وتذهب مرددة هتافات تطالب برحيل النظام طيلة الطريق من دار القضاء العالي إلى ميدان التحرير مرورًا ببيت الموريسكي في شارع طلعت حرب، وكانت الخطى تصطدم ببعضها بعضًا، ومراد يسحب نفسه من الزحام إلى الأرصفة الجانبية، لم يكن يتوقع منذ أيام أن يفتح هذا الشعب فمه في وجه أمين شرطة أو خفير نظامي، لكنهم فجأة خرجوا كجيوش النمل من الأحياء الأكثر فقرًا تجاه الميدان الشهير، حشود قررت الخروج من قمقمها لتجلس في العراء قائلة: «لن نرحل حتى يرحل»، ورغم مرور أكثر من أسبوع إلا أن الزعيم الذي نفدت صلاحيته للحياة لم يستجب لهم، وكأن ما يحدث ليس أكثر من فيلم سينمائي طويل سيتجلى الأخير في نهايته بخطاب يؤكد أنه لن يرحل حتى لو ظلوا أبد الدهر نائمين في الشوارع، لكن الرافضين له كانوا أكثر عنادًا منه، فقد حملوا أبناءهم وزوجاتهم تاركين أعمالهم ليجلسوا أمام الكاميرات المعلقة بالشرفات المطلة على التحرير، مؤكدين أنهم أحرقوا سفنهم خلفهم ولم يعد لهم طريق إلى الوراء، سحب الموريسكي خطاه

بعيـدًا عن مسـيرة قادمة في طلعت حـرب وراح يتأمل كتـل الجص التي تزيـن واجهـات العمائـر، رأى جدائل الجبـس معقوفة علـى هيئة أوراق وزهـور لوتس خالدة، منتهية بعقوفات على هيئـة رؤوس تطل بوجوهها نحو العابرين في الشارع الطويل، كانت بعض العقوفات على هيئة مفتاح حيـاة لم ينشـغل المصريون يومًـا إن كان رمزًا لحضارتهـم القديمة أم أن صناعه خبئوا فيه ديانتهم التي لم يعلنوا عنها، تذكر أن جده رزق الله اختار المحروسـة مقامًا له لأن أهلها لم يشـغلوا أنفسـهم يومًا بلعبة الأديان، أو أنهـم كانوا قد تجاوزوا هذا الصراع المريـر فقرروا الاحتفاء بالحياة دون انشـغال بالرمـوز، لكن أنَّى لهذا الزمـان أن يعود، فقد تغيـرت الأحوال، وصـارت النـاس تقيم لبعضها المشـانق على مـا في السـرائر والقلوب، كأنهم قضاة محاكم تفتيش جديدة بعثوا من القبور، ولـم يعد للموريسكي أن يعلن عن نفسه كموريسكي جاء من البعيد بدين ظل يتقلى على جمره سـنوات طويله، فزمـلاؤه في الجريدة التي ينتسـب إليها يظنون أنفسـهم أكثـر تدينًا منه، يصـرون على دعوته للصـلاة كل أذان متفاخرين بكونهم يحملون علامات سـوداء في وجوههم من أثر الركـوع، معتقدين أن الله ليس سـوى مجموعة مـن الطقوس، رغـم أنهم لا يتوقفـون عن الكذب والريـاء ومشـاهدة المواقع الممنوعـة، كثيرًا ما هُزم فـي النقاش أمامهم، وكلما فضل الانسـحاب إلى ذاتـه بعيدًا عنهم أخذوا فـي التفتيش خلفه، في النهاية تزايد همسـهم بأنه موريسـكي، ولا يعرف معنى الصلاة، حين سـألوه عن ذلـك كان ضجره منهم قد بلغ به حـد أن صاح في وجوههم:

«نعم أنا موريسكي»، كان ذلك بمثابة الفرار إلى الجحيم، أغلبهم ابتسم في وجهه ساعيًا لإدخاله إلى الدين، وقلة هي التي أعنتها موقفها العدائي منه بوضوح، لكنهم جميعًا كانوا قد قرروا التعامل معه كجنس ثالث أكثر ما يمكن تقديمه إليه هو الحياد، ولم يكن أمامه سوى أن ينسحب من الحياة ليجلس في بيته مكتفيًا بقراءة الجريدة على المقهى النائم في ممر بيته، لكن هذا لم يكن كافيًا بالنسبة لهم، فكثير منهم سعوا بهمسهم للرؤساء عن غيابه المتكرر، ولما لم تُجدِ أفعالهم بالكثير تحدثوا عن علاقة غريبة بينه وبين رئيس التحرير، علاقة جعلت الأخير الذي لا يقبل أحدًا ولا يتساهل في غياب أحد ينصت ويبتسم ولا يفعل شيئًا.

أخذ يصعد درجات السلم الرخامية الباردة، تاركًا الأسانسير المعطل منذ سنوات واقفًا أمامه كمسلة تخترق الفضاء الخلفي للبيت القديم، كانت لديه رغبة في أن يهلك نفسه في السير قبل أن تهلكه جدته في الكلام، يعرف أن لديها أعذارها، فقد رحل كل مَن كانت تعرفهم، ولم يبقَ لها غير ذاكرة أصبحت وقودها الوحيد للحياة، على بسطة السلم رأى مجموعة من القطط الواقفة أمام شيخ كبير، جميعها كانت تقف في احترام غريب لذلك الواقف بالقرب من سلة مهملات قديمة لم يرها مراد من قبل، كان القط الكبير يقف في مواجهتهم متأهبًا كحارس عجوز لسلة المهملات، وكأنه يأمرهم بالاصطفاف إلى جانب الحائط كي لا تصطدم بهم أقدام الصاعد لدرجات الرخام، جميعها كانت تصدر مواءات خفيفة كأنها تؤكد سماع الأمر وانصياعها له، جذب كبرياء القط العجوز وشموخه أمام قومه انتباه مراد، واجتاحت الأخير رغبة، لا يعرف

حتى الآن سببًا لتفسيرها، في أن يكسر هيبة ذلك العجوز أمامهم، قرر أن يطرده من مكانه على مرأى ومسمع منهم، لكن القط اتخذ خطوة للوراء مصدرًا صوتًا غليظًا كما لو أنه إنذار بإعلان حرب، شعر الموريسكي برهبة تجتاحه فتباطأت خطواته وأخذ يصدر صوتًا موازيًا: «بِس.. بِس»، لكن الآخر لم يغير مكانه، ولم يزده ذلك سوى أن فتح عينين حمراوين مؤكدًا على غلظة صوته وتأهب أعضائه للهجوم، مفسحًا عن نابين كبيرين كمَن يضع متاريس أمام مدينته، ووجد مراد نفسه على مسافة تسمح بأن يطيح غريمه بركلة واحدة، غير أن الضربة ضاعت في الهواء بعدما صعد العجوز في قفزة واحدة ثلاث درجات، وأخذت عيناه تتنقلان ما بين السلة التي تخلى عنها والبسطة التي تعلوه، هنالك واتت مراد الجرأة لمطاردته ولو إلى عنان السماء، لكنه بمجرد صعوده أول درجتين تجاه غريمه فوجئ بصرخة ترددت أصداؤها بين جدران البيت، وانطلاق القط من موقعه كرمح نافذ ليخترق ساقيه تجاه سلة المهملات من جديد، ومنها إلى الدرجات السفلى حيث غاب في ظلمة الجدران، كانت الهجمة مباغتة لدرجة أنها أصابت الموريسكي بالفزع واختلال التوازن، فارتكن بظهره على الحائط مقرًّا بهزيمته، ومبتسمًا في فتور كمن يصفق لخصمه المنتصر بشرف كبير، حين لملم أعضاءه مستديرًا بجذعه ليكمل صعود ما بقي له من درجات إلى شقته وجد نفسه يصطدم بكتف شخص عفي في طريقه للنزول، كتف شخص غير مرئي أنزلته إلى الدرجة السفلى، لم يكن هناك لا القط ولا رفاقه ولا حتى سلة المهملات، ففتح عينيه بقوة الدهشة التي أصابته وراح ينظر إلى أسفل وأعلى باحثًا عن ذلك الذي اصطدم به، وكلما لم يجد شيئًا أخذ يقول

لنفسه إن اصطدامه كان حقيقة، وإن ثمة شخصًا كان في طريقه للنزول، لكنه لم يجد دليلًا واحدًا يؤكد حقيقة ما حدث، فابتسم لنفسه وهو يكمل الصعود نحو شقته موقنًا أنه أصبح مصابًا بالتهيؤات.

حين وصل إلى بسطة السلم التي عليها باب شقته، وفي مواجهتها الشقة التي كانت تسكن بها ناريمان ابنة عمته، تطلع إليها مستحضرًا صورة ناريمان بمريولها الأصفر، وهز كتفه ربما سخرية من استحالة بقائها على قيد الحياة، وربما تأكيدًا على أن اصطدامه كان حقيقة وليس خيالًا، بعدها وضع المفتاح الكبير في الباب ذي الضلفتين والشرَّاعة العالية المقوسة منتظرًا سماع حركة اللسان، لكن المفتاح ظل عصيًّا على الحركة، ثابتًا في مكانه، حاول مرتين وثلاثًا، وفي النهاية أخرجه ليضعه في فمه ثم يعيده إلى ثقب الباب من جديد، حين سمع التكة المعتادة لديه ابتسم دافعًا الضلفة الكبيرة على ردهة شبه مظلمة وصمت يضرب جنبات المكان، وانتابه شعور مفاجئ بالخوف والرهبة موقنًا أن ثمة شيئًا غريبًا قد حدث لجدته، فقطعت أقدامه الردهة المؤدية إلى الصالة في سرعة مناديًا عليها، وفتح باب غرفتها فلم يجدها، نظر في الحمَّام المفتوح ولم يجدها، وبلهفة شديدة عاد ليبحث عنها في مكانها المعتاد بشرفة البيت فوجدها ممددة على الأرض بعينين مفتوحتين على الفراغ إلى جانب كرسيها المتحرك.

4

قلـت لفرناندو: «أبي يقـول: جهزوا حالكـم»، لا أعرف كيف أصف فرحتـه وقتئـذ، فقد أخـذ يتقافز فـي الهواء كما لـو أنه حصـل على مُلك غرناطـة أو بلنسـية، وراح يحضـر تفاحًا وعنبًا ويضعه فـي حجري قائلًا: «قـل له سـنلتقي الليلـة»، لم يزد على هـذه الكلمات ثم دفعنـي بيديه كي أخـرج مـن الفتحة الصغيرة للبـاب، حين أبلغت أبـي بجملته لم يتحدث كعادته، فقط أشـار لي أن أخرج لأرقب مجـيء محفِّظ أختي زهراء، مما يعني ألا أدخل عليه إلا إذا طلبني من جديد، كانت زهراء في السادسة من عمرهـا، وكان المحفظ يجيئها متخفيًا على هيئة متسـول أو بائع متجول، وإذا حضـر فلا أحد يدخل أو يخـرج من البيت، ورغم أطواره الغريبة إلا أنـه كان يتلـو القـرآن بترنيم عذب. صـوت هادئ ونفـس طويل وإضغام وغنـة واضحان لكل أذن محبة، شـيء مـا كان يجذبنـي للمكوث بجانبه وهو يشـرح الحروف بتشـكيلاتها علـى اللوح الخشـبي، كان أفضل من معلمي الذي حفظت على يديه عشر سور كاملة في مثل سنها، كان صوته الأجش ونهمه الزائد في تناول الطعام يخيفاني منه، وحين توفيت والدتي

انقطع عن المجيء إلينا، ولم يكن أمامي سوى أن أعرف طريق الممرات في الصعود والهبوط من أعلى الجبل، حيث تجمعات المسلمين في تلك القرى أكثر مما عليه الحال في قريتنا، كانوا يعيشون دون خوف أو جهد، لا أحد يراقبهم أو يلزمهم بشيء، ونادرًا ما كانت تصل إليهم الشرطة أو يراهم القساوسة، حتى إنهم كانوا يرتدون أحيانًا أزياءهم العربية ويتجولون في الشوارع بها، وبعضهم لم يكن له اسم مسيحي أو حتى يرسم على رسغه الصليب، في بيوتهم ذات الأبواب والنوافذ والستائر كنا نجلس في غرفة الدرس لنخطَّ على الحوائط والألواح، مرددين بصوتٍ عالٍ خلف المعلم، كانت بيوتهم بلا آذان أو عيون، وكان المعلم ينشدنا الموشحات القديمة بين حصص الدروس قائلًا: «هذا شعر الأندلس»، وأحيانًا كان يحكي لنا عن حب ابن زيدون لولَّادة، ومحنة التوحيدي مع الوزيرين، ومصاحبة أبي الوليد للناصر، ويفخر دائمًا بأن لديه نسخة من مخطوط قديم قال إنه لأناس سموا أنفسهم بإخوان الصفا، كنت أمضي الصيف كله بصحبته، لكن مع مجيء الشتاء كنت ألزم بيتنا، فالجليد كان يكسو السفوح، والريح كانت تصفر في كل مكان، وأبي مع مجيء ديسمبر لا يأمن على أي منَّا إلا بجواره، كان يقول إن الحشرات هي التي تنجو من الجليد وليس أمامنا سوى الدخول في بيات شتوي مثلها، لكن مع بدايات مارس كانت الحياة تسفر عن وجه آخر، حيث الخضرة التي تدب في كل شيء، وروائح الزهور التي تكسو السفوح كسجادة من القطيفة متعددة الألوان، كان لأبي وفرناندو مساحة مزروعة بالزيتون والكروم

على مقربة من البشـرات، ما إن أقوم بعبورها حتى أجد نفسي في الطريق إلـى ممـر الصعود، قال لي فرناندو إن أبي ووالده هما اللذان شـجرا هذه الأرض بعدمـا حفرا الآبار وأقاما الخزانات ومدَّا المصارف إليها، حدث هذا بعد أن هاجرت العائلة من البيازين، فلم يجدوا سوى الجبال ليلجئوا إليهـا حافريـن بأيديهم ملكهـم الجديد، كان فرنانـدو يتحدث بحزن عن ماضـي الأندلس ومـا جرى من صراعات بين بني هـود وبني زيري وبني حمـود وغيرهـم، موقنًا أنهم الذيـن أوصلونا لما نحن فيـه، كان يقول إن المسـيحيين أنفسـهم في تلك العصور ما كانوا يتجاوزون أصابع اليد في القرية الواحدة، وأنهم عاشـوا بسـلام دون أن يعيِّرهم أحد بمسـيحيتهم، حين نظرت إلى الصليب الذي على رسـغه سـائلًا: «هل نحن مسيحيون أم مسـلمون؟»، صـرخ في وجهي: «نحن مسـلمون وسـنظل هكذا مهما جـرى»، فأقول من جديد: «ولِمَ اسـمك فرناندو واسـمي أرنولد؟»، كان يضحك سـاخرًا: «ما لله لله وما لقيصر لقيصر، ألم يقل قسـهم هذا؟ فلمَ لا نفعـل مثلهم؟»، كنت أطأطئ رأسـي متذكرًا كيـف يصطحبني كل يوم أحد إلى الكنيسـة وقسـها إيمانويل البغيض، فنجلس سـاعة لنستمع إلى ترانيـم لا يحبهـا، ومواعظ تصيبه بالغثيان، وكلمـات إيمانويل المكرورة عن أجدادنا أعداء المسيح، وكيف أرسل الله الملكين المقدسين إيزابيلا وفرناندو ليطهرا البلاد ويدخلونا حظيرة الإيمان، هكذا كان يتحدث ناظرًا في عيون الموريسـكيين من بيـن كل الحضور وكأنه يخبرهم بأنه يعرفهم جميعًا، تاليًا علينا دعاءه الطويل بهلاك المسـلمين، وليس بإمكاننا سوى

أن نؤمِّــن خلفه على ما يقول، كان فرناندو كلما سـمع هـذا الكلام يتمتم باللعنـة على كل ما حوله، ثم يقف في طابور طويل ينتهي بإيمانويل وهو يمنـح الجميع البركة، كان فرناندو يسـتقبل رشَّـات الماء المقدس برأسٍ محني كأنه في حضور الإله ذاته، وما إن يعود إلى البيت حتى يشوي نفسه بمـاء يغلي كي يذيب ما علق به من أدران، ثم يسـرد على مسـامع والدي من عظة إيمانويل كل ما يشـعل النار في جسـده الميـت، وأبي يتقلب في مكانه كمسـيح يتحمل الشوك على الصليب بعين منكسرة وأسنان تطحن بعضهـا، حيـن ينتهي فرناندو مـن مهمته المؤلمة يغـادر البيت وهو يلعن اليوم الذي ولد فيه موريسـكيًّا، لا أنسـى يوم تزوج من حبابة أو إيزابيلا، ووقـف خاضعًا لكلمات القس البدين، منتظرًا بركته وماءه المعطر وضربة الصليب على كتفه هو وحبابة، معلنًا أنهما أصبحا زوجين باسم المسيح، وما جمعه الرب لا يفرقه أحد، بعدها خرجنا من الكنيسة إلى بيته المطلي باللـون الـوردي حديثًا، يومها همس في أذني أن أسـبقه لأغلي ماءً يكفي لحمومـه هو وزوجته، وما إن دخل بقدمه البيـت حتى صاح مناديًا عليَّ: «هـل انتهيـت؟»، وحين هززت رأسـي مبتسـمًا رأيته يكاد ينفجـر غيظًا، وسرعان ما تركنا وهرع إلى الحمام بعدها حتى انتحى بحبابة ليبلغها بأن تقتدي به، بدا لي أنها أُسـقط في يدها، فلا يمكنها أن تزيل ثياب عرسـها بهـذه الطريقـة ولا علـى هـذا النحـو، لكنها أيضـا رأت وجهـه المحتقن فأسـرعت لتغسـل أدرانها، بعدها وجدت شـيخًا أظنه من أهل البشـرات العليـا يجلـس على الأريكة واضعًـا يده على يدي فرنانـدو ووالد حبابة،

وأخـذ يقرأ الفاتحة معلنًـا زواجهما على مذهب الإمام ابن حنبل، ثم قبَّل الجميـع بعضهـم بعضـا وانطلـق الطبل والرقص فـي باحة الـدار. كانت حبابـة أصغر منه بخمسـة أعـوام، وأكبر مني بمثلها، لكنهـا كانت ما تزال تحمـل عقـل طفلة جميلة، تهفـو للعب الكرة والحـب والحجلة معي أنا وزهـراء، ما إن تنتهي مـن أعمال بيتها حتى تجيء إلـى بيتنا لتبقى إلى أن يجيء زوجها في المسـاء فيأخذها معه، حتى حين وضعت طفلها ماركيز لم تفقد روحها الجميلة الرغبة في اللعب معنا، وكأنها صبية لم تكبر بعد، غير أنها في الشهور الأخيرة لم تعد تأتي لبيتنا، وإن أتت فلا تنتظر مجيء المسـاء، وأصبـح عليَّ أنا وزهـراء أن نقـوم بواجبات منزلنـا دون انتظار لحضورها المتباعد كل يوم عن الآخر.

ظللـت طيلة الليـل أنتظر مجيء فرنانـدو، حاولت تسـلية الوقت في إشـعال نيران المدفأة آملًا في معرفة السـر الذي يخبئه هو ووالدي عني، لكنه تأخر أكثر مما أحتمل، وأخذ رأسـي يتسـاقط على كتفي حتى أمرني أبي بالدخول للنوم في غرفتي، ولـم أجد بدًّا من ذلك، فأبي نفسـه كان قد فرد جسـده في مكانه المعتاد وسـحب حرامه الثقيل علـى كتفيه معلنًا أنه سينام، حاولت في فراشي جاهدًا أن أظل مستيقظًا، فظللت أغفو وأصحو كما لو أنني مصاب بداء القطط، حتى سمعت أزيز الباب فنهضت مسرعًا لأفاجئ فرناندو بيقظتي، لكنني فوجئت أن الداخل إلى البيت ليس سوى والدي، وبوجهٍ متجهم تمامًا نظر إليَّ آمرًا بالعودة إلى سـريري، فأطفأت

السراج ودخلت الغرفة سائلًا نفسي إن كان ما رأيته حقيقة أم جزءًا من حلم طويل.

لم أرَ فرناندو في اليوم التالي، ولم أستطع أن أسأل أبي عنه، وتشاغلت بمتابعة ما كلَّفني به معلمي في الدرس، لكنني لاحظت أن والدي الذي لم يترك من قبل ركنه القصي في غرفة المعيشة إلا للذهاب إلى المرحاض قد أخذ يتحرك بنشاط واضح في باحة البيت، في اليوم التالي رأيته يذهب إلى الحمَّام العام في القرية، كان هذا الحمَّام كغيره قد أُغلق بقرار من الرئيس ديسا، لكن صاحبه أجناثيو فرنانديز كان يعرف كيف يستغل الظلام مثلما يستغل شهوة القس ورجاله للمال، فتأخر أبي حتى نزل الظلام على الأرض ووضع ثيابه النظيفة تحت إبطه وخرج، فرحت أنتظره ساعات على عتبة الباب حتى رأيته وقد عاد شخصًا مختلفًا عما عهدته منذ سنوات، شخصًا حليق اللحية، مهذب الشعر، تطل من وجهه الأحمر عينان ضاحكتان، تلقفت منه ثيابه ووضعتها في طست الغسيل النحاسي آملًا أن تأتي حبابة في الغد لتقوم بغسلها، في الصباح لم تخيِّب حبابة ظني وجاءت مبكرة على غير عادتها، بعدها جاء فرناندو، وجلس مع أبي في غرفته يتناقشان، سمعت الأخير يقول له إنه خائف على محمد ولا بد من إرساله بعيدًا، قال فرناندو. «يمكننا أن نجعله يصعد الجبل ليقيم مع جماعتنا في البشرات»، فنظر إليه غاضبًا كأنه يتهمه بالغباء، وخيم الصمت على جلستهما حتى قرر فرناندو الانسحاب، لم يأخذ

زوجتـه فـي ذلك اليـوم، لكن أثـرًا مـن صمته ظـل مخيمًا علـى المكان لعـدة أيـام، بعدها طلب والدي أن أجمع ملابسـي كلها في صـرَّةٍ واحدةٍ لأننـا ذاهبان فـي رحلة طويلـة، ودون أن يخبرني بأكثر مـن ذلك أردفني خلفـه على جواده الأبيض وأخذ يقطع طرقًا طويلة بين أحراش وجداول وصخـور ورمال وغابات، كان صمته طويلًا، وإجاباته مختصرة ووجهته محددة إلى مدينة بعينها، علمت فيما بعد أنها طليطلة الجميلة.

5

كان قد حمل جدته إلى سريرها ثم اتصل بالمستشفى طالبًا الطبيب الذي يتابع حالتها منذ سنوات، كان يتوقع قدوم ذلك الشيخ العجوز المتهالك صاحب الخبرة العالية في التعامل مع العجائز، لكنه ما إن فتح الباب حتى وجد شابًّا في العقد الرابع من عمره يقول إن إدارة المستشفى أمرته بمتابعة الحالة بعد رحيل أستاذه، قام بالكشف عليها وطلب من مراد أن يحضر على وجه السرعة مجموعة من الأدوية، فاتصل الأخير بصيدلية ذات خدمة توصيل للمنازل، ثم تركه يستريح في الصالة وذهب إلى المطبخ ليُعد كوبين من الشاي الأخضر، حين عاد إليه وجده يتطلع إلى اللوحات المعلقة على الجدران بتمعن شديد، ظل يتنقل من لوحة إلى أخرى حتى فاجأته آية الكرسي المرسومة على هيئة العذراء بطفلها المسيح، فاستدار بوجهه النحيل سائلًا في حزم: «حضرتك مسلم ولا مسيحي؟»، فابتسم مراد مقررًا عدم إفادته بشيء: «موريسكي»، لوهلة احمر وجه الطبيب كما لو أن الكلمة صدمته، مما جعل مراد يبتسم في وجهه قائلًا: «مسلم من أصول أندلسية»، انتاب الطبيب الارتباك فقبض

علـى كـوب الشـاي مرتشـفًا منه مرتيـن أو ثلاثًا قائـلًا: «أخبرنـي والدي أن مصـر هاجـر إليهـا أكثر مـن مئة عائلـة مـن الموريسـكيين، كالتميمي والمقريـزي والمرسـي أبي العباس والسـيد البدوي»، لكـن مراد قاطعه: «هؤلاء أندلسـيون تركـوا بلدانهم بمحـض إرادتهم قبل سـقوط غرناطة بزمـن طويل، لكـن الموريسـكيين هـم الذين وقـع عليهم قـرار التنصير الإجبـاري بعـد أن سـقط ملك بنـي الأحمر، فظلـوا يدافعون عـن دينهم وانتمائهم للمكان الذي وُلُّوا فيه حتى تم تهجيرهم قسـرًا عن الأندلس»، اتسـعت المتاهة على مخيلة الطبيب الذي فتح عينيه لبرهة غير مستوعب الفارق بين الموريسـكي والأندلسـي، وسـرعان ما أخذ يقلب وجهه بين الأقـواس التي تعلو النوافذ والأبواب والمداخـل، متأملًا الكرانيش التي صيغت على هيئة أسماك يلاحق بعضها بعضًا، ولم يكسر حاجز الصمت الذي حطَّ في صالة بيت الموريسكي سوى جرس الباب، فالتقط الطبيب الدواء من يد مراد مبديًا انشغاله باستكشاف ما فيه.

ظـل مراد والطبيب بجانب السـرير حتى اسـتفاقت الجـدة من نومها الطويـل، حينهـا اسـتأذن الطبيـب فنهض مـراد لوداعـه بحياد تـام، بينما رسـمت جدته ابتسـامة عريضة على وجهها وجلسـت بانتظـار حفيدها، حيـن رآها علـى هذا النحو سـألها عمَّا حدث، فأشـارت إليـه بالاقتراب منها، ثم همسـت في أذنه بفرح: «جدك يقرؤك السلام»، أومأ برأسه مربتًا كتفهـا دون أن يسـألها عـن أي أجداده تقصد، فالرسـائل دائمًـا ما تجيء باسم العين الراعية عبد الله بن جهور، وللحظة انتظر أن تكمل ما بدأت،

لكنها شـردت بعينها نحو الغزالة المتقافزة على مفرش السرير، وسرعان مـا غلبهـا النـوم فدخلـت فـي عالمها السـحري الأثيـر، عدل مـن وضع المفرش على جسدها الضئيل ثم خرج إلى غرفته باحثًا في فضاء الشبكة العنكبوتية عن صديقته راشيل إنفانتي.

حيـن فكر مـراد في طريقة للتعرف على أي من أهلـه الذين أقاموا في بيت الموريسـكي ثم تركـوا ليذوبوا بين الناس في بلاد الله الواسـعة، لم يجد أمامه سـوى أن يلتقط صورة للبيت ويرسـلها بالإيميل عشـوائيًا إلى كل مَن يعرف ومَن لا يعرف، موجهًا نداءً عامًّا لكل مَن أقام في هذا البيت يومًـا مـا بالتواصل معه، لكـن أحدًا لم يهتم بالرد عليه غير راشـيل لويس بلاس إنفانتي، تلك التي أبدت إعجابها بالبيت دون أن تدري سببًا لذلك، جـرت بينهما الرسـائل فـي الفتـرة الأولى كميـاه هادرة في شـلال كبير، أخبرته أنها أسترالية من أصول موريسكية، وأنها تعمل بالصحافة لصالح جريدة لها طبعة عربية، تبادلا الأفكار والمقالات المكتوبة عن المسلمين الذين نُصِّروا قسـرًا بعد سـقوط غرناطة، ومحنتهم لما يزيد على قرن من الزمـان دون أن يفرطـوا فـي ميراثهـم عن آبائهـم، حتى واجهـوا المصير المحتوم، كان خوف مراد أن تكون راشـيل يهودية وليست مسلمة، فكلٌّ من اليهود والمسـلمين عاشـوا نفس المحنة، لكن لأن المسـلمين كانوا أغلبيـة، وجميعهـم نزلوا إلى الأندلـس من بوابة المغـرب، فقد صار كل مَن ليس كاثوليكيًّا هـو مغربي، ومع قرار التنصير الجبري أصبحت كلمة موريسكي لا تعني سوى مغربي مستنصر، أو نصراني جديد، لكنها عمليًّا

كانت تعني مستضعف، وكان المسلمون واليهود في الهم سواء، فظل مراد مترددًا في السؤال عن دينها لأن السؤال عن الأديان صار بالنسبة إليه من الأسئلة المقيتة، ويبدو أنها شعرت بذلك من رسائله فأوضحت له دون طلب منه أنها من الموريسكيين المسلمين، وأن أهلها توزعوا ما بين المغرب وتونس ومصر والشام، حتى إنها لم يعد يعنيها الآن سوى حق الحياة.

ظلت العلاقة بينه وبين راشيل مجرد رسائل تجيء وتذهب، في البدء كانت كثيرة ومتواترة، لكنها سرعان ما فترت وتقطَّعت وصارت نادرة، لكن ذلك لم يوقف العلاقة التي نشأت بينهما، وظل كل منهما يلتمس للآخر أعذاره في التأخر على الرد، حتى فاجأته بأنها انتقلت مع والدها إلى إسبانيا، وأنها الآن تعمل في وكالة كبرى للصحافة والإعلام، ولم تمضِ شهور حتى طلبت منه أن يكتب لها تقريرًا أسبوعيًّا عمَّا تقوله الصحافة المصرية، ومع قيام الثورة طلبت منه أن يكون تقريره يوميًّا مشمولًا بمشاهدات من الميدان، في تلك الليلة بدأ بجولة على المواقع الإخبارية لمعرفة ما فاته من أحداث، مستعرضا ما قيل عن اللجان الشعبية ودورها البديل عن الشرطة في تأمين المنازل وتسيير حركة المرور، راصدًا تصريحات القوى السياسية المطالبة برحيل النظام.

انتهى من تقريره وقرر أن يكتب لراشيل رسالة على الخاص، لم يكن يعرف من أين يبدأ ولا أين ينتهي، فكر في الكتابة عن سرب الطائرات الذي جعله ينحني ليحيي المعتصمين في التحرير، فكر أيضًا في الكتابة

عن القط الذي وقف بجانب سلة المهملات، والكتف التي اصطدم بها آن صعوده السلم، وعن جدته التي كاد يفقدها هذا المساء، وطبيبها الذي استبدلوا به طبيبًا شابًّا لا يعرف الفرق بين المسيحيين والموريسكيين، في كل مرة كان يكتب ويمحو ما كتب، حتى انتهى إلى جملة وحيدة قال فيها: «عزيزتي راشيل، يبدو أنني صرت مصابًا بالتهيؤات».

أغلق حاسوبه وذهب ليطمئن على جدته في سريرها، وجدها تغط في نومٍ عميق، وعبوة المحلول المعلقة في ضلفة دولابها أوشكت على النفاد، فألقى بها في سلة المهملات، خلع «الكميونة» من يدها بحرص شديد، ثم أطفأ الأنوار، وعاد إلى غرفته لينام، كان من المفترض بعد إجهاد هذا اليوم الطويل أن يذهب في النوم بمجرد أن يلقي بجسده على السرير، لكن مشهد القط بزغ فجأة في رأسه، وراحت أحداث اليوم كله تتوافد على ذاكرته كأنها ما زالت تحدث وأن الوقت ما زال في وضح النهار، لم يكن أمامه سوى أن ينهض من مكانه باحثًا عن علبة السجائر كي يخدر أعصابه بواحدة منها، لكنه ما إن مدَّ يده في الظلمة ليبحث عنها على الكوميدينو النائم بجانب سريره حتى شعر أنه قبض على يد شخص آخر في الغرفة، فانتفض كما لو أن ثعبانًا لدغه ليقف على البلاط البارد بقدمين حافيتين، وبغريزة الخوف على الحياة انطلق صوب مفتاح النور في الغرفة فضغطه عدة مرات، لكن النور لم يأتِ، كانت ضربات قلبه تتسارع، ومفاصل ساقيه آخذة في الارتجاف، تحسَّس الحوائط والظلمة حتى وصل إلى مفتاح إنارة الصالة، ولم تكن أفضل حالًا،

لـم يعرف ما الـذي ينبغي عليه في ذلـك الوقت، وما بيـن الارتجاف من البرد والخـوف الذي يتصاعد بداخله، تعثَّر بمنضدة الشـاي، ونهض من جديـد يبحث عن الردهة المؤدية للبـاب الكبير، حين فتحه كالهارب من الموت فوجئ بأجواء من الونسـة تتدفـق إليه، بدا له أن الهواء البارد على بسـطة السلم أكثر أمانًا، شـعر أن أنفاسـه تعود إلى الانتظام، وأن أعصابه أخذت في الاسترخاء، أدرك أن الكهرباء منقطعة عن الشارع كله، وتذكر مشـهد القطط والكتف التي اصطدم بها موقنًا أنه أصبح مصابًا بالتهيؤات وعليـه مـن الآن البحث عن طبيب نفسـي لمراجعته، دخـل الصالة ليرى ضوءًا شـحيحًا منبسـطًا من أشـعة القمر على سور الشـرفة، زاد ذلك من ثقتـه بنفسـه، عبـر الممر الذاهب بـه إلى غرفـة الجدة، وجدهـا نائمة في وداعة وعلى وجهها شـبح ابتسـامة صغيرة، بادلها الابتسـام متأملًا ضوء القمـر المتسـرب إلى الغرفـة من النافذة، فطبـع قبلة علـى جبينها قبل أن يسـحب أقدامـه عائدًا إلـى غرفته، كانت ضربـات قلبه قد هـدأت تمامًا، بينما تخدَّرت أعضاؤه بما يكفي لأن يسـتلقي على سريره مستقبلًا النوم العزيز، شعر أنه سقط على تلٍّ من الورق الكبير، كان يرغب في النهوض لاستطلاع ذلك الشيء الغريب، لكنه كان مجهدًا بما يكفي، فأزاحه جانبًا ودخل في نوم طويل.

6

عبرنـا وادي نهر تاجـة، وعدنا بـالأوراق والأحجار والأتربـة اللونية المطلوبة من طَلَبِيْرَة، حين وصلنا إلى حدود طليطلة مع كاستيا لا مانتشا تهللـت وجـوه الرجال بالفـرح، وراحـوا يتصايحـون بأسـماء حبيباتهم معلنيـن أنهـم فـي الطريـق إليهـن، كانـت هـذه واحدة مـن المهـام التي أوكلهـا إلـيَّ العـم باديث منذ اعتبرنـي بديلًا عن ابنـه المتوفى في حادث سـير، مخلفًـا بـذرة طفـل في رحـم زوجته الصغيـرة، تلك التي في سـن حبابـة زوجة فرنانـدو، جعل لي العم باديث غرفة فـي بيته وعاملني كابن لـه، وأخذ يحدثني كلمـا رآني عن عبـد الرحمن الداخـل وعبد الرحمن الناصر وهشـام المؤيد وبني زيري وبنـي هود وغيرهم، كما لو أن والدي أودعنـي إليـه ليحفظني عن ظهر قلـب تاريخ الأندلس، لكنـه لأمر ما لم يكـن يحدثنـي عن سـقوط طليطلة، حتى شـككت أن عائلته كانت سـببًا فـي ذلك، وإن كان العجائـز من المدجنين أكدوا أن أجدادهم استبسـلوا فـي الدفاع عنهـا، حتى أذلهم الجـوع وأحنى رقابهم الخـوف، قائلين إن أعيان طليطلة اتفقوا على تولية الحكم لكبير بني ذي النون عبد الملك بن

متيوه، لكنه أساء السيرة، فأجمعوا أمرهم على خلعه وتولية ابنه إسماعيل الذي عين أبا بكر الحديدي وزيرًا له، فلما توفي إسماعيل تولى ابنه يحيى من بعده، ثم حفيده القادر بالله من بعدهما، كل هذا والحديدي متملك وزارة البلاد، فخشي القادر من سطوته ودبر لقتله، فلما مات الحديدي أطلَّت الفتن برأسها في البلاد، وأخذ والي سرقسطة المقتدر بن هود يشن غاراته عليها، بينما أعلن والي بلنسية أبو بكر بن عبد العزيز استقلاله عن طليطلة والقادر، وكاد ملك أراغون سانشو راميرو ينتزع قونية لولا أن القادر افتداها بمبلغ كبير من المال، ثم بحث القادر عمَّن يعينه على مواجهة أعدائه، فلم يجد غير صديقه القديم ألفونسو السادس ملك قشتالة، فوافق على أن يتنازل له القادر عن سرية وفتورية وقنالش، فضلًا عن أداء جزية سنوية، فأثار ذلك غضب أهل طليطلة، ورأوا أنه لا مناص من خلعه، فاندلعت الثورة التي فرَّ القادر من أمامها إلى وبذة، ومنها إلى قونية، لاجئًا إلى صديقه ألفونسو كي يعيده إلى الحكم، فأرسل أعيان طليطلة للمتوكل بن الأفطس حاكم سرقسطة كي يجيئهم لضبط شئون البلاد، فلما جاء جيش ألفونسو وجد المتوكل بجيشه في المدينة، فأخذ يضيِّق الخناق عليه حتى فرَّ المتوكل بما استطاع حمله من تحف وأثاث، وعاد القادر إلى كرسيه في حماية القشتاليين لمدة عشرة أشهر، لكن الناس ثاروا عليه من جديد وخلعوه مبايعين القاضي أبو بكر يعش، وكان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية يراقب الأمور عن بعد، فأرسل وزيره ابن عمار إلى ألفونسو ملك قشتالة قائلًا إن المعتمد لا يمانع في حصولكم

على طليطلة، وإنه هو نفسه سيدفع جزية سنوية لكم، وذلك مقابل أن تتركوا له الأراضي الواقعة خلف جبال الشارات، فظلت طليطلة وحيدة في مواجهة قشتالة لمدة أربع سنوات، دون أن يسعى أحد لنجدتها، حتى نفدت الغلال وأكل الناس الميتة والحصى، فذهب الأعيان إلى ألفونسو مطالبين بفك الحصار مقابل دفع الجزية والتنازل عن بعض الحصون، لكنه ردَّهم على أعقابهم خائبين، وفي النهاية قبل الجميع بتسليم المدينة للقشتاليين حفاظًا على ما بقي فيها من أرواح، فدخلها ألفونسو بجيشه الكبير رافعًا صليبه الفضي على مئذنة مسجدها الجامع.

لا أعرف لِمَ اختار والدي العم باديث من بين كل أصدقائه ليتركني معه في هذه المدينة التي تبعد عشرات الفراسخ عن جبال البشرات وقراها، لم يذكر باديث أمري إلا لقلة من أصدقائه العجائز، فكانوا يفردون لي أرديتهم مرحبين بالوزير ابن الوزراء والأمير ابن الأمراء، رغم أن غرناطة سقطت منذ ما يزيد على نصف قرن، وبني جهور اندثر حكمهم منذ ما يزيد على أربعة قرون، غير أنهم كانوا يتحدثون عن دولة بني جهور بوصفها الجنة المفقودة، كان الجميع في طليطلة يحمل أسماءً إسبانية، ويتردد بشكل دائم على الكنيسة كل أحد، بعضهم كان يزيد فيُعلِّق في محاله وبيوته صورًا للمسيح وأمه، ولم يكن يعرف العربية غير بعض العجائز، لكن أغلبهم من ذوي الحرف، يتقنون الزراعة والحدادة والتجارة والنسيج والبناء، وأغلبهم يجيد لغة القشتاليين، وبعضهم يعرف اليونانية ولهجة أراغون، قلة هي التي كانت تعرف لغة بني عثمان، ولم

تكن مناصب المدينة تخلو من المدجنين الذين تنصروا بمحض إرادتهم قبل سقوط غرناطة بزمن، فالإسبان وحدهم ما كانوا يصلحون لتدبير الأمور؛ لذا كانوا في البدء يبدون الود للأندلسيين، غير مجبرين أحدًا على ترك دينه أو زيه أو لغته، لكن الناس تماشيًا مع الدولة الجديدة كانوا يدخلون المسيحية بمحض إرادتهم في الظاهر، مؤكدين أن الدين في القلب وليس وشمًا على الجلد، وأنهم حين يموت ميت لهم يتركونه ينال الأمجاد السماوية في الكنيسة ويعودون ليقرأوا القرآن في بيته.

حين دخل والدي على باديث في ورشته انتفض الأخير مهللًا: «هرناندو ابن جهور؟! يا مرحبًا»، لكن أبي تيبَّس في مكانه كما لو أن الرجل وجَّه إليه إهانة لا تُغتفر، فتأسَّف باديث معتذرًا وهو يحتضنه: «إنها العادة يا صاحبي، لكن ورب الكعبة حضورك إلى طليطلة معجزة تحسب للمسيح»، فانفرجت أسارير والدي واحتضن باديث الساخر بحرارة ومزاح لا مثيل لهما، كانت ضحكاتهما تتعالى بين الحين والآخر، كأنهما لا يعرفان من الدنيا سوى النكات، بعدها تركاني أتقلَّى على جمر الانتظار في الورشة، عين على الباب الذي خرجا منه، وأخرى على العاملين بأدواتهم ورسومهم وهيئاتهم التي تشبه التماثيل. وجوه معفرة، وثياب متسخة، وعيون يكاد يطمسها الرماد، حين عاد والدي انتحى بي جانبًا وهو يقول: «لقد كبرت يا محمد، وعليك الآن أن تعتمد على نفسك، سأتركك لتتعلم مهنة تنفع بها نفسك وناسك، فاحرص على ألا يفوتك منها شيء، وأن تكون لعمك باديث كولده الذي فقده»، يومها رأيت في نظرة عينه الصارمة

ووقفته الحازمة ووجهه المنحوت كقطعة من صخر البشرات قراره الذي لن يحيد عنه، فأمسكت بنفسي عن البكاء، وأومأت بالموافقة، فضمني ضمة أدخلت أضلعي في بعضها ثم أفلتني سائلًا: «هل تريد شيئًا؟»، فطلبت منه أن يبلغ سلامي لزهراء وحبابة وفرناندو وابنهما ماركيز.

حمل باديث صرة ملابسي واصطحبني إلى بيته، لم يكن هناك غير زوجته وطفل صغير في حجرها، فنادى على مَن في البيت ليتعرفوا عليَّ: «هذا خوسيه ابن صديقي أرماندو، جاء به والده من مجريط ليقيم معنا إلى أن يعود من رحلته للعالم الجديد». حين وقعت عيناي على صبية في عمر حبابة بوجه مستدير وعينين تشوبهما سحابة من الحزن، وضع يده على كتفي قائلًا: «هذه بيلارا زوجة ابني جابرييل»، وتلقَّف من على صدرها الطفل: «هذا الشقي حفيدي الحبيب بدرو»، وأشار إلى السيدة التي تجاوزت الستين: «وهذه زوجتي برنانديث، يمكنك اعتبارها أمك الجديدة»، فهمت فيما بعد أنه ما كان بمقدوره أن يفرط في بيلارا بعد وفاة زوجها، ليس خوفًا من الوحدة ولا رغبة في أن يكون هناك مَن يخدمه، ولكن لأنه لا يستطيع مفارقة حفيده بدرو.

«أبي أعلم مني بالطرق التي ينبغي على أقدامي أن ترتادها»، هكذا أقنعت نفسي، فبذلت جهدي في تعلُّم كل ما تقع عيناي عليه، حتى أن باديث كان يُشبِّهني بالأرض التي لا تشبع، وكلما رأيت شيئًا جديدًا ظننت أن أبي تأخر عليَّ في مجيئه من أجل تعلُّمه، وكلما التقيت بيلارا أضع عيني في الأرض متجنبًا النظر إليها كي لا أقع في حبها، حتى

إننـي كنت أسـتيقظ مفزوعًا من نومـي إن رأيت طيفها فـي المنام، مؤكدًا أن ذلـك ليس سـوى خيانـة للأمانة والعهد، شـعرت أيضًا أنهـا تبذل كل مـا في وسـعها كي لا ترانـي، فظللت أنهمـك طيلة النهار فـي عملي ولا أعـود إلا وقت النـوم، وظلت هي تحرص على خدمتي دون أن نلتقى إلا مصادفـة، رغـم أن وجهها الباسـم الحزين يطاردني فـي كل مكان، وظل الأمر لسنوات مخبَّأً في قلبي حتى فاجأني العم باديث ونحن نرمِّم بعض حوائط الكنيسة الكبرى قائلًا: «أريد أن أخطبك لابنتي». ودهشت لعلمي أنه ليس لديه بنات، فابتسم قائلًا: «ابنتي بيلارا، هي خير زوجة لخير ولد، ولم يبقَ من العمر الكثير كي أحمل طفلكما على يدي». يومها تماسكت عـن الطيـران من الفـرح، وتجلـدت عابثًا أمامـه كي لا يتخيل أن نفسـي رغبت في زوجة ابنه، وتحدثت بجدية المتمنع: «حين يعود أبي يمكننا أن نتحـدث في ذلك»، لكن الأخبار التي جاءتنـا من غرناطة قالت إن الثورة قامت هناك، وإن أبي قائد في جيش ابن أمية، وإن البشـرات صارت دولة للمسـلمين، كان الجميـع يتناقل هـذه الأخبار بتعجُّب فـي العلن، وربما برفـض في بعض الأحيان، لكنهـم من داخلهم كانـوا يباركونها بالدعاء، لم يعلم أحد أنني من البشرات، ولا أن والدي من المتورطين في الثورة، وظـل الـكل يعاملني علـى أنني خوسيه أرماندو، وظلت الورشـة مهبط الأخبار، فمَن يأتِ لعمل رسوم القديسين يُدلِ بما يعرف، ومَن يرغب في تزيين بيته يجئ بما لديه، ومَن يسـعَ لعمل تطريز لحواشـي مخطوط لديه يحكِ عما يعرف، قصص القديسين كانت تبدأ وكلام الفلاسفة والشعراء يمر سـريعًا، لكن البشرات دائمًا ما تستقر أمامي، البشرات بأهلها وناسها

وطرقها وشعابها تطاردني في كل شيء. في الظاهر كان الكل يتحدث كمَن يهمس بسر لعابر في طريق طويل، لكن طليطلة في الواقع كانت تدوي كخلية نحل حول الحدث الجلل، دون أن يطرح أي من أبنائها سؤاله المخبأ عن موقفه لو أن البشرات طلبت منه المساعدة.

في هذه الرحلة كنت بصحبة خمسة من الزملاء، خرجنا لنبني مقبرة لواحد من النبلاء، فأمضينا أسبوعًا في مجريط، أنهيت خلاله عدة مهام أمرني بها العم باديث، من بينها شراء أتربة نحتاجها في عملنا، وورق مصقول للنسخ عليه، وتوصيل عدد من الخطابات وصرر الأموال لأصدقاء له، حين أنهيت مهامي أخذت زملائي وعدنا بالبغال مع قافلة في طريقها إلى طليطلة، فعلمنا من رجل بها أن ابن أمية انتصر في الحرب على قائد جيش غرناطة، وأنه أسره وتزوج امرأته الجميلة، قالوا أيضًا إنها حين رأت فروسيته وأخلاقه أعلنت إسلامها كي تتزوجه، ولا أعلم ما الذي جعل نفسي تهفو لرؤية أبي وفرناندو والزهراء وحبابة، وتجيش بالحنين إلى البشرات وقراها ومعلمي هناك، فانهمرت مني الدموع، حين سألني رفقائي عن السبب قلت إن العم باديث توحشني، فانفجروا في نوبة من الضحك والسخرية، وراح كل منهم يسارع بمجرد وصولنا كي يحكي له الأمر بطريقته الخاصة، لكن الرجل لم يكن في حال تسمح له لا بالضحك ولا الكلام، فقد انتظر حتى انتهيت من عملي ثم انتحى بي جانبًا وهو يقول: «كل نفس ذائقة الموت، وما يبقى غير وجه ربك ذي الجلال والإكرام».

7

لا يعرف كم استغرق من ساعات في النوم، لكنه حين استيقظ وجد جدته بكرسيها المتحرك رابضة إلى جانب سريره، بدا على ملامحها الإرهاق أكثر من العجز، حاول أن ينادي عليها لكنه شعر أن لسانه أثقل من أن يستجيب له، بعد جهد طويل خرجت من فمه آهة، فانتبهت الجدة وحركت كرسيها باتجاهه مبتسمة: «ما كل هذا النوم؟»، هكذا سألت، لكن عينه تركتها وراحت تتطلع إلى عبوة الجلوكوز المعلقة أعلى رأسه، وخرطومها الرفيع الأبيض الواصل بينها وبين الكميونة المنغرزة في رسغه الأيسر، لاحقته جدته: «حمدًا لله على السلامة»، بعدها بيومين استطاع أن يفهم ما جرى، قالت له إنه أخذ يصيح في نومه كما لو أنه يتعذب، حين أتت إلى غرفته وجدته مبللًا بالعرق وحرارته مرتفعة، فاتصلت بالمستشفى وطلبت الطبيب المتابع لحالتها، فجاءها بدلًا منه شاب قال إنه صديقه، وإنه يعاني من حمى حادة، ثم جلس بالساعات إلى جانبه حتى تحسنت حالته.

انشغل ذهن مراد بالطبيب الذي لم يره غير مرة واحدة، واعتبر نفسه من خلالها صديقًا له، ندت عنه ابتسامة ساخرة والتفت إلى جدته ليقول إنه

لا يعرفـه، لكنـه فوجئ بتوهج الفرح في عينيها، حين سـألها عن السـبب ضحكـت قائلة: «رأيت جدك بالأمس، قال إنه لا خوف عليك». اسـتدار عنها إلى الجانب الآخر هامسًا لنفسه: «عدنا إلى الهذيان»، ولا يعرف إن كانت قد سمعته أم أنها فقط كانت تكمل المسار الذي بدأته، فقد ضربت علـى يده بدلال. «جدك راضٍ عنك يا مـراد». فتمتم بصوتٍ غير مفهوم، لكنها سـألت: «أنت ما شـفتوش؟!»، فتح عينيه دهشـة من صيغة السؤال الـذي يقـرر فعلًا أكثر مما يسـتنكره،، وكأنها لا تسـأل بقدر مـا تعلن عن تواطؤ على سـر ما، فلـم يعرف بِمَ ينبغي عليـه أن يجيبها وقتئذ، فاختصر حديثه في ابتسـامة عريضة وهو يقول: «أنا؟!»، لكنها بنفس لمعان الفرح القائم في عينيها مدَّت يدها أسـفل المفرش النائم على ساقيها وأخرجت رزمـة مـن الأوراق ذات الحجـم الكبيـر: «وهـذه.. ألم ترهـا؟!»، كانت الأوراق من النوع السميك بدائي الصنع، بدا له أنها أقدم من فكرة الكتابة ذاتها، وأدهشـته هوامشـها المزينة برسـوم لوجوه ملثمة في طرق جبلية، وفـي المنتصـف تنام برسـوخ كتلة الـكلام المكتوب بخط كوفي لريشـة فنـان قديـم، فتح عينيـه، وأخذ يقرأ: «هذا مـا كتبه محمد بـن عبد الله بن جهور، الملقب بالموريسـكي في تطوان وشفشاون، إلى أولاده وأحفاده مـن بعده، كـي لا تموت الذكرى في قلوبهم، فتضـل أهواؤهم ويصبحوا من بعده هالكين».

حيـن انتهى من قراءة الجملة رفع عينيه ليسـأل جدته عما تعنيه، لكنه لـم يجدها، تحامل على نفسه وخرج من غرفته باحثًا عنها في الصالة وفي

الغرفـة التي تنام فيها، وفـي الحمام والمطبخ وحجـرة الخادمة العجوز، لكنـه لـم يجدها، أخيـرًا فطن إلى أنها فـي مكانها الأثير بالشـرفة، وتذكر كيف اختار جده أبو جذام هذا المكان ليكون على مقربة من ذكرى تخص الباشـا الكبيـر الـذي خدمه أكثر من عشـرين عامًـا، فقد عمل فـي بحرية محمد علي حتى أصبح نائبًا لقائد أسطوله، ونال جفلكًا يغنيه وعائلته عن ضنـك الحيـاة، فظهر له عبـد الله بن جهور في ليلة مقمـرة قائلًا: «اتبعني إلى المحروسـة، فإن وصلتها عد بأهلك وناسـك إلى أرضك الجديدة»، فلمـا عاد بهم غدروا به في منتصف الطريق، فقسـا عليهم وتركهم في تيه السـخرة سـنين طوالًا، حتى غضبت منـه العين الراعيـة وراحت تلاحقه بإنذاراتهـا المتوالية، في البدء ماتت ابنته في بئر السـاقية، لكن الموت لـم يكـن له واعظًا، وسـخر منه قائلًا: «لو تخطفـت كل أبنائي في ليلة واحدة فلـن أنحني لأنقـذ لصًا واحدًا من عقاب يسـتحقه، ولا خائنًـا من مصيبة ألمـت برأسـه»، فراحـت الكوابيس تطارده وهـو غير منصـت لوعيدها، حتـى أصابه الجـذام، ونفر منه الناس، فعزلته زوجتـه وأبناؤه بغرفة أعلى قصـره الكبيـر، أغلقـوا أبوابهـا ونوافذها ولـم يتركوا له غير كـوة يمدونه منها بالطعام، فظل حبيسًا في ظلمته يتآكل منه اللحم والعظم صارخًا في الظلام: «افعل ما شـئت فلن أنقذ خائنًا من عقاب يسـتحقه»، كان قاسـي القلب شـديد المراس، سـيئ الخلـق مع الأجـداد، رغم أنه أكثـر الأبناء حظـوة وحظًـا، لكنـه لم يكن يغفـر الخيانـة ولا يقبل بالأدنيـاء، فرعدت السـماء وتزلزلـت البيـوت حتـى تسـاقط جـص الحوائـط، وانكسـرت

أخشاب النوافذ والأسقف أمام عينيه، فخرج من محبسه يصرخ: «أيها الجد الذي لا يعرف نسله، اغضب كما تريد، فلو انهدم البيت على رأسي ورأس أهلي فلن أغفر لمن خانوا، ولن أفتح قلبي للقياهم من جديد»، ويبدو أن العين الراعية رأت ذلك تحديًا لها، فاهتزت الأرض إلى أن تفصدت أواصر القصر، وخرَّ ككومة من تراب أمام عينيه، ولم ينجُ منه سواه، فراح ينفض الأنقاض عن أبنائه وخدمه صارخًا: «اغضب أكثر، أريد المزيد، لأنني قاسي القلب ولن أستجيب»، فاندلعت الريح وبرقت البروق واشتعلت النيران في إسطبلات الخيول، وامتدت ألسنتها لتلتهم الزروع والأشجار، امتدت لتأكل كل ما تراه عيناه، وهو يصرخ ساخرًا: «أهذا كل ما لديك، أين الجحيم، أريد الجحيم»، بعدها سقطت السيول العظيمة، فكسحت كل ما في طريقها نحوه، حتى جرفته إلى وادٍ بعيدٍ عن أرضه، أو ما كان يعتبره أرضه، وتوقفت الحرائق ونزلت الثلوج، فظل يرتعد من البرد وجروحه تتفجر بالصديد والدماء، ولا يعرف أين يختبئ من قدره وعجزه، حتى وجد العين الراعية أمامه سواءً بسواء، فجلس على الأرض نازفا ومكابرًا بالضحك، فسألته العين الراعية بصوت حزين: «أما زلت تريد المزيد يا بني؟!»، فنظر إلى جده باكيًا: «ألا يزال هناك المزيد؟!»، فطأطأ الجد رأسه: «هذا جزء مما شهدناه في طريقنا من الفردوس إلى الأرض»، ثم ضجَّ بنشيج مكتوم، فتوقف المجذوم عن بكائه ونظر إليه متعجبًا: «أوَتبكي العين الراعية؟»، فأجابه: «لقد بكت الرمال والأحجار من أجل عذابنا معك، فلِمَ كل هذا العناد، ولِمَ أنت

قاسٍ إلى هذا الحد؟!»، حينها مسح أبو جذام دموعه واعتدل في مكانه قائلًا: «لا أحب الجبناء يا جدي، فلِمَ تريدني أن أبسط يدي من أجلهم؟!»، فمسح الجد دموعه ناظرًا في عينيه: «كأنك لم تنجب، ولم ترغب في حماية أطفالك الضعاف من الذئاب، كأنك ولدت من حجر، فلا ترحم ولا تسمع ولا تطيع»، فبكى حبيب الله: «من أجلهم ذهبت، ومن أجلهم تخليت عن مجدي، من أجلهم أرسلت خدمي ليفرشوا الغرف بالستائر لهم، ويحضروا الجياد لركوبهم»، هنالك سقطت من عين العين الراعية دمعة أحرقت ما تحتها على الأرض قائلًا: «ومن أجلهم وهبناك المال والمجد، وسرنا أمامك في الطرقات المظلمة، ولم نضللك السبيل يومًا كما أضللناهم، ولم نحمل عليك سخرة كما حملنا عليهم، فهل تريد أن تنزل عذابين على قلب؟!»، لم يكن المجذوم قد انتبه إلى أن جذامه اختفى، ولا إلى أن السماء أفصحت عن وجه منير به قمر ساطع، وثلج تتطاير نتفه على الوجوه كما الريح العليل، ولم ينتبه إلا في تلك اللحظة إلى أن اختيار صواب الطريق منحة، وأن الترفع عن الأذى منحة، وأن الشكر في وقت الضيق منحة، فرفع عينيه متأملًا وجه جده الرحيم قائلًا: «غدًا.. أذهب لأرضيهم».

ومثلي مَن تهفو به نشوة الصبا ومثلك مَن يعفو وما لك من مثل

هي النعل زلَّت بي فهل أنت مكذب لقيل الأعادي إنها زلة الحسل

تهـادت إلـى أذن مـراد أشـجان ابن زيـدون بمجـرد اقترابـه من باب الشـرفة، كانت الجدة تسـمعها من جهاز يعمل بالريمـوت كنترول، حين لمحت شبح حفيدها وهو يطل بشعر رأسه المهوش من الباب الزجاجي الرابط بين الشرفة والصالون، عدلت من كرسيها وأشارت إليه بالجلوس فـي المقعـد المواجه لها، فارتمى أمامها بجسـد مهـدم، وراح يتمايل مع الصوت الشجي للمطربة غير المعروفة، كان من المفترض أنه يبحث عن الجدة ليسـألها عما تعنيه الأوراق التي دفعت بها إليه، لكنه كان قد نسـي الأمر في رحلة البحث عنها، وأحاله التفكير في مكان البيت إلى تذكر جده أبي جذام وما جرى له، حين سـألته عن شـروده سـألها عما دار بخاطره، فهدَّأت من صوت الكاسـيت بحيث يصبح خلفية مناسـبة لحديثها، وهي تقـول: «حين صفى قلب المجـذوم صفت له العين الراعيـة، وردت إليه عافيته، فعاد يبحث عن أبناء عمومته، كان أغلبهم قد مات في سخرة حفر القناة، ومَن عاد منهم كان كثوب مهترئ لا يصلح لشيء، فعمه إبراهيم كان قد كف بصره وطعن سنه، لكن أذنه كانت ما تزال قادرة على العمل، حين ألقى عليه السـلام وجده ينتفض في مكانـه وعلى وجهه الفزع، فاحتضنه باكيًا: لِـمَ كل هذا الخوف يا عمي؟! فجاوبـه بكاءً ببكاءٍ: قضيت عمري كلـه فـي الخوف، فما الـذي يمنعني عنه الآن؟! لم يكـن لدى المجذوم إجابة عن سؤاله، فصمت طويلًا قبل أن يسأله: ما الذي يجعلك تعود إلى سـابق عهدك؟ بـدا وكأن إبراهيم ليس لديه وصفـة واضحة لمنع الخوف عن النفوس، فطأطأ رأسـه أسـفًا: لو كان لي بصر كي أراك ربما أيقنت أن عهـد الأشـباح قد ولَّى. ولم تكـن لدى المجذوم عصا سـحرية ليلبي بها طلبه، لكنه اصطحبه إلى قسـم الرمد بمستشـفى قصر العيني، فظل هناك

أسبوعًا ليخرج منه كأول موريسكي يرتدي نظارة سميكة على وجهه، حين أبصر بها ما أمامه تأمل المجذوم ضاحكًا: كأن الدهر لم يغير شيئًا فيك، فطأطأ حبيب الله رأسه: ضاعت مني زوجتي وأولادي، وأريد أن أعمر من جديد، فدلني كيف أبدأ الطريق في هذه السن؟! تنهد إبراهيم معدلًا من نظارته: هل تجوز لك هانم ابنة أخيك سعد؟! فأجابه حبيب: تجوز يا عمي، قال: هي لك، قال: وما شرطها؟ تنهَّد إبراهيم قائلًا: بيت في المحروسة، فوافقه مشترطًا أن تنتقل العائلة كلها معها، لكن عمَّه هزَّ رأسه نافيًا: لقد كبرت على الرحيل، وأمنيتي أن أموت على فراشي في بيتي، فخذ مَن يتبعك من أبناء عمك إلى مقرك الجديد، فحملهم معه في رحلة لم يرضَ آباؤهم أن يكملوها من قبل.

لم يشأ أن ينتظر بزواجه من هانم إلى أن يبني بيته الجديد، فاستأجر لها بيتًا في المنيرة ظلت فيه حتى أنجبت له سميح وفخري، وشعر حبيب الله أن العين الراعية صفحت عنه، فشرع في بناء هذا البيت، كان مكانًا فضاءً خلف الفيلات والقصور، ولم يكن مسموحًا بالبناء إلا بإذن من الشركة المصرية العقارية، فاشترى منها قطعتين بنى على الأولى البيت، وجعل من الثانية حديقة له، حين أحضر العمال وضرب الطوب اللازم للبناء تذكر كيف ضاعت هيبته وفقد جانبًا من أرضه بسبب تخاذل أبناء عمه في رحلتهم معه إلى كفر الدوار، قال للمهندس: أريد حديقة كبيرة أمامها بيت كبير من عدة أدوار، بكل دور شقتان أو ثلاث، وأمامه فيلًا صغيرة من دورين، تفتح أبوابها على الشارع الكبير. وحين بدأ العمال البناء، ضربوا على البيت والفيلا والحديقة سورًا كبيرًا يشبه أسوار

القلاع، وكسـوه بالقرميد من أعلى، جاعلين السطح لخزَّان المياه وغرفة الغسـيل، وتاركين ما بين السـور وفيلا حبيب الله ممـرًّا يؤدي إلى البيت الذي توزع الموريسـكيون في شـقفه وأدواره، وعندمـا انتقل حبيب الله بأهلـه إليه كانت هانم قـد وضعت بطنها الثاني منجبة سـعيد وهيام، ولم تمـضِ أعوام حتى سـقط حبيب الله في مرضه الأخيـر، تاركًا الجميع في بيت واحد ظل يجمعهم حتى شاءت الأقدار وتفرقت المصائر».

8

حين نظر في هاتفه وجد أن راشيل اتصلت به أكثر من مرة، فأيقن أن فترة مرضه طالت أكثر مما ينبغي، وأن ثمة أمرًا مهمًّا تحتاجه فيه، فتح حاسوبه فوجد أربع رسائل منها، في الأولى كانت تضحك هازئة من متاهته كموريسكي وحيد قائلة: «رجاءً انتبه لعملنا»، في الثانية وجدها تقول إن الأوضاع في مصر أصبحت مهيئة لرحيل النظام، وفي الثالثة كانت تصرخ: «مراااااااد أين أنت؟»، لم يفتح الرابعة وقرر أن يعتذر موضحًا أنه لازم الفراش ثلاثة أيام، فظهرت له على الشات: «حمد الله على السلامة، لدينا عمل كثير ولا بد من إنجازه»، سألها عن ماهية العمل فجاءته كلماتها تلاحق بعضها بعضًا على الشاشة: «الوكالة قررت تعيينك مراسلًا دائمًا من مصر بدلًا من العمل بالقطعة، بذلت مجهودًا كبيرًا لإقناعهم بذلك».

لم يكن مراد يتوقع في يوم ما أن يكون صحفيًّا، فحين جاءه خطاب مكتب التنسيق وجد نفسه مرشحًا للدراسة في كلية دار العلوم، وكان النحو والبلاغة أكثر ما يكره في دراسته، فقرر تحويل أوراقه إلى كلية

أخرى، أشـارت عليه جدته بكلية التجارة كي يكون محاسبًا كجده رفيق، وبعد مناقشـة طويلة تمكن من إقناعها بأن الفنون الجميلة أكثر ما يناسبه، لكنـه لا يعـرف كيفيـة التقدم إليهـا، فابتسـمت موضحة أن أعـز أصدقاء والده يعمل أسـتاذًا فيها، وسـرعان ما التقطت الهاتف واتصلت بالأستاذ شـارحة رغبة مراد في التعلم على يديه، بعدها أخبرته أن الدكتور رؤوف حسـن سـينتظره غدًا في مكتبه، وضع رؤوف أمامه دفتر اسكتشات كبيرًا قائلًا: «ارسـم لي شـيئًا هنا»، ثم تركه ساعة وعاد ليجده قد استخدم أقلام الرصاص والفحم في رسـم عدة لوحات عن البحـر والمراكب المكتظة بالراكبيـن علـى متنهـا، كان بعضهـم يصـارع المـوج مـن أجـل النجاة، وبعضهم كان قد مات بالفعل، كل الصفحات كانت مزدحمة بالبشـر في المياه وعلى الشـواطئ والجبـال والوهاد، جميعها كانـت تبدو كلقطات بالأبيض والأسود عن يوم الحشر في عصور قديمة، أبدى الرجل إعجابه به كفنان له فكره وموقفه الخاص، مقررًا إدراجه في قوائم راغبي الدخول لامتحـان القـدرات الفنية، بعد شـهر أصبح مـراد طالبًا في كليـة الفنون، وأظهر تفوقًا في الرسـم والتشريح والنحت على زملائه وبعض مدرسيه، فضمـه رؤوف إلـى فريـق العمـل في ورشـته الخاصـة، ومع بدايـة العام الثانـي صـار قائدًا للفريق، كانت مهمتهم إعادة رسـم اللوحات الشـهيرة لتعميـم الفائدة من الفن، فالأعمال المصورة لا تزيد العالم إلا تسـطيحًا، هكـذا أقنعـه رؤوف، فعكف على استنسـاخ عشـرات الأعمـال الخالدة لدافنشـي ورامبرانت ورفايللـو ومايكل أنجلو وجوفانـي وأنطونيوكانال وجورجوني وغيرهم، وسرعان ما انتقل إلى أعمال بيكاسو ودالي وميرو

وأقرانهـم مـن أبناء العصر الحديث، في نهاية العام الدراسـي قبل الأخير طلب رؤوف من مراد أن يرسـم له عشر لوحات من مخيلته، مستفيدًا من المدارس والأسـاليب التي عمل عليها في الورشة، فقضى الإجازة كاملة في رسمها، يومها أبدى أستاذه انبهارًا بتقدمه الفني، ومنحه مبلغًا ماليًّا لم يكـن يتوقع الحصول عليه، ولم يخبره بشـيء عن مصيـر هذه اللوحات، ولـم يشـغل مراد بالـه بالأمر، فقـط ظل يمـارس تيهه علـى أصدقائه بأنه أفضـل فنانـي الدفعـة، غيـر أنه فـي منتصف العـام دعاه صديـق لحضور افتتاح معرض واحد من الفنانين العرب، وفي جولته بالمكان توقف أمام ثلاث من اللوحات التي منحه رؤوف مكافأة عليها، كان أكثر ما شغله أنه رأى توقيـع الفنان العربي بارزًا عليها، فلم يسـتطع أن يتمالك نفســه وهو يصـرخ بأن هـذا الفنان لص وهذه ليسـت لوحاته، حدثـت بطبيعة الحال جلبـة في المكان وحضر الأمن ليحمله كمهـووس للفن ويلقي به خارج القاعـة، ولم يكن أمامه غير رؤوف ليعـرف منه كيف وصلت لوحاته إلى هذا الرجـل العربي، لكن صدمته إجابة أسـتاذه: «انسَ الأمر حفاظًا على مسـتقبلك»، كانت صدمته كبيرة في كل ما حوله، فامتنع عن الذهاب إلى الورشــة، وفكر كثيـرًا في الطريقة التي يعاقب بهـا الجميع، حين علم بأن الكلية سـتقيم ندوة عن حقـوق الملكية الفكرية للأعمـال الفنية بحضور العميد ورئيس الجامعة ذهب وانتظر اللحظة المناسـبة، ما إن فتح العميد باب المداخلات حتى التقط المايك سائلًا عن موقف الجامعة من أستاذ يعمل في تزييف اللوحات، فأجاب الأخير بحسـم أنه سـيتم فصله على الفـور، فأخـذ مـراد يصرخ فـي الجميع بـأن رؤوف لديه ورشـة فـي بيته

متخصصة في ذلك، وأنه يستغل جهد تلامذته ليبيعه لفنانين عرب، وأنه تاجر لوحات مزيفة، وانفعل رؤوف غاضبًا، فدخل الأمن وحمل مراد بثورته إلى خارج القاعة للتحقيق معه، ولم يعرف كيف صدر قرار بفصله عامين.

كان قرار الكلية هو فصل مراد منها لتشهيره بأستاذ جليل دون بينة، حينها ضاقت عليه الدنيا ولزم بيته لا يخرج منه ولا يرغب في رؤية أحد، ظلت الجدة عاكفة إلى جواره لتقنعه بنسيان الأمر وسحب أوراقه إلى كلية التجارة، كان شعوره بالهزيمة كبيرًا، ورغبته في الانتقام بلا حدود، فظل يفكر في طريقة لمعرفة ما الذي حدث، في النهاية هداه تفكيره إلى الذهاب لقاعة العرض التي تعاقدت مع الفنان العربي لمعرفة وسيلة اتصال به، وبعد حيل كثيرة حصل على رقم هاتفه واتصل به عدة مرات حتى تمكن من محادثته، يومها ضحك الرجل مواعدًا إياه بعد شهر في أحد الفنادق الشهيرة على النيل، حين التقى به قال إنه غير مقتنع بفكرة اعتذاره، لكنه يدرك رغبته في الانتقام من أستاذه مثلما يدرك قيمة إمكانياته كفنان، قالها بوضوح: «أريدك أن تعمل معي بدلًا من العمل مع رؤوف»، وكان شرط مراد هو الحصول على بكالوريوس الفنون الجميلة بتقدير ممتاز.

كان الرجل أميرًا عربيًا مغرمًا بالفن والتجارة فيه، وبدا له أن العمل مع مراد مباشرة أفضل من وساطة رؤوف بينهما، يومها خصص لمراد فيلا بالتجمع الخامس قائلًا: «هي لك ما دمت معي»، فحمل الأخير

أغراضه وانتقل إليها، رسـم بها أكثر من مئتي لوحة دون تحديد لسـعر أو مقابل، كان يترك الأمر للأمير وكأنه زاهد في كل شيء، فقط تدفعه الرغبة في الانتقام لرسم عشرات اللوحات دون نوم أو طعام، وحين حصل على الشهادة ذهب ليلتقي عميد الكلية كي يخبره أنه لا يقل فسادًا عن رؤوف، كانت المفاجأة أن الرجـل خرج على المعاش واحتل رؤوف مكانه، فلم يتراجع ولم يقرر الانسـحاب، بل أكمل طريقه للدخول عليه، ولدهشـته كانت دماثة رؤوف معه في ذلك اليوم بلا حد، بدا له أن الرجل مهزوم من الأساس، وأنه صار يتمتع بالحكمة أكثر من أي وقت مضى، بعد فترة من الصمـت وضـع رؤوف عينه على نقطة باهتة في الحائـط متنهدًا: «أعرف أنـك جئت لتخبرني أنك حين تقرر بيع نفسـك فإنك الذي تحدد الثمن، لكـن كل هـذا بلا جـدوى، فقد دخلت المسـار الذي دخلته منـذ أربعين عامًـا، أنـت الآن تربـح لكنك تبتعـد عن ذاتك، ولـن تكون فنانًـا في يوم ما، فقط سـتظل محترفًـا للفن، وربما تتحول بعد وقـت إلى تاجر جديد، جميعنـا بدأنـا من هذه النقطـة، وتحولنا إلى هذه القمة الفاسـدة». ورغم تقززه من كلمات أسـتاذه ورغبة الأخير في إفساد فرحته بالانتقام منه، إلا أن الكلمات ظلت تدور في رأسه كرحى لا تعرف معنى التوقف.

حيـن فاجـأ الأمير العربي برغبته في إقامة معـرض خاص به لم يمانع ولم يقف في وجهه، لكنه قال: «فكر قليلًا.. فالحياة ليست بالبساطة التي تراهـا»، اعتبر مراد ذلـك نوعًا من الغيرة وخوف الرجل على الطائر الذي يبيض ذهبًا في قفصه، فعكف على أن يرسم عددًا من اللوحات التي توقع

أن تحدث مفاجأة للوسط الفني، وتعلن عن ميلاد فنان كبير بدرجة شاب، من جانبه قام الأمير بحجز واحدة من أهم قاعات العرض في القاهرة كإهداء منه لصديقه، وحرص على أن يساعده بنفسه في إحضار البراويز وطبع بوسترات الدعاية، وذهب كلاهما إلى القاعة يوم الافتتاح في انتظار عشرات الضيوف من كبار النقاد والأساتذة الذين تمت دعوتهم، لكن أحدًا لم يأتِ، وكل الذين حضروا كانوا زملاء قدامى لمراد، ورغم ذلك فقد فوجئ الأخير بلوحة له مع مقال على نصف صفحة في واحدة من أشهر الجرائد القومية تحت عنوان: «مهنة تقليد الكبار»، تحدث فيه الناقد الشهير عن رغبة بعض الشباب في الشهرة عبر تقليد لوحات لفنانين مشاهير في عصرنا الراهن، وكان من الصعوبة على مراد أن يثبت للناس أن الآخرين هم الذين سرقوا أعماله، فمزق لوحاته وأغلق على نفسه غرفته مدركًا أن الحياة ليست بالبساطة التي يتصورها، وتحت وطأة الغضب والشعور بالفشل قرر أن يهجر عالم الفن التشكيلي، وحين سأله صديقه الأمير عن المجال الذي سيعمل به، أجابه بأنه يبحث عن جريدة ليعمل بها رسامًا للصفحات، ورغم أن ذلك لم يكن حقيقة إلا أن الأمير ضحك قائلًا: «وهذه أيضًا ستكون هدية مني»، ثم أخرج «كارت» شخصيًّا وكتب عليه توصية لرئيس تحرير جريدة شهيرة.

هكذا وجد مراد نفسه منتميًا إلى عالم الصحافة، فقد حمل الكارت ودخل على رئيس التحرير الذي رحَّب به كفارس عظيم، ثم أمر بتعيينه كمصور

لا يحتاجه أحد في شيء، في البدء اعتقد أن الجريدة ستكون فرصة طيبة لتحويل المسار الذي اختطَّه لنفسه، لكن المضايقات التي لاحقته جعلت الحياة تتخذ وتيرتها الباهتة معه، حيث جلس في البيت لا يفعل شيئًا سوى مطالعة النت ومشاهدة التلفزيون وقراءة الجرائد أو النزول للجلوس على المقاهي المجاورة للبيت، ونادرًا ما كان يذهب للجريدة أو يتابع عملًا ما، ظل على هذه الحالة أكثر من عام ونصف العام، قبل أن يفاجأ باتصال من مدير مكتب مسئول كبير، حين ذهب وجد المسئول في انتظاره برفقة أستاذه رؤوف حسن، قال المسئول: «الوزير معجب بلوحاتك»، فضحك مراد: «لكن مهنتي هي تقليد الكبار»، هنالك تدخل أستاذه: «الوزارة تريد أن تعتمد عليك في مشروع كبير»، يومها ضحك قائلًا: «لكنني لا أستطيع الزواج من اثنتين»، مشيرًا إلى عمله مع الأمير العربي، ففتح رؤوف حقيبته وأخرج مجلة على غلافها صورة الأمير وتحتها عنوان عريض. «رحيل الأمير الفنان»، في هذه اللحظة فقد مراد توازنه وطرق رؤوف على الحديد وهو ساخن، موضحًا أنه لم يكن يومًا بعيدًا عن أعينهم.

كان خوف مراد من اتهامه بالمشاركة في عمليات تزييف هو ما جعله يقبل بالمهمة التي تم تكليفه بها، ولم تزد على إعادة رسم عدد من لوحات فناني عصر النهضة، كان أغلبها قد رسمه مرات ومرات من قبل، الفارق الوحيد أنه سيرسمها بأدوات وتقنيات ستجعلها تتماهى مع اللوحات الأصلية في القدم، قال رؤوف إن ذلك مشروع كبير لإعادة إحياء الفن، وإنه لن يعمل فيه وحده، فثمة مرممون وكيميائيون وأساتذة كبار

سيكونون معه، لكن مهمته ستكون بمثابة حجر الأساس الذي سيعمل عليه كل هؤلاء، لم ينشغل مراد بأيٍّ من هذا، وقرر أن ينهي مهمته بأسرع وقت كي يغلق ملفه القديم في هذا المجال، بعد عدة شهور تسلموا منه اللوحات التي كلفوه بها ثم أبلغوه أن المشروع توقف لانعدام التمويل الكافي، فحمد الله أنه انتهى من الأمر بسلام، وعاد ليستمتع بعزلته، ولم تمضِ شهور حتى فوجئ بمقال في الجريدة التي يعمل فيها تحت عنوان: «سرقة لوحة شهيرة»، لدهشته كانت اللوحة إحدى الأعمال التي اشتمل عليها المشروع، ففكر في أن يذهب لرئيس التحرير كي يخبره بالحقيقة، لكن الأحداث كانت قد تسارعت، واجتاحه الخوف من كل شيء حوله، فأغلق هاتفه لاعنًا اليوم الذي قرر أن يدخل فيه كلية الفنون، وظل يعيش في هدوء برائحة الخوف حتى طلبت منه راشيل كتابة تقرير أسبوعي عما تقوله الصحافة في مصر، ثم عادت لتقول إن الوكالة اعتمدته مراسلًا دائمًا لها في القاهرة، يومها طلب إعفاءه من المهمة، فلا يمكنه أن يغالب خوفه، ولا رغبة لديه في الاحتكاك بأيٍّ من المسئولين، يومها تعلل بكونه ليس صحفيًّا، ولا يجيد أبسط قواعد اللغة، وأنه آخر شخص يمكن الاعتماد عليه في عمل منتظم، لكنها كانت حاسمة، قالت بوضوح: «لقد راهنت عليك.. وقضي الأمر».

9

قضيت خمسة أيام بين الحياة والموت، يعاودني البيطاري كل صباح ومساء، ولا يخدمني في غرفتي غير العم باديث وزوجته، فقد منع الخدم من الدخول عليَّ حتى لا يتسمعوا ما أهرف به من كلام في هذياني، كان والدي طيلة الوقت معي بوجهه المنحوت وملامحه البارزة وطوله الفارع، بينما جواده العربي ينتقل به من مكان إلى مكان، مرة في أعالي الجبال وأخرى على السفوح، وتارة بين الرياض والبساتين وأخرى في الفيافي والصحاري القفار، رأيته يقود قومه في معارك صغيرة تتوسع وتكبر ولا تنتهي، ومَن يمُت منهم يترجل من على حصانه كي يدفنه بملابسه ويضع عليه علامة كبيرة من الحجر الجيري، يحفر عليه اسمه ولقبه بالعربية، ويقف ليدعو له بالفردوس العظيم، ثم يركب جواده ويطير كفراشة بين البساتين والحقول، رأيت اقتتالًا وخوفًا وحماسًا وشجاعة منقطعة النظير، جميعهم كانوا أبطالًا في مواقفهم العصيبة، لم يتأخر أحد عن نجدة غيره، وكأنهم تحولوا إلى كرة من لهب تتدحرج من أعلى التل ولا تتوقف حتى تدخل أبواب غرناطة الجميلة، نظرت

بعينـي فيمن أرى فلم أرَ فرنانـدو ولا حبابة بينهم، نظرت في كل الأماكن بعينـي صقر حتى كـدت أرى الدودة في الأرض والخط الصغير في ورق الشجر لكن دون جدوى، وحده أبي كان يمرح بمَن معه على مدى البصر أينمـا وليت وجهي، يتصل بكتائب تارة وينفصـل عنها تارة أخرى، يغزو قرى وحصونًا ويحمل أسـلابًا ويجمع عبيدًا ويطير من مشـهد لآخر، لم يحادثني أو حتى يبتسـم في وجهي، وكلما ناديت عليه كان يشـيح بوجهه عني كأني أخطأت، أو كأنه لا يريد أن ينتبه الناس لمكاني، كانت نداءاتي تدوي مـع الريح على قمم الجبال وبين الصخور، كنت أسـمع أصداءها تتردد بين البيوت والصوامع ومجاري المياه، بعد لأي لمحت على البعد زهـراء، ناديت عليها وأشـارت لـي بحجابها، وكلما هرولنـا تجاه بعضنا بعضًا كانت القمم تزيد وتتكاثر لتحول بيننا، والأرض تتسـع وتكبر حتى صرنـا كحصاتين فـي طريق ملـيء بالأحجار والصخور، لهفـي عليكِ يا زهراء، وحدها أمي التي جاءتني في مخبئي، ربتت ظهري، وقالـت: «لقد فعلت ما أمرت فاهدأ يا بني»، حسبتها تذكرني بليلة أرسلتني فيها بالطعام لأبي ورسالتها له في فمي تقول: «حياتك بقاء لمن مات، وموتك بقاء لمن أجرم»، لكنها كانت تشـير إلى الأعالي في الغرب، فنظرت نحو الإشارة، فإذا بالعم باديث يقرأ في مصحف كبير، وإذا بزوجته تملأ يديها طميًا من جير الجبال لتمسـح به على جدران مسجد قديم، حين التفت لم أجدها، ولـم أجد أبي ولا زهراء، وجدتني وحدي أبكي كصبي في متاهة لا خروج منها، وقد ألقى الليل أستاره على كل ما حوله، حينها فقط، فتحت عيني،

نعـم لـم أكـن أحلم ولا أهذي، كنت يقظًا كما أنـا الآن، وكان أبي بجانبي ممسـكًا بملعقة خشـبية وطبق من فخار، يدفع بالثريد نحو فمي، فأزدرده رغمًا عني، كانت إيماءاته بالسكوت كما اعتدتها دائمًا، لكن شيئًا ما تغير فـي طبعه، فقد أصبح رقيقًا بما يكفي، أصبح ممزوجًا بأمومة كنت أحوج مـا أكـون إليها في هذه الليلة، وكلما سـقط الطعام من فمي أمسـك بذيله الطويل ونظف ملابسي، حين شعرت بالشبع توقف من فوره مربتًا كتفي: «نـم الآن يـا محمـد، فغدًا سـأجيئك من جديـد، غدًا سـيكون لنا حديث طويل». حينها أغلقت عيني مثلما فتحتهما ورحت في سبات أهل الكهف، لا أعـرف كـم مرَّ مـن الوقت، ولا كم جـرى من الأحـداث، لكنني كنت مطمئنًّـا كالنائم في بيته، فلا فـزع ولا خوف، لا جوع ولا عطش، وحدها أذني التي تسمعت صوت البيطاري وهو يجس بيديه نبضي: «اليوم أفضل بكثيـر»، هكـذا قال، وهكذا تهـادى إلى أذني صوت زوجـة العم باديث: «لقد تناول طعامه كاملًا»، ضحك البيطاري: «عمره سـيكون مديدًا»، ثم وضـع راحتـه على جبيني، وفتـح بإصبعه جفني فرأيتهمـا يقفان كزوالين على حائط، وجفلت مقلتي من الضوء الصارخ فأغلقتها رغمًا عنه، فكأكأ بصوتـه الرفيع ضاحكًا: «حمدًا لله على السـلامة، مَن زهراء التي أرقتك كل هـذه الأيـام؟!». لكنني لم أُجب، وهو بدوره لم ينتظر ليرى الدهشـة على ملامحي، فقد وضع أدواته في محفظته واستدار خارجًا.

رفاقـي في الورشـة هم الذين حملونـي على أذرعهم نحـو بيت العم باديـث، أمـا هو فلـم يكن يعرف مـا الذي ينبغـي عليه فعلـه، كان يهرول

خلفهـم مرتبـكًا وموقنًا بأنني في عـداد الأموات، وجهه تلـوَّن بألف لون حين سقطت دون كلمة أمامه في الورشة، قالوا إن الرجل يحبني أكثر من نفسـه، قالـوا تحللت أعصابه وفقد رشـده وراح يصيـح دون أن يدري ما الذي يريده منهم، يصيح فقط حتى تنبَّه بعضهم وهرولوا إليه، بينما هرول آخرون إلى بيت البيطاري، فحملوني إلى البيت وهو يلطم وجهه خلفهم، في البدء قال البيطاري: «إغماءة بسـيطة وسيفيق منها على المساء»، لكن حرارتـي تزايـدت، وعرقي انهمر كالسـيل العرم، ولم يعد بوسـعهم ترك المفارش غارقة بالماء، فاختلط على البيطاري الأمر، وأمرهم بعزلي عن الجميع بغرفة رطبة: «وادعوا له بالشـفاء»، فسـقط الرعب في مفاصلهم: «هل تموت الأمانـة عندنا؟ وما الذي يمكننا أن نقوله لصاحبها؟!»، لكنه مثلمـا جـاء طوفان فجأة فقد انقطـع فجأة، وهبطت السـكينة مثلما زالت الحمـى، ورأونـي أتأرجـح مـن جديد بيـن جنبـات الغرفة سـائلًا: «متى يمكننـي النـزول للعمل؟!»، فقهقـه البيطاري العجوز: «يا لك من شـقي غريب الأطوار!»، كان جسـدي قد عـاف الفراش ورائحة العرق ورطوبة الغرفة، فقلت: «راحتي في الورشة بضجيجها وأشغالها وعمالها»، لكنني وجدت قلبي قد عاف طليطلة وما فيها، كانت لديَّ رغبة للحركة أكبر مما أتوقـع، أكبر من قدرة أي مكان على الإمسـاك بي، فأبي وجواده يمرحان علـى مـدِّ البصر، وقلبـي يأكلني على زهـراء، وفرنانـدو الغائب الحاضر يهش بعصاه أمام عيني كطاحونة هواء، «فما الذي حدث في البشرات؟»، هكذا حدثتني نفسـي، ويسألني باديث عما حلَّ بي، فأقول: «رأيت أبي»، ويجيبني: «كان فارسًا.. رحمه الله»، أقول: «رأيته بالفعل»، فيستعيذ بالله

من الشيطان مستغفرًا، وموقنًا بأنني أُصبت بالمس أو الجنون، «لعلك ما زلت مريضًا، غدًا نذهب إلى الكنيسة، بها تعاويذ تحرق الصخر»، هكذا باديث في وادٍ، وأنا في وادٍ آخر، لا يجمعنا سوى الحزن واليأس والخوف، فلزمت الصمت مدة حتى هزني قائلًا: «أوَتشعر بشيء؟»، فهززت رأسي نافيًا، ثم رفعت عيني المنكسرة لأضعها على وجهه: «أريد السفر»، فتبسَّم الرجل كما لو أنه وجد الخلاص: «مع اكتمال المحاق تصحب الرجال لشراء أتربة وأوراق»، لكنني قاطعته: «البشرات أريد يا عمي»، حينها تجعدت ملامحه وغارت عيناه، فهززت رأسي أسفًا: «نعم البشرات»، ورأيته يحاول كسب الوقت: «لكنها في حرب، والطريق غير مأمون، ولن يسمح الإسبان بالدخول أو الخروج منها»، غير أنني وضعته أمام الرجل الذي لا يمكنه أن يخالف له أمرًا: «أبي أمرني بذلك»، فوضع يده على الأرض قابضا بيأس على الحصى: «لك الله يا بن جهور، لا تتورع أن تزج بنفسك وبنيك في وادي الصعاب»، حين انتهى من عتابه لوالدي رفع رأسه نحوي مستسلمًا: «غدًا نتدبر الأمر».

10

القاهـرة تضـج بالزغاريد كما لو أنها لـم تعرف معنًـى للفرح من قبل، فقـد سـقط الزعيم وتـم تفويض الجيش في إدارة شـئون البـلاد، وتغافل الناس عن ذلك مبتهجين بالنصر، كانوا قد جلسوا على المقاهي في اليوم السـابق منـذ الظهيرة حتى العاشـرة ليلًا منتظرين الخطـاب الأخير، ذلك الذي أعلنت كل وكالات الأنباء أنه سـيعلن تنحيه فيه، لكنه خرج عليهم بعد طول انتظار ليقول إنه راغب في إكمال مدته والموت على أرض هذه البـلاد، كان ذلك بمثابة صدمـة للجميع، فقررت الجموع في الصباح أن تؤدي صلاة الجمعة في الشـوارع والميادين وتزحف لمحاصرة القصور الرئاسـية، حينهـا لـم يكن أمام قادة جيشـه سـوى أن ينصحـوه بالتنحي، فاشـتعلت القاهـرة بالتهاليـل والأحضان وأضـواء الألعـاب النارية التي شقت طريقها نحو السماء.

أرسـل الموريسـكي تقريره وخرج يبحث عن جدته في غرفتها، نادى عليها مرتين ولم يجدها، توقع أنها في شرفة البيت، فدفع بخطواته ليراها تقلـب فنجانها كمـن يقرأ طالع الأيـام، بينما مطربة قديمـة تترنم بصوت شجي:

عَذيـرِي مِـنْ خَلِيـلٍ يَسْـتَطـيـلُ   يميـــلُ مـع الزَّمانِ كمَا يميـلُ
ويرضَى أن تضيعَ سدًى حقوقي   وَبَاعـي في الهَـوَى بـاعٌ طَوِيـلُ

راح يسـابق الصوت في غنائه وكأنه يقدم مشـهدًا تمثيليًّا أمامها، حتى إن الجـدة خجلت من حركاته وضغطت علـى الريموت فأوقفت صوت الكاسـيت، فانحنى طابعًـا قبلة على خدها قائلًا: «جنى هانم تهيم عشـقًا فيمَـن؟»، فرفعت عينها تجاهـه: «تذكرت يوم خطبني جدك»، لم يتمالك نفسـه من الضحك، فارتسمت مسحة من الحزن على وجهها واستدارت عنه، شـعر أنـه أخطأ التصـرف وانحنى ليقبِّل رأسـها معتـذرًا: «اعتقدت أنـكِ نسـيت هذه الأمـور منذ زمن طويل»، فاسـتدارت إليـه ببريق هادئ في عينيها: «وهل أنسـى أن الجدة هانم هي التي اختارتني زوجة له»، بدا أنها جادة في تذكرها للأمر، فتوقف مراد عن الضحك واتكأ بذراعه على سور الشرفة: «كيف؟»، تنهَّدت وكأنها تسافر في الزمن البعيد: «كنت في الثالثة عشـر، وكان أحفاد حبيب الله يقيمون في هذا الدور بعدما انتقلت إليـه الجـدة هانم، كانت شـقتنا مواجهة لشـقتهم، لم أكن أتوقـع يومًا أن يكون رفيق زوجًا لي، ربما لأنه يكبرني بعشـر سنوات، وربما لأنني كنت مشغولة بشاب آخر، فحين دخلت التوجيهية تعرفت عليه أمام المدرسة، فصرنا نلتقي بعد انتهاء الدراسة كل يوم بالقرب من مسجد الشيخ العبيط، ثم نذهب للسـير على كورنيش جاردن سيتي، حين أرسلت المدرسة إلى البيت تقريرًا عن هروبي المتكرر كلفت الجدة رفيق بمراقبتي، ظل ينتظرني أمام المدرسـة حتى التقيت ذلك الشاب، وذهبنا كالعادة إلى الكورنيش،

حينها وجدناه أمامنا فجأة وكأنه سقط من السماء، صفعني على وجهي وأخذني من يدي كمَن يجر عنزة إلى البيت، يومها اجتمعت العائلة وتلت الجدة هانم قرارها على والدي: سميح طلب يد ابنتك جنى لابنه رفيق يا فخري، وأنا وافقت. فتمتم والدي بخضوع: الرأي رأيك. ولم يستغرق الأمر أكثر من أسبوع لشراء الأثاث وتعليق الزينة ودعوة الضيوف، كانت صفعته ما تزال حاضرة على وجهي، حين اقترب مني أصابتني رجفة كما لو أنني أمام وحشٍ ضارٍ، وكلما حاول التقرب مني ازداد الرعب في داخلي، حتى أشفق عليَّ وتركني أنام على السرير ووضع لنفسه فراشًا على الأرض، في الصباح تفحصتني الجدة هانم بعين خبيرة، ثم اصطحبته معها إلى الخارج، حين عاد وجدته ينظر إليَّ وكأنني غير موجودة، بينما كل مَن في البيت يهنئونني ليس على زواجي من رفيق، ولكن لأن الجدة هي التي اختارتني له، لكن ذلك لم يمحُ خوفي منه، ودام الأمر بيننا على هذا النحو ما يقرب من عام كامل، فلا هو يقربني ولا خوفي منه يزول، ولا أعرف إن كانت العائلة كلها تواطأت على الأمر بالصمت أم أننا بدونا أمامها كزوجين عاديين تمامًا، حين شعرت أن الحصار ضاق عليَّ أكثر من اللازم ذهبت إلى الجدة قائلة: طلقيني من رفيق. فأخذتني في حضنها ضاحكة: سأنظر في الأمر. بعدها وجدته يدخل عليَّ قائلًا: قابليني في الظهيرة في ميدان سليمان. كنت أظنه سيأخذني لمأذون كي يتم مسألة الطلاق، لكنني فوجئت به يتخذ بنا طريقًا إلى الكورنيش، ومنه إلى حديقة الحيوان لنجلس صامتين وكأننا غرباء لا يعرف أيٌّ منَّا الآخر، فأخذ اثنان من الشباب يغازلانني على مرأى منه وهو صامت، ولم يكن

أمامي سوى أن أحتمي به، هنالك نهض من مكانه وتشاجر من أجلي، يومها ضربهما لكنه لم يخلُ من بعض الجروح في وجهه وعينيه، فرحت أمسح الدماء عنه وأنا أعيد حساباتي، فهو اختيار جدتي لي، وابن عمي ومسئول حسابات الوكالة، يتمتع بوسامة أفضل من الشاب الذي تعلقت به، ومعه البكالوريا ولو شاء لأكمل تعليمه في الجامعة، فهل جننت كي أرفض رجلًا يسعى الجميع للتقرب منه واصفينه بالعاقل الحنون، يومها أيقنت أنه بالفعل اختيار العين الراعية وأنني الأكثر حظًّا بين النساء، لكننا كنا كلما رزقنا بمولود توفي في أسبوعه الأول، وتكرر الأمر مرات حتى نجا من الموت أبوك يوسف ومن بعده عمتك نجاة».

تذكر مراد علاقته غير المفهومة مع راشيل، فلا هما يعيشان قصة حب ولا عقله يخلو من الانشغال بها، رغم أنه للآن لا يعرف منها سوى صوتها، صوت ليس فيه أنوثة ولا ذكورة لكنه يشبه ماكينة الحياة التي تعيشها، جذبته جنى هانم من شروده: «لعلك تذكرت ناريمان؟»، لم يعرف بمَ يرد عليها، فناريمان التي قال جده إنها لمراد ومراد لها مختفية منذ سافرت مع عمها عفيف إلى لبنان، كانت بمريول المدرسة حين توفيت عمته نجاة تاركة إياها وشقيقها وديع، لكن عفيف الذي غادر البلاد منذ سنوات جاء وأخذهما من جدهما رفيق، ولم يستطع الأخير أن يقول له «لا»، وعلى النقيض مما توقعه الجميع كان سخيًّا معه بما جعل الموريسكيين جميعًا يطالبونه بمعاملتهم مثلما عامل عفيف.

تنهدت الجدة قائلة: «سامحها الله جواهر، مزقت شمل العائلة وأثارت المشكلات حتى من قبل زواجها بعفيف، كم عارض والده

سميح تلك الزيجة، حتى إنه حبسه في مخزن الخردة بمصنع الزجاج قائلًا: ليس من صلبي مَن يخرج على قانون الموريسكي ويتزوج من غير الموريسكيين، إلا أن الجميع اضطر لعمل الزينة وإقامة الأفراح بعدما ذهب رفيق لأخيه سميح قائلًا إن العين الراعية بسيفها المسنون جاءته في المنام قائلة: زوِّجوا الغريب للغريبة، ولا تخشوا على دماء الموريسكي من الدنس. كان ذلك في عام الانفصال عن سوريا، وعام الحزن الذي عمَّ الجميع، فلم تمضِ شهور حتى رحل سميح حزنًا على ابنه عفيف من غضب العين الراعية، بعدها أصرت جواهر على ترك البيت والإقامة بعيدًا عن الموريسكيين، طلب رفيق يومها من ابن أخيه ألا يسمع كلامها، فقد وعدت العين الراعية جده حبيب الله أن مَن يخرج من بيته هذا دون عذر لا يناله إلا غضبها، لكن عفيف لم يكن ينصت إلا لحديث زوجته، فاشترى بيتًا بالقرب من قصر البارون إنبان، وطلب ميراثه عن أبيه، طامعًا في مصنع الزجاج له ولأخيه أسعد، وظن الجميع أن رفيق سيرفض، لكنه قال لهم: يكفيه ظلمه لنفسه. ويبدو أن العين الراعية لم تكن راضية، فلم يمضِ عام وآخر إلا وصدر قرار بمصادرة المصنع، فاشتعل غضب جواهر على البلد بأسره، وكاد عفيف يُعتقل بسببها، لولا أن أصدقاءً نصحوه بالخروج من البلاد، فكانت لبنان مستقرًّا لهم قبل أن تنقطع بهما الأخبار».

وضعت الجدة يدها على خدها وصمتت مسترجعة أيامًا بكى فيها رفيق على صدرها، وشعر مراد أن هذا يوم الذكريات المؤلمة، فهمَّ أن يتناول الريموت ليعيد الصوت الشجي إلى الحياة، لكنها أمسكت بيده،

ومسحت عينيها قائلة: «في تلك الآونة احتضن رفيق ابن أخيه أسعد، فزوَّجه من ابنته نجاة، قائلًا له: من اليوم أنت ويوسف أشقاء، تعملان يدًا بيد، وإذا مت فما أملكه إرث لكما بالعدل، كل شيء قسمة بينكما، عسى أن تكون العين الراعية راضية عنا. حين أنجبا ناريمان كنت ما تزال في العاشرة من عمرك، حملها جدك رفيق على يديه ووضعها في حجرك، ثم جمع يوسف وأسعد أمامه قائلًا: ناريمان لمراد.. ومراد لناريمان. فاحتضن كل منهما الآخر مباركًا له، لكن الأيام السعيدة لا تدوم، فقد مات أسعد تاركًا في أحشاء نجاة ابنهما وديع، فكان يأخذهما في حضنه كل ليلة قائلًا: ولا تعلم نفس بأي أرض تموت. وسرعان ما مرضت نجاة ولحقت بزوجها، فراح يبكي كما لو أنه لم يبكِ من قبل، ولزم فراشه بالأسابيع لا يأكل ولا يشرب إلا غصبًا، وما كاد يخرج من حزنه حتى جاءنا عفيف وجواهر قائلين. نريد أبناء أسعد وإرثهما، كاد يوسف يفقد عقله ويقتلهما في ذلك اليوم، لكن رفيق قال: ابحث عن مشترٍ لحديقة البيت. حين نظر يوسف مستنكرًا احتضنه وهو يقول. الله لم يجمع ظلمين على قلب، فهل نجمعهما نحن؟».

11

جهزني عمي باديث بمئونة تكفي أسبوعًا، رغم أن الطريق لا يستغرق أكثر من يومين، قال إنه لا يعلم ظروف الحرب بين الإسبان والبشرات، وطلب مني أن أبلغ فرناندو منه السلام، وأن أسأله إذا كان بحاجة إلى أهله هنا، موضحًا: «إنهم يعتقدون أننا خذلناهم، لكن هذا لم يحدث، فقط نحن لا نستطيع أن ننكر النعمة التي نعيشها، ولو كانوا في مثل ظروفنا ما فكروا في الثورة، لكن الله وحده يعلم ما في النفوس». رأيت عينه منكسرة وفي حلقه غصة من شيء ما، لم أعرف وقتها إن كان غاضبًا من الثورة أم لأنه لم يشارك فيها، لكنه كان حريصًا على ألا أُصاب بأذى، فأحضر ثلاثة بغالٍ ورجلين كي يكونوا في معيتي، ووجدته يدفع لي بدرعٍ وسيفٍ قائلًا: «لتقشير جوزة الهند إن اعترضتك في الطريق»، أصابني كرمه بالخجل، ورفضت اصطحاب الرجال والسلاح «إن أنجوني من اللصوص فإنهم سيقتلونني على يد الجنود»، هكذا قلت مكتفيًا بخنجر دسسته في طيات ملابسي، وما إن وضعت رحلي على الجواد حتى قام كل مَن في الدار

لتوديعي كأنني ذاهب إلى حرب لا عودة منها، فتركتهم والدموع تملأ عيني متجهًا إلى البيت كي أودع بيلارا وبيدرو وزوجة العم باديث، على درجات السلم المؤدي لغرفتي في الدور العلوي رأيتها واقفة وفي عينها دمعة لا تنزل ولا تزول، وقفت أمامها ولديَّ سؤال واحد لا أستطيع النطق به، بينما في رأسها آلاف الأسئلة عن المجهول الذي لا أعرفه، كنت أعلم أنها في أشد الاحتياج لمن يربت كتفها ويأخذها في حضنه، أنا نفسي كنت أحتاجها لأن تفعل معي ذلك، لكنها لم تفتح فمها بأكثر من: «سننتظرك كما نحن»، ثم رأيتها تتهاوى جالسة على السلم، كدت أتهاوى معها لولا أن يدًا مسَّت كتفي برفق من الخلف، فاستدرت لألقي بنفسي في أحضان صاحبها، كانت هذه يد العم باديث التي استسلمت لها عائدًا إلى الباب، كان يجر أعضاءه كالعائد من معركة خسر فيها كل شيء، لكنه أصر على مساعدتي في امتطاء الجواد بيديه المرتعشتين وعينه الحبلى بأنهار لا تجف، قلت: «ادعُ لي»، فانفجرت مقلتاه بالدموع: «سننتظرك جميعًا»، حملت جملتيهما كبشارة في قلبي، ورحت أحث الجواد بالسير في اتجاه الجنوب الشرقي نحو غرناطة، آملًا أن ألتف بعيدًا عن العيون التي ترصد العابرين في هذه الأيام، ودعوت الله ألا تكون هيئتي قد تغيرت كثيرًا كي لا يقتلني أصحاب ابن أمية قبل الوصول إلى فرناندو، حين رأيت جوادًا مسرعًا باتجاهي أسفل الجبل شعرت أن شيئًا ما يُحاك ضدي، أرخيت العنان لجوادي ورحت أضربه بقدمي كي يسرع في سيره، لكن ضربي له بدا كما لو أنني أهدهده، فاستسلمت لقدري وأخذت أسير بثقة مارك

بولـو فـي بلاد المغول والتتر، أو متطلعًا لمعالم الجبال والسـهول كما لو أنني كرسـتوفر كولومبوس في بلاد العالم الجديد، تشاغلت بهذه الفكرة حتى تسـاوى جواده مع جوادي، فالتفـت لأُلقي عليه تحية الصباح، لكنه كان ملثمًـا ولـم أرَ ملامحه، هـو بدوره لم ينظر لي ولم يـرد على تحيتي، وحين سـبقني ببضع مترات توقف بجواده كما لو أنه نسـي شـيئًا، تأملت هيئتـه من الخلـف فوجدتها مألوفة لـي، انحناءة الظهـر وطريقة الركوب وكيفية التعامل مع الجواد هي نفسها، حين اقتربت منه سألني عن وجهتي فقلت: «غرناطة»، وكنت أظن أن تلك إجابة كافية، غير أنه عاد يسـأل من جديـد: «غرناطة أم البشـرات؟»، فدهشـت من معرفتـه بحقيقة وجهتي، وارتبـت أن يكون تابعًا للكنيسـة أو الإسـبان، فتلجلجـت قبل أن يجيئني صوتـه: «إذا كنت ذاهبًا إلى هناك فاتبعني»، انتبهت إلى رنة الصوت، هي نفـس رنة صـوت والدي، نفس صرامته في الحديـث، لكن أبي مات منذ شهور، فكيف يمكن للموتى أن تمتطي الجياد وتحادث الأحياء؟ سمعت صوته يتردد: «معك حق»، ولم أعرف إن كان يجيب عمَّا في ذهني أم أنه يخاطب نفسـه، وللحظة اقشـعر جلـدي، وتزايدت ضربـات قلبي، لكن صوتـه من جديد جاء: «السـفر يحتـاج إلى رفقـة»، كان يحادثني دون أن يلتفت إليَّ، أو ينتظرني لأسير بمحاذاته، وكلما هممت لأقترب بجوادي منـه كان جـواده أسـبق، وظلت المسـافة بيننا على ما هـي عليه، لا تطول ولا تقصـر، بينمـا صوتـه يأتي هـادرًا من مـكان عميق، كأنـه يتحدث من أحشـائه، قال: «سـتمر بمنعطفات صعبة، وأماكن موحشـة، فلِمَ خرجت

وحدك؟»، لم أنشغل بالرد على السؤال وقررت أن أباغته: «هل تعرف أبي؟»، حينها ضحك ضحكته الهازئة التي أعرفها منذ الصغر: «أهل البشرات جميعًا يعرفون بعضهم بعضًا»، تمتمت خلفه: «نعم.. لكن هل يعود الموتى إلى بيوتهم؟».

كان علينا أن نعبر من على ممر طويل ضيق، تكاد أرجل الجياد تنزلق من على صخوره لو لم تأخذ حذرها، استغرق الأمر مني بضع دقائق كي أصل إلى الجانب الآخر، بينما كان جواده من اللحظة الأولى قد عبر برشاقة كأنه يمشي في الهواء، حين اعتدلنا في سيرنا من جديد هتفت فيه: «لكنك هو، أو أنك على الأقل روحه الطيبة»، وجاءني صوته الرصين: «العالم أوسع وأعقد مما تظن، فاستمتع بما تعرفه، أو على الأقل بما تعتقد أنك تعرفه»، أدركت أن إجابته جاءت سابقة على سؤالي عن كيفية مجيئه، شعرت أيضا بطمأنينة تسري في جوانحي، فلم أعد منشغلًا بالحصول على إقرار بما لا يريد إقراره، وقررت أن أتبعه حيث شاء، سائلًا عن فرناندو وحبابة والزهراء، لكنه لم يرد، ولم يُشر حتى بالامتناع عن الكلام، فساد الصمت بيننا حتى شعرت أن أعضائي صارت منهكة، قلت: «هل يمكننا أن نستريح؟»، ودون أن يلتفت أشار بيده كسهم نحو أكمة بالقرب من رافد نهر صغير، نزلت عن جوادي وفتحت زوادة العم باديث، ورحت أمضغ الطعام في تكاسل المنهك، متذكرًا ما قاله الأخير عن دولة الرأي والشورى، وكيف عصم أجدادي دماء الناس من الفوضى، قلت: «كيف انفرط عقد الخلافة وتشتت الناس في ممالك

يـأكل بعضهـا بعضًا؟»، خرجت زفـرة حارقة من صدره، نـزل بعدها عن جـواده نـزول المجبر على أمر، ثـم انتحي جانبًا ليقول: «كان المسـتنصر باللـه آخـر الخلفـاء الأقوياء مـن بني أميـة، لكنه لم ينجب سـوى ولدين همـا عبد الرحمن وهشـام، مات الأول فنقل أبوه العهد إلى هشـام وكان صغيرا، وسرعان ما مات المستنصر، فطمع الصقالبة في الحكم، مخفين خبـر موتـه عن الناس، وذاهبيـن إلى حاجبه جعفر بـن عثمان المصحفي طالبين منه تولية الخلافة للمغيرة بن عبد الرحمن الناصر بدلًا من هشـام ابن المسـتنصر، غير أن المصحفي ذهب إلى قائد الشـرطة محمد بن أبي عامر وأخبره بما يريده الصقالبة منه، فأسـرع ابن أبي عامر في تدبير مقتل المغيرة كي يقطع الطريق، فتولى هشـام الخلافة وهو في الثالثة عشـر من عمـره، متلقبًـا بالمؤيد باللـه، كان ابن أبي عامر محض نسـاخ فقير افتتح لنفسـه دكانًا بالقرب من باب الإمارة، فلما ذاع أمره اسـتدعاه المسـتنصر ليكون مربيًا لولديه عبد الرحمن وهشام من بعده، فتوطدت علاقته بأمهما صبح البشـكنجية التي دفعت به ليكون صاحب الشـرطة في قرطبة، فلما اسـتخلص الملـك لولدها من مؤامـرة الصقالبة كبر فـي عينها، وصارت تدعمـه بكل ما لها من سـلطة وكوصية على الخليفـة في مواجهة أعدائه، فتخلـص من الحاجب جعفر بـن عثمان المصحفي وتولـى مكانه، ملقبًا نفسه بالمنصور، ومستدعيًا البربر من المغرب كي يكونوا دعامة لحكمه، معيدًا بهم فتح الثغور التي أخذها النصارى في عهد المسـتنصر، وقيل إن علاقتـه بلغـت بأم الخليفة حد أن تزوجها، وسـرعان ما عزل ابنها هشـام

في قصره، حتى إنه لم يكن يستطيع الخروج إلا إذا استأذنه، فلما خشيت صبح على ضياع الملك من يد ابنها أخذت تناهض سلطة الحاجب محمد بن أبي عامر المنصور، فعزلها في قصرها حتى ماتت فيه، ودانت البلاد لسلطة المنصور سنين طويلة، لكنه لم يطمع في الخلافة ولم ينظر لكرسيها، فلما توفي تولى منصبه ابنه عبد الملك من بعده فسار على نهجه، وسرعان ما توفي ليجيء أخوه عبد الرحمن أشكول في منصبي الوزارة والحجابة، ويراوده الطمع في أن يكون الخليفة، فأمر هشام المؤيد بتوقيع عهد له بالخلافة من بعده، كان ذلك بداية إشعال النار التي أكلت كل شيء في الأندلس، فقد اجتمع بنو أمية وقرروا إلغاء هذا العهد، مستعينين بالصقالبة كي يجبروا المؤيد على التنازل عن الخلافة لابن عمه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، ملقبينه بالخليفة المهدي».

كان صوت أبي يأتيني وكأنه الصدى في أذني، فلما اختفت الشمس وأسدل الليل شراشفه على العيون، سألته عن مكان نبيت فيه، أشار بيده إلى طريق صغير سرنا فيه حتى وجدنا خانًا من دورين، على بابه رجل عجوز يتلقف الراكبين بيدين واهنتين ليأخذ منهم الجياد إلى الإسطبل، بينما يقف خلفه شاب وسيم يتلقف منهم رحالهم ويصطحبهم إلى سيدة في الأربعين من عمرها تجلس بالقرب من الباب خلف منضدة قديمة، تفحصتني بعين ذات خبرة طويلة بصنوف البشر وهي تقول: «كم سريرًا تريد؟»، أشرت بإصبعي: «واحد»، فهمست في أذن الخادم أن يحمل

أغراضي إلى غرفة علوية، كان شريكي بها رجل قادم من غرناطة وفي طريقه إلى مجريط، اغتسلت وغيرت ملابسي ونزلت لتناول العشاء في غرفة شبه مظلمة بالدور الأرضي، وجدت أبي ينتظرني على منضدة وحده فذهبت إليه، بينما احتل شريكي في الغرفة منضدة مجاورة، لم يكن في المكان سوى منضدتين أخريين جلس على كل منهما رجلان، وبدا من حديثهم أنهم يعرفون بعضهم، قال أحدهم، وكان عجوزًا متأنقًا، لرفيقه بصوتٍ مسموع: «لا توجد عبقرية ولدت أو ستولد في الرسم سوى ليوناردو»، فرد عليه من على المنضدة الأخرى شاب قوي البنيان، بدا لي أنه موريسكي أو من أصول مغربية: «لأنك لم تعرف مايكل أنجلو، لم ترَ أيًّا من منحوتاته ولا لوحاته». فانتفض الشاب المرافق للرجل المتأنق قائلًا: «هذا البذيء ذو الرائحة النتنة تريد أن تجعله في مقام دافنشي، إنه لا يعدو أن يكون شحاذًا، فكيف يمكنه أن يكون فنانًا؟»، وجاءه الرد: «لأنه ليس شاذًّا كصديقك، إنه شاعر ورسام ونحات». ضحك المتأنق: «يا صديقي نحن نتحدث عن الفن وليس عن أحكام أخلاقية، في النهاية هذا شأنه وليس شأنك، أم أنك من تابعي الكنيسة المهووسين بالتفتيش في ضمائر الناس؟!». هنالك كان الخادم قد أحضر طواجن الطعام، وقام بتوزيعها على المناضد كما لو أنه يوزع الأعلاف على الماشية، فانشغل كل منهم بالطاجن الذي أمامه، أما أنا فقد رحت أنظر لوالدي كأنني أقول: «هل انتهى أمر الخلافة عند هذا الحد؟»، وبدا لي أن الموتى يتمتعون بقدرة على معرفة ما يدور بالأذهان، فقد بدأ صوته يتردد من جديد: «لم

يكــن الخليفــة محمد بن هشــام بن عبد الجبــار الملقــب بالمهدي رجلًا حازمًـا كما توقع أهله، فقد أطلق العنان لغرائزه نافيًا شـركاءهم الصقالبة إلى شـرق الأندلس، ومعلنًا وفاة ابن عمه الخليفة هشـام المؤيد، رغم أنه كان مـا يـزال حبيسًـا في قصر الإمـارة، أعطى المهدي ولايـة عهده لابن عمِّه سليمان بن هشام بن سليمان بن الناصر، لكنه سرعان ما غضب عليه فسـجنه، ثم سرَّح من جيشه سـبعة آلاف جندي بربري، فما كان منهم إلا أن ذهبوا لهشـام ابن سـليمان، والـد ولي العهد المسـجون، ليحثوه على فتح سـجن الإمـارة وإخراج ابنه منه، فجمعهم وحاصـر بهم القصر، غير أن جنود المهدي هزموهم وأسـروا هشـام، فأمر المهـدي بقتله هو وابنه سليمان، وترك الناس تستبيح بيوت البربر في المدينة حتى غادروا قرطبة غيـر ملتفتين لأمانه الذي جاءهم متأخرًا، وكان من بين مَن خرجوا معهم سـليمان بـن الحكم بن عبـد الرحمن الناصـر، فاتفق معه علـى الإطاحة بالمهدي وتوليته هو الخلافة، ولـم يكن أمامهم سوى الاستعانة بالقشتاليين كي يتمكنوا من مهاجمة قرطبة، فاتصلوا بسانشـو ليمدهم بالجنود مقابل تنازلهـم لـه عن بعض الثغور، فلما علم المهـدي بأمرهم هذا حفر خندقًا حول المدينة وأمر بإخراج المؤيد من سجنه داعيًا لخلافته، لكن سليمان بن الحكم ومَن معه من البربر أصروا على دخول قرطبة، فتركها المهدي وفرَّ برجاله إلى طليطلة، بينما جلس سـليمان بن الحكم على كرسيه أمام قصر الإمارة متلقيًا من الناس البيعة وملقبًا نفسـه بالمستعين بالله، ومبقيًا على هشام المؤيد حبيسًا في سجنه».

حين صعدت إلى غرفتي كي أستريح وجدت شريكي في الغرفة يبحث عن النوم دون جدوى، فانتهزت الفرصة وسألته عن الأحوال في غرناطة، قال: «ليست طيبة، فالموريسكيون أصابوا الجميع بالفزع، ويبدو أن البشرات قد دالت لابن أمية»، خبأت فرحتي في صدري، وقلت بنبرة الخائف: «كيف حدث هذا؟»، أغمض عينيه وهو يقول: «سمعت قبل خروجي من غرناطة أنه حقق نصرًا على المركيز دي مندوجر، وفي ظني أن المدينة باتت مهددة بالسقوط إن لم يتحرك الإمبراطور فيليبي بنفسه لإنقاذها»، ويبدو أن الرجل لم يشك لحظة أنني موريسكي، فقد غيرتني الثياب واللغة ونعومة الوجه، سألته عن ابن أمية ومن أين ظهر، لكن النوم كان قد بدأ يعرف الطريق إلى عينيه، فرفع رأسه عن الوسادة متثائبًا: «لم يكن له ذكر، غير أن حظه السعيد جعله يلتقي برجل داهية من بني جهور، فجمع الناس حوله ونصبه أميرًا عليهم، وها هم الآن يحلمون بدخول غرناطة، فلينقذنا المسيح منهم»، ثم صمت للحظات سرعان ما سمعت بعدها شخيره المتعالي، فتركته وذهبت إلى النافذة باحثًا عن صوت أبي في الظلام، ذلك الذي بدا لي كما لو أنه ينتظرني ليكمل لي ما جرى في قرطبة: «جلس المستعين في كرسي الخلافة وأمر بمطاردة المهدي ورجاله، ففروا في الشعاب والأحواز، كان من بين مَن فروا رجل يدعى واضح العامري، ذهب إلى الشمال طالبًا من أميري برشلونة وأورقلة أن يمداه بجيش لمحاربة المستعين، فوافقاه على أن يدفع دينارين مقابل كل جندي في اليوم الواحد، وألا يأخذ من جنودهما ما يغنمونه في حربه، وحين ينتصر يسلم لهما مدينة سالم، فوافقهما على

تلك الشروط، وانضم إليه الخليفة المهدي بمَن بقي معه من رجال، ووصل الخبر إلى المستعين فنادى في الناس بالخروج لمواجهتهم، لكن أحدًا لم يجبه، فخرج بمن معه من العرب والبربر، ولخوفه من أن يغدر به البربر جعلهم في المقدمة وأحاط نفسه في المؤخرة بالعرب، فلما دارت الحرب انشقت صفوف البربر وانفتحت ثغرة فيها، فنادوا عليه بأن يغلقها بمن معه، فظن أنهم انقلبوا عليه فأمر بترك المعركة والفرار إلى شاطبة، فدخل المهدي قرطبة من جديد، جاعلًا من واضح العامري حاجبه عليها، ثم خرج لملاقاة فلول البربر المتجمعين بالقرب من مربلة، غير أنهم هزموه، فما كان من واضح العامري إلا أن أخرج هشام المؤيد من محبسه، وضرب رأس المهدي بين يديه، مرسلًا بها إلى سليمان المستعين كي يدخل مثله في طاعة المؤيد، لكن المستعين قرر حصار قرطبة بمَن معه من البربر، وراح يعيث فسادًا في أجوارها، حتى انتشر الجوع وأكل الناس الميتة وباع المؤيد أثاث قصره لشراء خيل وسلاح لمواجهتهم، بينما قرر واضح العامري أن يهرب من المدينة ليلًا، فجمع ما استطاع جمعه من ذهب وفضة كي يفر به وحده، فلما علم الجند بذلك قبضوا عليه وفتشوا رحله مخرجين ما به من كنوز، ثم قتلوه وطافوا برأسه في الشوارع، وخرج المؤيد باكيًا للناس وهو يقول: افعلوا ما ترونه صالحًا. فأرسل الأعيان والوجهاء للمستعين بأن يرفع حصاره عن المدينة مقابل أن يكون وليًّا لعهد المؤيد، فكان رده أن دخل قرطبة مستبيحًا بيوتها وأعراض أهلها، معنفًا المؤيد على حربه له، فبكى الأخير قائلًا إنه كان مغلوبًا على أمره، فأمر المستعين بسجنه من جديد، كما أمر

بتولية ابن أخيه علي بن حمود على سبتة وثغور المغرب، وتولية شقيقه القاسم على الجزيرة الخضراء، وكان علي طامعًا في ملك قرطبة، فجمع مَن بقي من العامريين لحرب المستعين، مظهرًا كتابًا من المؤيد له بولاية العهد، وطلبًا من الأخير له بإنقاذه من يد المستعين وإخراجه من محبسه، فلما علم المستعين بذلك خرج إليهم بجيشه، غير أنه وقع في الأسر هو وشقيقه ووالده، بينما جلس علي بن حمود على كرسي الإمارة سائلًا إياهم عن الخليفة هشام، فقالوا له نكاية وعنادًا: قتلناه. فما كان منه إلا أن أمر بقتلهم جميعًا، ثم أعلن نفسه الخليفة، فكان ذلك أول حكم البربر في قرطبة».

12

كان عليه أن يذهب إلى دار الكتب المصرية، فلديه موعد مؤجل منذ ثلاثة أشهر للقاء رئيسها، كان قد تقدَّم بطلب للحصول على نسخة معتمدة من حجة الوقف الخاص بالعائلة ورواق المغاربة، حين كتبها جده عطية عام 1805 لم يكن يعلم أن محمد علي سيقضي على مهنة الملتزم، لكنه سعى لتأمين أسرته التي امتدت لعدة فروع، ثلاثة منها في المحروسة واثنان عادا من جديد إلى تونس والمغرب، فقد ظهر له العين الراعية بجانب السور قائلًا: «يا عطية، لم نمنحك هذا الاسم كي تبخل على أهلك، فاجمع ما لديك وأوقفه على الجميع». حين سأل الملتزم زوجته عن الطريقة التي يرضي بها جده قالت: «ليس هناك سوى الوقف»، فذهب في الصباح إلى المحكمة الشرعية، وأوقف على عائلة الموريسكي ورواق المغاربة مئة وخمسين فدانًا بالقرب من شبرا الخيمة في أعمال قليوب، حين سألته زوجته عن السبب الذي جعله لم ينفذ وصية الجد كاملة، هز رأسه بأسف وهو يقول: «منه لله شيخ السوء».

كان عطية الله بحكم مهنته كملتزم لا يؤمن إلا بما في يديه، علمته وعود الفلاحين وتسويفاتهم أنها ليست سوى حيل للتهرب من الدفع،

مـا يتحقـق منها في نهاية العام أقل مما حدثته نفسـه بـه، كان عمله يجبره على أن يكون قاسـي القلـب غير رحيم بذي ضائقـة أو حاجة؛ لأن أحدًا لا يرحمـه، وعليه أن يدفع للخازندار قبل أن يضع يده على الأرض، وأن يدفع للمماليك حين يمرون بزمامه، وأن يدفع للوسطاء الهدايا والرشاوى كـي يحسِّـنوا صورته عند مَن بيدهـم الأمر، كان عليه أمـور كثيرة يدفعها جملـة ويتقاضاها تجزئة يومًا وراء يوم، لذا كان يقوم بحسـاب كل نفقاته وتوزيعها مع هامش ربح مرضٍ له على هيئة ضرائب يرزح تحتها الفقراء مـن عبيد الأرض، مسـتعملًا القوة فـي جمعها تـارة، أو مصادرة الأرض نفسـها تارة أخـرى، هكذا أصبح عطية الله الملتـزم الذي يخافه الجميع، لكنـه لـم ينسَ أنه غريـب عن هـذا المكان، فـلا هو مصري ولا تونسـي ولا حتـى مغربي، والجميع يلقبه بالموريسـكي في بلـد لم يعرف أي من أهله يومًا محنة أن يكون موريسكيًّا.

كثيـرون كانـوا يعتقـدون أنـه ورث المـال كابـرًا عـن كابـر، قِلَّة فقط هـي التي كانـت تعرف أنه ولـد فقيرًا لوالـد كان يعمل خولـي أنفار لدى أحـد الملتزمين الصغار، لكن المشـيئة وحدها هي التـي وضعته في هذا الطريـق، حدث ذلك منذ سـنوات طويلة حين مرض والـده، فذهب إلى الملتـزم طالبًـا أن يكون في محلـه كخولي لأنفاره، لكـن الأخير نظر إليه متعجبًا من جرأته وطموحه، كان عطية شابًّا أمرد وسيمًا ذا اعتزاز واضح بنفسـه، وكان الملتزم وزوجته يتأهبان للسـفر، يومها وقف بعوده النحيل الطويـل في جـه الملتزم البدين مصرًّا على طلبه، فابتسـم الأخير سـائلًا:

«وهل تملك من القوة ما يخيف الفلاحين؟»، فهز عطية رأسه: «لديَّ من العقل ما يكفي»، فأشار الملتزم إلى خادم عجوز كي يصارعه، لكن عطية رفض مصارعته قائلًا: «لا أمد يدي على مَن في سن جدي»، فأعجب رده زوجة الملتزم التي امتدحت شهامته، لكن زوجها احتقن وجهه ونادى على رجل يدعى البهيم قائلًا: «أريد أن أعرف مَن منكما يستحق أن يعمل عندي»، كان الرجل من فرط ضخامته قد أطلق عليه اسم البهيم، فاستدار نحو عطية فاتحًا ذراعيه وفمه كأنه سيبتلعه، وقف الأخير لا يعرف ما الذي ينبغي عليه حيال هذا الجرم، ولم يكن أمامه سوى أن يدعي الجنون، نافضًا كل ما أمامه في وجه البهيم حتى أصيب وجهه ونزف الدم منه كالنهر، فأخذ يضرب بيديه الهواء مهرولًا خلف عطية في المكان، ويبدو أن جسده الضخم وسيره المتخبط وصوته العالي قد أخاف الجواد فاندفع بالكارتة المنتظرة أمام البيت ليصطدم به، حينها سقط البهيم على الأرض وجلس عطية على صدره مكيلًا له اللكمات، فأدرك الملتزم أن الجولة انتهت وعليه التدخل لإنقاذ الأمر، فأمر رجاله أن يوثقوا عطية على شجرة أمامهم كي يجلده بنفسه.

عز على إبراهيم الخولي أن يدخل عليه أصدقاؤه حاملين ابنه بين أيديهم بجسد ممزق من الضرب، فأخذ يبكي حزنًا حتى اشتدَّ عليه مرضه ومات، ووقف عطية ليتلقى العزاء في والده من أصدقائه العاملين في عزبة الملتزم، لكن العزاء لم ينتهِ حتى فوجئ الجميع بواحد من خدم الأخير يطلب من عطية الحضور لملاقاة زوجة الملتزم في كاريتتها،

قالـت: «البقاء لله»، فرد بانكسـار: «شـكر الله سـعيكِ»، لكنها ابتسـمت كقمر مضيء في الليل: «مراجع حسابات الملتزم يحتاج إلى مساعد له»، لـم يعـرف عطية بمَ يرد عليها، لكنه بالنظر إلى وجهها كان قد نسـي حزنه على والده وشـعوره بالهزيمة أمامها، فطأطأ رأسـه مبتسـمًا، قالت: « في الغد تستلم عملك».

كان الملتـزم وافر الثـراء لكنه بلا أولاد، وكانـت خديجة هي زوجته الثالثـة، سـعى كل منهما لإنجاب طفل يـرث ما لديهما مـن أموال، لكن حلقـات الـزار وأدويـة المجربين لم تـأتِ بفعلها، ولم تشـفع لأي منهما زياراتهمـا المتعددة للأولياء والقديسـين، وثبتت الرؤية لدى الملتزم بأنه لن يكون له عقب، فلزم فراش خديجة في صمت طويل، حين رأت عطية لا تعـرف ما الذي جذبها إليه، لكنها تمنـت ألا ينهزم أمام زوجها، وحين قرر الأخير جلده شـعرت أن السـياط تنزل على قلبها، حتى إنها تحركت مـن مكانها أمام الخدم والعبيد لتمسـك بالكرباج من يـده قائلة: «كفى»، يومها شـعرت كم بدا الملتـزم مهزومًا أمامها وأمام الشـاب الغريب، في الطريـق عاتبتـه غاضبة على قسـوته، وبذل هو جهـدًا كبيرًا فـي إرضائها وإزالـة غضبهـا عليـه، لكن حين أخبرتـه أن إبراهيم الخولـي توفي حزنًا على ما جرى لابنه، شـعر أن عطية صار الشـبح الذي سـيقضي عليه، غير أنـه سـألها مواريًا غيظه: «ومـا الذي نفعله له؟»، قالـت: «يمكنه أن يعمل مساعدًا لمراجع الحسابات»، ضحك من بين أسنانه: «لكِ ما تريدين».

ظل الملتزم يتحين الفرص للخلاص من عطية حتى وجد خطأً في الحسابات، فسلمه لحكمدار المديرية كمختلس، ولم تمضِ أسابيع حتى حكم عليه القاضي بالسجن خمسة أعوام، غير أنه لم يقضِ منها غير عامين فقط، فقد فوجئ بأنهم يعطونه ثيابه ويباركون له بظهور براءته، وما إن خرج من سجنه حتى وجدها في انتظاره، علم منها أن زوجها مات منذ شهور، وأنها أبلغت المحكمة بأن ما حدث كان خطأً في الحسابات، يومها رأى في عينيها الرغبة في الزواج منه، وشعر أنه يصعب على مثلها أن تخطبه لنفسها، وبنفس الجرأة التي طلب بها أن يكون خوليًا لأنفار الملتزم، أغمض عينيه قائلًا: «هل تقبلين الزواج مني؟»، لم ترفض ولم تقبل، لكنها قالت: «ليس لمثلي أن تتزوج بأقل من ملتزم»، بعدها سافرا إلى المحروسة ودفعا بالهدايا إلى الخازندار وحصلا على التزام صغير بزمام شبين الكوم، تعلم منها كيف يصبح ملتزمًا مهابًا تسبقه هداياه ويصل إلى مرامه مهما كان، ظل يشعر أنها النعمة التي فتح الله بها عليه، ونقله من خلالها من عوام الناس إلى خواصهم، حتى رحلت وتركته في الأربعين من عمره بلا ولد ولا أهل، أدرك حينها أن قطار العمر قد ولَّى به وهو يلهث خلف المال، ناسيًا أهله في غمار صراعه مع الحياة، غير منتبه إلى أن اثنين من أعمامه ضاق بهما الحال حتى اضطرا للعودة إلى حومة الأندلس، ولم يبقَ له في المحروسة غير عمَّيه إسماعيل وموسى، كان الأول قد اختار سكنًا بالقرب من الأزهر كي يبيع ما ينسخه بخطه الرشيق من مصاحف

وكتب فقه للمجاورين، بينما ظل الثاني على ترحاله مع القوافل الذاهبة إلى الحجاز بحثًا عن الحرير والعطارة، كان موسى أيسر حالًا من أخيه إسماعيل، لكنه رفض في يوم استضافة جند المماليك حين قدموا إلى ترسانة بولاق لإصلاح مراكبهم فيها، فما كان منهم إلا أن شكوه لشيخ البد الذي أمر بمصادرة أملاكه والتنازل عن وكالته في روض الفرج، يومها لم يجد غير عطية كي يلجأ إليه، فاشترى له الأخير محلًّا بباب الخلق ليبدأ فيه من جديد، ثم فاجأه برغبته في الزواج من ابنته حور العيون، في ذلك الوقت هجم الفرنسيون على الإسكندرية، ودارت الحروب بينهم وبين المماليك، مما أوقف أعمال عطية والتزاماته، لكنه حمد الله على بقائه سالمًا إلى أن زالت الغمة، فأخرج ما خبأه للزمن ونشط في وضع يده على التزامات بطنطا وكفر الدوار، لكنه كان دائم السؤال: «لِمَن كل هذا المال وأنا بلاد ولد؟»، حتى أذن الله له وحملت حور العيون بابنه حبيب الله، فاشترى أرضا في السيدة عائشة وشرع في بنائها على هيئة قصر من طابقين، ثم دعا كل معارفه وأصدقائه من مشايخ وبكوات وعلماء ليحتفلوا معه فيه، وبلغ من السرور أن جلس مع زوجته بعد رحيلهم يتأمل ما أعطاه الله له، لكن عينه لمحت على البعد نارًا تشتعل في جانب من الحديقة، حين انطلق نحوها وجد رجلًا طويل القامة ملثم الوجه يجلس بجانبها قائلًا: «مباركة عليك دارك». في البدء ارتعد منه، وابتسم الرجل في وجهه: «أنا جدك عبد الله، أنا العين الراعية

لبنـي جهور، وهـذه النار كانت أعلامنـا في الجبال، فـلا تخف، واذهب لتجمع أهلك في دارك، فمباركة عليك الأرض التي منحناها لك، والبيت الذي أسكناك فيه»، هكذا تردد الصدى بكلماته من حوله، بعدها انطفأت النار وأظلمت الحديقة واختفت العين الراعية من أمامه.

13

لـم تكن قمة جبال البشـرات وحدها التي تحـررت بفعل الثورة على النصـارى، فقـد انضمت إليهـا منطقتا الحامـة ورندة وجبـال بني طوميز شـرق مالقة، وسـيطر المجاهدون علـى وادي المنصورة وشـرق ألمرية وعلـى سلسـلة الحصـون والقـرى وحاصروا أكبـر قلعة فيهـا وهي قلعة صيـرون، وهزمـوا قـوة لقشـتالة كانـت قـد جـاءت بقيـادة قائـد بسـطة لاسـتعادتها، كمـا حـرروا قصـور أرية وحاصـروا بيـرة، وهزموا جيشًـا للمركيـز دي بالـش في برجة، كانـت مملكة غرناطة القديمـة بكل مدنها وقراهـا وحصونهـا قد دالـت في أغلبها للثـوار تحت راية ابـن أمية، فيما عـدا غرناطـة نفسـها التي وقفـت الجيـوش الإسـبانية خلفها كمـا لو أن سـقوطها يعنـي سـقوط فيليبي الثانـي، وكانت السـعادة تجتاحنـي مثلما تجتـاح كل مَـن رأيتهـم مـن المسـلمين، فلأول مـرة منذ سـنوات أراهـم يقيمـون صلاتهم في العلن، ويرتدون أزياءهم المميزة لدينهم في العلن، لا أعـرف إن كانـت النسـاء تسـتحم الآن في أجـواء هذه الحـرب أم لا، لكننـي موقـن أنـه لا أحـد يعمَّـد أو يذهـب لقداسـات الكنيسـة، لا أحد

ينصت لغير تراتيل القرآن، وإن كان ما يحفظونه منه قليل، احتضنت فرناندو حين رأيته وأنا أهتف فيه: «كيف فعلتموها؟»، يومها ضحك منتشيًا كما لو أنه سيطير كفراشة تعلن عن حديقة مليئة بالورود، قال: «فعلها والدك ولم يخيب ظننا فيه، بل إنه كان أروع مما ظننا، كان نِعم القائد والأب الحكيم»، ثم نظر إليَّ متذكرًا أنه لم يعزيني فيه، وحين مرت مسحة الحزن التي عبرت على وجهه ابتسم، كما لو أنه تذكر أمرًا جميلًا: «لا تؤاخذني يا بن عمي، فإنني حتى الآن أشعر أنه ما زال موجودًا معنا، لم أشعر للحظة بفراقه»، ربَّتُّ كتفه: «لا عليك، فمثله لا يموت»، ابتسم الرجل مرددًا: «لديك حق»، فصحت فيه: «احكِ لي إذًا ما حدث؟»، فقال. «كنا جميعًا غاضبين لا نعرف ما الذي نفعله، ولم يكن هناك غير والدك ليرشدنا نحو الطريق، فهو أعلمنا بدروب الحرب وفنونها، وأكثرنا معرفة بالمملكة التي جابها طولًا وعرضًا، لكنه حين حدث له ما حدث في الكنيسة على مرأى ومسمع الجميع لم يستطع أن يعود إلى ما كان عليه، يومها قررت أن أنتقم له، فذهبت وحدي إلى دار خوسيه أرمانديز، كان وأصدقاؤه يتوقعون ذلك مني، فتجمَّعوا عليَّ وقاموا بضربي حتى ظنوا أنني فارقت الحياة، فحملوا جثتي وألقوا بها بالقرب من بيت القس إيمانويل وفروا هاربين، حين تعافيت من جروحي وكسوري اتفقت مع ثلاثة من أصدقائي أن نخرج بالليل فنغير على بيوتهم وأملاكهم، كانت هذه البداية التي دلتنا على الطريق، فرحنا نخطف ما نستطيع من بيوت النصارى ونعهد به لمن يبيعه، وانضم إلينا بعدها عدد من المغامرين، لكننا لم نكن في حقيقة الأمر أكثر من

لصـوص تحت وطأة الانتقام، وكان ذلك أكثر ما يزعجني، فقلت لهم إنه لا بـد أن يكـون لنـا قائـد، وتكـون لنـا خطـة، فلـن نظـل مجموعـة مـن اللصـوص، إن عاشـوا فهـم مطـاردون، وإن قُبـض عليهم قُتلـوا وجلبوا لأهلهـم العـار. قالوا: فمَن يقودنا إذًا؟ ولم يكن فـي مخيلتي غير والدك، قالـوا إنه اعتزل الحياة، ولا نظنه سيرضى بالتعامل مـع صبية مثلنا، قلت دعوني أقنعه، وظللت كلما رأيته أذكره بما لم ينسـه، ظللت أضرب على أوتـار وجعـه وهـو صامت، لا يفتـح فاهًـا ليرفـض أو عينًا ليقبـل، حتى أصابنـي اليأس فجلدته بـكل ما أملك من كلمات ثم تركته غاضبًا، بعدها أرسـلك قائلًا: جهـزوا حالكـم، وفـي الليلة الثانيـة اجتمع بنـا في كهف بأعلى البشـرات، كنا أكثر من عشـرين شـابًّا وصبيًّا، جميعنا متحمسون، لكننـا لا نعـرف مـا الـذي يمكننـا عملـه، فطـرح سـؤاله علينا: مـا الذي تريدونـه؟ يومها كررت عليه ما اعتدت قوله عـن الذل والهوان والتنصير والتهجيـر بلا ذنـب، فتركني أتحدث حتـى انتهى الكلام مـن جوفي، ثم ابتسم قائلًا: أتريدون استعادة مُلك بني أمية؟ فصرخنا جميعًا: نعم، نظر فـي وجوهنـا: وهـل تريـدون المـوت؟ فقلنـا بحمـاس أقل: نعـم، قال: راجعوا أمركم، وبعد ثلاثٍ نلتقي هنا، فمَن حسم أمره فليأتِ، ومَن تردد فليبـق آمنًا في مكانه، وأرجو ألا تأتوا، بعدها اصطحبك معه واختفى عن البشـرات، قلنا لعله في بعض أعماله بغرناطـة، وقلت لعله نفض يده من الأمر وهرب كي لا ألح عليه، لم أكن أعرف ما الذي سـأقوله لأصحابي، ولا مـا الـذي يمكنني فعلـه من دونـه، غير أننـي تعاملت معهـم على أنه موجـود في بيته، خاشـيًا مـن مواجهتهم بالحقيقة، وزدت فـي الأمر أنني

رحـت أذكرهم بالموعد، فذهبنـا واحدًا تلو الآخر، وما من أحد دخل إلا ووجده جالسًا في صدر المجلس عاقدًا يده على سيفه في انتظاره، يومها أخـرج مصحفًا من ثوبه قائلًا: فلنقسـم بالله ألا يخون أيٌّ منّا الآخر، وأن نحارب حتى اللحظة الأخيرة من حياتنا، وأن نطيع قائدنا حتى لو اعتقدنا أنـه علـى خطـأ، جميعنـا أُصبنـا برجفـة مـن كلماته التـي أخـذت تتردد أصداؤها بين جدران الكهف، وشـعرنا أن الأمر بدأ يدخل في جدية أكبر منـا، لكننا أمام هيبته لم نسـتطع التراجع، وأقدمنا واحـدًا تلو الآخر على المصحـف نـردد كلمات القسـم، بعدها أخذ يسـأل مَـن لا يعرفه منا عن قريته وأهله وحاكمها وعدد المسـلمين والنصارى فيها، ثم قال: ما الذي كنتـم تصنعونـه؟ فقلنـا: كنـا نخـرج بالليـل فنكسـر بيتًا أو نسـرق قسًّـا، فضحك: من اليوم لن نفعل ذلك، فقط كل منا عليه أن يجمع عشرة ممن يثـق فيهـم، عليه أن يقنع شـباب قريتـه بالثورة علـى الظلم، مسـتغلًّا كل حـادث يجـري في بلدتـه، لا يجب أن يقـول حديثه على المـلأ، عليه أن يذهـب لـكل صاحـب مصيبـة ويقف بجانبه، يشـد على يـده، وإن احتاج الأمر إلى مالٍ فليرسـل إلى فرناندو، يومها دهشـت، فمن أين لي بالمال، لكننـي صمـتُّ حتـى انتهـى الأمـر وعدنـا، حيـن سـألته قـال: لا عليك، هناك مَن يجاهد بنفسـه، وهناك مَن يجاهد بماله، وهناك مَن لو صمـت عما يحدث من حولـه فقد جاهد جهاده، وعلينا أن نسـتغل طاقة الـكل نحـو أمر كبير، لم يمر يومـان حتى وجدته يعطينـي ترخيصًا موقعًا مـن الرئيس ديسـا بجمع تبرعات لبناء مستشـفى في البشـرات، كان هذا المستشـفى قد وضعوا أساسًـا له وتوقفوا عن إكماله لقلة الموارد، طلب

منـي أن أذهب إلى بلنسـية طالبًا من أهلهـا التبرع لفقراء الموريسـكيين، فأهـل بلنسـية أغنيـاء، ولا يعانـون من التضييـق مثلنا، ومحاكـم التفتيش لديهم شـبه مغلقة، قـال: أريدك أن تعرف من عيونهـم مَن الغاضب ومَن المدجن الخانع. في اجتماعنا الثاني كان العدد قد أصبح خمسـين شـابًّا، فـكل منهم أتـى بمن وافقه علـى الخروج، قـال لهم: أقدمكم هـو القائد عليكـم فـي قريته، ثم أخـذ يجتمع بـكل قائد وحـده مرتبًا لـه ولمن معه موعـدًا لا يعرفـه سـواهما، أما أنا فقد عـدت إليه بما جمعته من بلنسـية، ووصفت له الحال ورغبة الناس في عدم الثورة، منتظرين المغاربة وجند بنـي عثمان ليخلصوهـم من نبلائهم، قائليـن. وإن لم يأتـوا فلن نفعل ما يفقدنا ما نحن فيه لنصبح على ما أنتم فيه. فابتسـم: وكم منهم يسـتجيب للثورة، قلت: عشـرة أو عشـرون، قال: اذهب فقل لهـم أن يوفروا طريقة لوصولـك إلى رجال خير الدين بربروسـا، فإذا التقيـت بهم قل لهم إنك تحمـل رسـالة إليه مـن غرناطـة، يومها ذهبت غيـر مقتنع بالأمـر، لكنني طلبـت منهـم كما قال، فخشـي أصحـاب المراكـب على أنفسـهم، ولم يرافقني غير شيخ اشترط أن يحصل على خمس قطع ذهبية، وكان مركبه لا يسـاوي هـذا الثمن، فاشـترطت عليـه أن يتحصلها في طريـق العودة، واتجهنـا بالمركـب فـي عـرض البحر كمـا لو أننـا ذاهبان للصيـد، حتى ظهرت سـفينة كبيرة انتظرنا مرورها طيلة النهار، فأرخى شراعه ولوَّح لها بملابسـه الزرقـاء، اقتربـت منا ومـد بحارتها عـودًا من الخشـب صعدنا عليه، قال: هذا الرجل يحمل رسـالة إلى سيدي خير الدين، فنظر أحدهم إلـيَّ: من أين؟ قلت مرتجفًا: غرناطة، فأشـار لرجالـه بالقبض عليَّ تاركًا

البحار العجوز، حين وصلنا إلى جنجيل بالجزائر أمر بفكي وإنزالي إلى سفينة ذات عشرين شراعًا وخمسة مدافع كبيرة، هنالك التقيت خير الدين الذي نظر عابثًا في وجهي: أين رسالتك، فأخرجت ورقة أعطانيها والدك ودفعت بها إليه، فأخذ ينظر فيها وعينه تلمع بالفرح، ثم سألني: هل أنت ابنه؟ قلت: نعم، قال: يا له من ثعلب! لا أظنه يجازف بابنه، ثم قهقه ساخرًا، قلت: إنه عمي، فضحك من جديد: وهل تريدون الثورة؟ قلت: نعم. حسنًا، هكذا قال، ثم أشار بإصبعه إلى خادم لديه ليحضر لي طعامًا وشرابًا، لكنني هتفت: سيدي خير الدين، لقد وعدت صاحب السفينة بخمس قطع ذهبية ليوصلني إليك، وليس معي منها غير ثلاث فقط، فنظر إليَّ بعين ملؤها الغضب، ثم تذكر أمرًا ما، فقهقه عاليًا ثم تركني وانصرف، حين عدت إلى صاحب المركب أردت إعطاءه ما اتفقنا عليه، لكنه رفض قائلًا: مَن يرى بربروسا وجهًا لوجه ثم يخرج سالمًا فلا يؤخذ منه شيء. حين أعطيت عمي ما معي، وكان كثيرًا، أبلغته بكل ما جرى، فراح يقهقه كخير الدين حتى شككت أنني ما زلت على السفينة، ثم قلت: كأنك تعرفه جيدًا، فلمعت عيناه بشيء من الفرح وهو يقول: إنه صديق قديم، التقيته قبلما أكون وزيرًا لبني الأحمر، وقبل أن يكون قبضاي الأسطول العثماني بكثير، كنت يومها في تجارة مع أبي، نجلب البضائع من الشام ومصر إلى مارسية وألمرية، وكان هو وأخوه عروج يعملان على مركب لوالدهم يعقوب، قضيت معهم أيامًا في بيتهم بلسبوس في اليونان، وكانت لديهم تجارة صغيرة يديرها أبوه وأخوه إلياس، يومها كان خير الدين ما يزال شابًّا يأخذ كل شيء بمنطق

القـوة، ولا يسـاوي كرمه غيـر قوته، حيـن التقينا كاد يبطش بـي متصورًا أننـي نصراني، لكنه مـا إن علم أنني من البقية الباقيـة من أمويي الأندلس حتـى راح يعاملنـي كأمير، لم يكن أي منا يعلم بما تخبئـه له الأيام، لكننا ظللنـا صديقيـن رغـم تفـرق الطـرق، فقد كلفنـي أبو عبـد اللـه بالوزارة فتركت التجارة ولزمت القصر، أما هو فقد هاجم فرسـان القديس يوحنا سـفينتهم ذات يوم، وأسـروا أخاه عـروج وقتلوا أخاهـم إلياس، وأصبح هـو مطـاردًا مـن قبلهـم، فجاءتني رسـالة منـه يطلـب فيها بعـض المال والرجـال، خاطبـت صاحب تونس يومها أبو عبد الله محمد بن الحسـن الحفصـي، وكانـت لـي صداقـة بـه، أن يجهـز لـه سـفينة بها مئـة رجل، وأرسـلت لـه مـا يريده من مـال، فقـاد رجاله فـي هجمات على فرسـان القديس حتى أخرج أخاه من سـجنه، ولـم يكن أمامهما سوى أن يفرا إلى تونـس، فاسـتقبله الحفصي بحفاوة، وأرسـل لـي قائلًا إن عـروج وأخاه يريدان اسـتئجار جزيرة جربة، وإنهم ينويان مهاجمة سفن القديس يوحنا منهـا، وإن إيجارهـا هـو نصـف ما يحصـلان عليه مـن غنائـم، فنصحته بالموافقة، وتزويدهما بالرجال ما اسـتطاع، وأرسـلت لخير الدين قائلًا: ليـس كل النصارى القديس يوحنا، فشـواطئ الأندلس أوسـع وحامياتها أضعـف بكثير، فاشـترى لـه عيونًا يدلونه علـى مواقيـب ضعفهـا وأماكن غناها، فزادت سـفنه ورجاله، واشتهر في البحر بلحيته الحمراء، حتى إن النصـارى لقبوه بربروسـا لذلـك، مرتعدين في أحلامهم من ذكر اسـمه، وتوسَّـع في غاراته على سواحل البندقية وجنوة وفرنسا وغيرها، وأرسل إلى السـلطنة العلية أن تمده ببعض سـفنها الحربية، فوافقه سـليم الأول،

وأمده بما يريد، فاعترض بها السفن الكبيرة للنصارى، وحين أصدر فرناندو وإيزابيلا مرسومهما بالتنصير لكل مَن على مملكة قشتالة وأراغون، وخيروا الناس ما بين التنصير أو الرحيل، اختار كثير منهم الأخيرة، وحملوا مفاتيح بيوتهم مواعدين أنفسهم بالعودة عما قريب، فسلاطين المسلمين لن يتركوا ديار الإسلام تضيع، والحق مهما طال لا يسقط طالما وراءه مطالب، يومها كتبت لخير الدين أن يأتي لينقذهم من الجوع والهوان والغرق، فأرسل نحو ثلاثمئة سفينة حملت أكثر من أربعمئة ألف إلى شواطئ تونس والجزائر والمغرب، بعدها احتل الإسبان مدينة وهران، واستنجد سكان بجاية وجنجيل بخير الدين وأخيه، فناجزا الإسبان حتى حرَّرا الجزائر، وصار عروج سلطانًا عليها، لكنه قُتل بعدها بعام في معركة بتلمسان، فأرسل خير الدين إلى الباب العالي طالبًا الدخول في طاعة الدولة العلية، فكان أول باي بها، لكن الحفصي استعان بالإسبان وقلب الأهالي عليه فأخرجوه منها، فما كان من السلطان سليم إلا أن جعله قبضاي على أسطوله، لكنه كما ترى لا يعشق سوى البحر، ولا يقيم إلا فيه، رغم ما لديه من قصور وأموال وبساتين».

14

استقبله رئيس دار الكتب بنوع من الترحاب المبالغ فيه، حتى إنه دهش من هذه الرقة البالغة، فمنذ عامين وهو يسعى لمقابلته، وحين انتظره على باب الهيئة، ظل الأمن يتعامل معه كما لو أنه إرهابي يرغب في تفجير المؤسسة، وزاد رعبهم حين أخبرهم أنه ينتظر رئيسهم، فأخذوا يدفعونه إلى الخلف عدة أمتار بعيدًا عن مدخل الهيئة، لكنه ظل على إصراره، فهذه هي المرة الخامسة التي يجيء لملاقاته، وفي كل مرة يخبرونه أنه غير موجود، في هذا اليوم قرر الذهاب مبكرًا، ربما مبكرًا عن موعد الموظفين أنفسهم؛ حين رأى سيارة سوداء تقترب وسائقها ينزل ليفتح الباب الخلفي بكل ذلة ومسكنة، بينما الحرس يهرولون على السلم الرخامي ليلتقط أحدهم حقيبة سامسونيت من يد رجل يرتدي بدلة إسموكن ونظارة سوداء، أيقن أنه رئيس الدار، حين دفع مراد بالحرس للحاق بالرجل كان قد صعد عدة درجات برشاقة متناهية، وكادت قبضات أيدي رجال الأمن تفتك بالموريسكي لولا أنه التفت فجأة من على الدرجة الأخيرة قائلًا: «اتركوه»، حينها توقف الجميع وصعد مراد

بالملف الذي اشتمل على صور من طلباته السابقة بالحصول على نسخة طبق الأصل من وقف العائلة، قال إنها المرة الخامسة التي يأتي فيها للقائه ولا يجده، وإنه قدم طلبه مرات ومرات دون جدوى، ابتسم الرجل قائلًا إنه ليس رئيس الدار، لكنه سيحدثه في الأمر، ثم التقط الملف من يد الموريسكي وأعطاه لحامل الحقيبة، بعدها بشهرين تلقى مراد اتصالًا حدد له موعدًا بعد أسبوع للقاء رئيس الدار، غير أن الثورة التي اندلعت في الشوارع والميادين حالت دون ذلك، فقد كان المبنى شبه مغلق، ولا يوجد أمامه غير بضعة رجال في زي مدني دون سلاح أو مدرعة واحدة لحمايته على غرار المنشآت المهمة، تأكد له أن الموعد تم إلغاؤه فعاد يجر أقدامه نحو البيت في يأس لا حدود له، حين روى ما حدث لراشيل أخذت تضحك قائلة: «كيف لصحفي أن يعجز عن مقابلة مسئول في بلده؟!»، قال إنه لا يملك كارنيه النقابة، وأمسك بيده عن الكتابة، فمنذ سرقة اللوحة الشهيرة التي تورط في تزييف نسخة منها وهو يكره لقاء المسئولين، وأخوف ما يخافه أن يحتك بأيٍّ من رجال الأمن، لا يعرف إن كان صمته الطويل أمام شاشة «الماسنجر» وقتئذ هو الذي دفع راشيل للتعاطف معه قائلة: «دع لي هذا الأمر»، أم أنها كانت تريد الوصول إلى هدف ما، حين سألها عن علاقتها بدار الكتب، وما الذي يمكن أن تفعله وهي في مدريد، أجابته أن الوكالة التي تعمل بها لديها بروتوكول تعاون مع الدار لترميم بعض المخطوطات والوثائق، وأنها ستطلب من رؤسائها الوساطة من أجله. حين اتصلوا به بعد شهر محددين موعدًا

جديـدًا مع رئيس الدار، تأكد أن راشـيل أنجزت وعدهـا، فارتدى أفضل ما لديه وعرَّف نفسه لرجال الأمن، وهم بدورهم استقبلوه على أفضل ما يكون، وكانت المفاجأة بالنسـبة إليه أنه وجد ذا النظارة السـوداء والبدلة الإسـموكن جالسًـا علـى الكرسـي الـدوار، وزادت دهشـته حين نهض الرجل لاسـتقباله كما يليق بممثل الموريسـكيين في المحروسـة، بعدها أمر صاحب الإسـموكن سـكرتيرته فائقة الجمال بـألا تُدخل أحدًا عليه، قائـلًا: «إذا اتصل أي من المسئولين أخبريه أنني في قاعة فائق السـرية»، هكذا قال ثم عاد ليجلس على كرسـيه سـائلًا مراد عن الأمر، قال الأخير إن جده الرابع ترك للعائلة ورواق المغاربة بالأزهر الشـريف وقفًا مقداره مئة وخمسون فدانًا، استوقفت الرجل كلمة المغاربة فتساءل عن السبب، طفت على وجه مراد ابتسـامة خافتة وهو يقـول بصوت متردد إن أجداده مـن الأندلس، وقـد هاجروا مع المسـلمين الذين تم تهجيرهـم منها إلى المغـرب، فظل جزء منهم هناك ورحـل بعضهم إلى تونس وبعضهم جاء إلى مصر، ومـن ثم أوقف الجد أرضه على العائلة ورواق المغاربة، يقينًا منه أن بعضًا من أهله سواء في تونس أو المغرب سيأتون يومًا لتلقي العلم في الأزهر.

كان الرجـل ينصـت كمـا لـو أنـه يسـجل فـي جهـاز مثبـت بمؤخرة رأسـه، ومـا إن انتهـى ضيفـه مـن تفسـيره حتـى سـأله: «يعنـي أنـت موريسـكي؟»، بوغـت مـراد بالسـؤال وكأنـه أمـام اتهـام، ولـم يعـرف مـن أيـن جـاءه شـعور أن الجالـس أمامـه مسـئول فـي جهـة أمنيـة،

فاستحضر في ذهنه صورة راشيل ليلعنها على كشفها سره لمن لا يعرفهم، وراح يداري ارتباكه بإشعال سيجارة قائلًا: «حضرتك.. أنا مصري من أصول أندلسية، نزح أجدادي من الأندلس، واستقروا في المحروسة منذ ثلاثمئة عام»، حين شعر أنه لا ينبغي أن يفصح أكثر من هذا توقف عن الكلام واضعًا عينيه على رسوم سجادة تغطي البلاط الذي أمامه، كان عليها صياد شرع في قنص غزالة على منحدر جبلي، يد الصياد كانت تكاد تفلت سهمها من قناته لولا أن الرسام سعى لإبراز قدراته العضلية فثبت المشهد عند هذا الحد، فلا موت ولا نجاة، فقط فريسة وصياد أبديين تدوسهما الأقدام ولا يعيرهم العابرون من فوقهما ليل نهار أي انتباه. استعادته ضحكة الرجل الجالس خلف المكتب المهيب على كرسي دوار وهو يقول: «بالتأكيد أنت مصري، جميعنا مصريون، بل أنت أفضل من أناس كثيرين، على الأقل أنت تعرف مَن أنت، ومن أين نزح أجدادك، لكن كثيرين لا يعرفون مَن هم ولا من أين جاء أجدادهم، كثيرون لا يعرفون حتى جدهم الثالث أو الرابع، ويشعرون كما لو أنهم أصحاب هذه البلاد منذ نزل الناس من على الجبال إلى السفوح والوديان، رغم أن الهجرات شملت كل الشعوب، والتاريخ مليء بتجوال لا ينتهي لقطع شطرنج على رقعة باتساع أرجاء العالم». فاجأت مراد ريح الفلسفة التي هبَّت على الجلسة، وانتابه شعور أن الجالس على الكرسي الدوار ممسكًا بعودٍ من السيجار الثمين أقدر مَن يستطيع فهم محنته، فدائمًا ما كان يرى نفسه شخصًا غير منتم، وفي أفضل الأحوال ضيفًا عليه أن يعيش بشروط أهل المكان، ولا يملك فرصة لاختيار وطن آخر، وإن ملكها فلن يكون

لديه اليقين بأن هذا وطنه، حين التفت إلى رئيس الدار وجده يبتسم في انتظار كلمة منه، بادله ابتسامًا بابتسام قائلًا: «الموريسكيون ظُلموا من قبل الجميع، فقد عاشوا في الأندلس متهمين بالإسلام، وفي المغرب عاشوا متهمين بالنصرانية، وفي الأولى فقدوا كل ما يملكون، وفي الثانية فقدوا كل ما كانوا يظنون أنهم يمتلكونه، فاستعبدهم البعض، وارتاب في ولائهم الكثيرون، وظلوا لا نصارى ولا مسلمين، كما لو أنهم جنس ثالث ليس أمامه سوى الاكتفاء بنفسه، أو كقنفذ ليس متاحًا له أكثر من أن يضع رأسه أسفل جلده». أعجبت المزحة رئيس الدار فقهقه محركًا رأسه بالنفي: «لا بد أن هذا الاسم جلب لك مشكلات بلا حصر؟»، فرد مراد بأن قلة هي التي تعرف أن لقبه الموريسكي، فهو مراد يوسف رفيق سميح، اسم لا يدل على شيء ولا يقطع بشيء.

ضحك رئيس الدار مرسلًا ريحًا من الحميمية بينهما وهو يقول: «تعرف! لقد حصلت على الدكتوراه من جامعة غرناطة أثناء عملي رئيسًا للمعهد المصري للدراسات الأندلسية، كانت عن التاريخ الوسيط لإسبانيا والبرتغال، التقيت هناك العديد من الموريسكيين الراغبين في إنشاء جمعيات أهلية ذات طابع إسلامي، إلا أن القانون الإسباني يمنع ذلك، رغم إتاحته لغير الإسبان، فالكنيسة ما زالت قبضتها قوية، حتى فرانكو الذي حكم إسبانيا بالحديد لم يجد أمامه غير التحالف معها لمواجهة خصومه من الشيوعيين والقوميين، وحين استعان بالمغاربة في حربه ضدهم فشل في أن يفي بوعده ويمنحهم إقليم الأندلس كوطن قومي

للموريسكيين، فشل حتى في منحهم مسجد قرطبة ليقيموا صلواتهم فيه، واكتفى بمسجد صغير مجاور له، وحتى هذا المسجد سرعان ما استردته البلديه هناك بعد معركة طويلة شنتها الكنيسة على الجميع».

شعر مراد باطمئنان كبير لمحدثه، فقرر أن يفتح له صدره ويتحدث بوضوح قائلًا: «لي صديقة من أصول موريسكية تعيش في إسبانيا اسمها راشيل...»، وقبل أن يكمل جملته وجد الرجل يقول: «راشيل لويس بلاس إنفانتي؟!»، فتوقف مراد عن الكلام مندهشًا من معرفة أستاذ التاريخ لاسمها كاملًا، وبدا أن الرجل انتبه لذلك فارتبك قليلًا قبل أن يقول: «بلاس إنفانتي هذا آخر الحلقات المهمة في نضال الموريسكيين من أجل وطن قومي لهم، كان محاميًا وشاعرًا وباحثًا في التراث الأندلسي، أسلم أمام قبر المعتمد بن عباد في أغمات بالمغرب، وكتب النشيد الوطني لإقليم الأندلس، ودافع عن القومية الأندلسية في مختلف المحافل، مطالبًا بحفر نفق أسفل البحر ليربط الأندلس بالمغرب، موقنًا أنهما بلد واحد، هذا الرجل قتله جنود فرانكو على قارعة الطريق بعدما انتزعوه من بيته المعروف ببيت الفرح، والمدهش أنهم لم يحاكموه إلا بعد رحيله بخمس سنوات، حاكمين عليه بغرامة كبيرة جعلت زوجته تبيع بيت الفرح كي تدفع غرامة عن زوجها بعد رحيله بخمس سنوات كاملة، لم يترك سوى ابنه الذي لم يتجاوز العاشرة من العمر حين قُتل أبوه، بينما ظلت زوجته تتنقل ما بين السجون والمشاركة في معارضة فرانكو مؤمنة بكل أفكار زوجها، حتى شاركت في وضع دستور جديد للبلاد، دستور

نـصَّ علـى أن الأندلس وطن قومي للموريسـكيين، وعَلَمُـه هو علم عبد الرحمن الناصر والمعتمد بن عباد ذي اللونين الأبيض والأخضر»

زالت ملامح الدهشـة عن وجه مراد، وشعر أن رئيس الدار ليس فقط أستاذًا للتاريخ، ولكن أيضًا صديقًا شخصيًّا لأسرة إنفانتي، فاسترخى في كرسيه الفوتيه مبتسمًا، بينما ازداد الحماس لدى رئيس الدار، فراح يكمل حديثه قائلًا إن إنفانتي سـليل واحدة من العائلات العريقة التي شـاركت فـي ثورة طاهر الحر، تلك التـي قام بها بقايا الموريسـكيين في الأندلس بعد قرار التهجير بنحو عشـر سـنوات، كانت البرتغـال يومها قد خرجت مـن ربقـة الاتحاد الـذي فرضـه فيليبي الرابـع عليها مـع إسـبانيا، والتي خسـرت بسـببه العديد من ممتلكاتها عبر البحار، وقد أبدى الأندلسـيون ابتهاجًـا بذلك فقامـوا بمظاهرات تأييـدًا لجوان ملك البرتغـال الجديد، وأراد الأخيـر أن يـرد لهم الجميـل فبحث عن واحد من أسـرهم العريقة وهو طاهر الحر، فأمده بالسـلاح كي يسيطر على شرق الأندلس ويستقل بها عن الإسـبان، وبالفعل قام الحر بثورته وانفصاله الذي لم يدُم طويلًا، نظرًا لخيانة أحد أعوان جوان الذي حمل رسـالة منه إلى قائد الأسـطول الإسـباني، فأخذ الرسـالة وذهب بها إلى مدريد، كي يكتشـف إمبراطور إسـبانيا معاونـي الحر، ومن بينهم قائد الأسـطول، فقـام بقتله ومحاصرة الحر حتى استسلم فتم نقله إلى لشبونة كي يقتل غيلة هناك.

كان مراد على وشـك أن يسـأل عمَّا جرى بعد الحر لمَن بقي من أهله في الأندلس، لولا أن ظهرت السـكرتيرة الحسناء بعطرها الفواح، مشيرة إلى أن السـاعة تجاوزت الخامسة، فنهض رئيس الدار من كرسيه مبتسمًا بحيادٍ شديدٍ في وجه مراد، وهو يقول: «سنلتقي مرة أخرى».

15

قالــت له: «أنت ولد عاق»، ثم تشــاغلت بمداعبة شراشــف المفرش النائم على ســاقيها وهي تبتســم كما لو أنها تحادث شــخصًا غائبًا وليس حفيدها القابع أمامها في الكرسـي البلاستيكي بشرفة البيت، نظر تجاهها كمــا لو أنهــا وخزته بإبرة في ســاقه، حين رآها ســادرة في شــرودها عنه، اســتدار محدقًا في الشــارع الكبيــر، كان العابرون علــى هيئة قطع صغيرة مــن أحجار علــى رقعة شــطرنج طويلة من الأســفلت، شــعر أنهم مجرد دمــى تحركهــا يد علويــة، لا يملــك أي منها الخــروج عن مســاره، أطال التحديــق إلــى هيئاتهم ذات الألــوان المتباينــة على أمل أن تشــعر الجدة أنهــا أغضبته، لكنها لم تفعل، وراحت تترنم بموشــح قديم لم يكن يفهم أغلب كلماته، فتركها وعاد إلى حجرته ليفتح حاســوبه بحثًا عن راشــيل، كان صوت التلفزيون عاليًا والمراســل يتحدث عن تجاوزات حدثت في الانتخابــات البرلمانية، كانت أغلبها تجاوزات شــبه عادية في بلد مأزوم ديمقراطيًّــا، فأغلــق التلفزيون واتجه إلى الغرفة التــي فوجئ أن كل ما بها على الأرض، كتبه وآلات تصويره وأدوات رسمه ولوحاته القديمة، حتى

ملابسه وأحذيته وفرش السرير نفسه، كما لو أن شخصًا جاء يبحث عن شيء ما، فلما لم يجده قرر أن يترك رسالة بأنه كان هنا ومضى، في البدء ساورته الشكوك أن تكون الخادمة العجوز قد أصيبت بالجنون وقامت بذلك، لكنه أدرك أن صحتها وسنها لا يؤهلانها لهذا العمل، وهي لا تكاد تصحو حتى تنام من جديد، ولولا أن جدته تمسكت بوجودها ربما لتخلى عنها منذ زمن بعيد، كانت قد أوصته حين تعرضت لأزمة قلبية منذ سنوات ألا يتركها مهما حدث، قالت إن جده هو الذي اختارها من بين عشرات الخادمات، كانت صبية صغيرة تعاني من عيب خلقي في النطق فرقَّ حاله لها، حين أحضرها إلى البيت دخل بها على جدته هانم، فنظرت إليها طويلًا ثم سألتها عن اسمها فقالت «حياة»، حينئذ ابتسمت لحفيدها «لا تخرج من بيتك إلا على المقابر»، فدخل بها عليَّ صائحًا: «حياة تخدمنا حتى نموت أو تموت هي»، ثم ضحك بصوت مجلجل، هكذا قالت جنى هانم، وهكذا أوصت مراد: «لا أهل لها سوانا، فإن ماتت جهزها بجهازها، وادفنها في مقابرنا»، لم يعرف يومها إن كان عليه أن يبكي أم يضحك، فجدته تكاد تودع الحياة، وتوصيه بعجوز لا يعرف كيف يتعامل معها، وضع يده على رأسه وراح ينصت للأرواح التي تطوف بالمكان من حوله، كان موقنًا أنها جاءت من أجل جدته، ولم يحتمل أن يرى المشهد بعينيه، فتركها وأخذ يسير في الشوارع من قصر العيني حتى لاظوغلي ومنه إلى عابدين ثم شارع شريف، ومنه إلى عبد الخالق ثروت حيث بيت الموريسكي في طلعت حرب، لا يعرف كم مشى

ولا كم استغرق من ساعات في سيره، لكن تلك كانت طريقته في تهريب نفسه من الحزن، حين وصل إلى المدخل الخلفي أسلم نفسه للسلم الرخامي المحتضن للأسانسير المعطل منذ سنوات، كان يصعد الدرجات والظلمات تتكاثف من حوله، شعر لأول مرة كم تتراكم الوحشة في البيوت، فرائحة الخشب القديم، والرطوبة التي تنشع من الجدران، والظلام الكاسي الأرض، كل شيء كان يشعره بالوحشة والفقد، كل شيء بدا كما لو أنه ينتحب من حوله، فظل يتشبث بالسور الحديدي للسلم حتى وصل إلى باب شقته، وما إن فتحه حتى خرَّ مغشيًّا عليه، ولا يعرف كيف أتت حياة التي تركها خلفه في المستشفى، ولا كيف أحضرت له طبيبًا، فكل ما يذكره أنه حين فتح عينيه وجد الجدة بجانبه على السرير، كان وجهها أكثر بريقًا مما اعتاد عليه، بدت كما لو أنها عادت إلى شبابها من جديد، ألقى بنظرة نحوها فرأى ثغرها يشع نورًا وهي تبتسم، سألها: «كيف حالك؟»، أجابته: «كلنا بخير.. طالما أنت بخير»، لكن شيئًا ما كان قد تغير في طبيعتها، فلم تعد تحب الطعام ولا ترغب في دخول الحمَّام، ولا تقترب من شيء بيديها، فقط تراقب وتطلب وتحكي من على كرسيها المتحرك، الأمر الوحيد الذي تغير في السنوات الأخيرة هو رغبتها الملحة في تسجيل تاريخ أجدادها، فتجلس بالساعات إلى جانبه لتحكي عنهم، وفي النهاية تبتسم في وجهه قائلة: «ألا يستحقون الكتابة عنهم؟».

16

كان فرنانـدو قـد وقع تحت سـطوة فتنـة الحكي عن صاحـب اللحية الحمراء خير الدين بربروسا، فظللت أنصت له حتى جنَّ الليل وتخدَّرت أعضائي فمال رأسـي بالنعاس، حينها طرق على فخذي: «قم للنوم وغدًا نعـاود الكلام»، أحضر لي وسـادة من الحلفا وفراشًـا لا يزيـد على كونه حرامًا قديمًا قائلًا: «معذرة.. إننا في حالة حرب»، طأطأت رأسي متفهمًا مـا يرمي إليه، ففي أي لحظة يمكنهم أن يفروا تاركين كل شـيء خلفهم، خاصـة وأنهم لا يملكون جيشًـا نظاميًّا، وليـس لديهم حصون ولا قلاع، وإن وجدت فأسوارها مهدمة، والموريسكيون كلهم بمثابة الجيش نفسه، وخططهـم لا تقـوم علـى المواجهة بقدر مـا تقوم على الإغارة وتشـتيت الفـرق المنظمة التي يرسـلها الإسـبان، شـكرته ودعوت لهـم بالنصر ثم ألقيت جسـدي علـى الأرض كما لو أنني ألقي بجـوال ملح، كنت أتوقع أنني سـأدخل في النوم بمجـرد أن أغلق عيني، لكن صـوت الذئاب التي راحت تعوي جعلني أشـعر أن بمقدرتهـا مهاجمتي في أية لحظة، فقمت وجلبت السـيف أسفل رأسي، وزيادة في الحرص وضعت خنجرًا أسفل

طرف الحرام، وما إن ذهبت عيني في النوم حتى شعرت بوجود أبي في الخيمة، فانتبهت أبحث عنه، رأيته جالسًا في الركن المواجه لي، قلت: «إلى أين تركتني وذهبت؟»، قال: «العالم متسع، والخطى خفيفة والشئون تعددت». لو كان لي أن أرى وجهه في ذلك الوقت لرأيت الدموع التي عرفتها بعد رحيل أمي، قلت: «هل من جديد؟»، قال: «زهراء اغتصبت، اعتدى عليها بعض الجند وهم ذاهبون بالأسرى إلى قشتالة، هؤلاء الحثالة تناوبوا عليها كما لو أنهم يتداولون كرة بينهم، وحين صاح فيهم الأسرى بالتوقف قتلوا ثلاثة منهم، قطعوا ألسنتهم في البدء، وربطوا أطرافهم في أعناق الخيول وضربوها لتشقهم نصفين، زهراء الآن تنزف دمًا وحسرة ولا أستطيع أن أفعل لها شيئًا، والأسرى يجرون أقدامهم على صخر الطريق دون طعام منذ أيام، جميعهم يموتون جوعًا، وحين قررت هي أن تصيح في هؤلاء الأغبياء بأنه ليس من الدين أن يتركوا الناس بلا طعام ولا ماء، سخروا منها، ثم صاح أحدهم أنها أفضل من رأى من الموريسكيين الأنجاس، قال الآخر إنها ابنة عبد الله بن جهور، بعدها فكوا وثاقها لتذهب معهم كي تحضر الطعام لذويها، فكوا السلاسل من أقدامها واصطحبوها إلى كهف بعيد، كانوا خمسة وكانت كغزالة شاردة بينهم، يتركونها تفر أمامهم ثم ينقضون عليها حتى كادت تلفظ أنفاسها، فأعطوها الماء وهم يجردونها من ملابسها، داسين أيديهم في كل جزء منها، حتى فقدت الوعي بينهم، فعادوا بها إلى الأسرى ملطخة بالدماء دون شيء يسترها، ففطن الناس لما فعلوه، ولم يسكتهم ما أحضروه

مـن طعام، وكل مَن فتح فمـه منهم نزلوا عليه بالهراوى حتى فقد الوعي، لكـن ثلاثة قاوموا بكل مـا لديهم من قوة، فما كان منهــم إلا أن صلبوهم على الأشـجار، واجتذوا ألسـنتهم، كان التعذيب أمام الجميع ليعتبر كل مَـن له عين وأذن، فملأ الخوف القلوب، وسـاد الصمت الجميع، لكنهم لـم يتوقفـوا، فقد أوثقـوا الثلاثة مـن أطرافهم في سـرج الخيـل وراحوا يضربونهـا حتى مزقتهم، جميعهم صعدت أرواحهم، وحدها زهراء التي مـا زالت روحها معلقة، فلا هي معنـا ولا هي معهم، فصلِّ من أجلها كي تتخلـص مـن الألم، صلِّ مـن أجل كل موريسـكي في محنـة كي تصعد روحه بسلام».

أجهـش أبـي بعدها ببكاء مسـموع، ولـم أعرف كيف أخفـف عنه أو عنـي، فظللـت جالسًـا في فراشـي أنتحب حتـى ظهر الصبـاح، وجاءني فرناندو قائلًا إنه سـيأخذني بعد الظهيرة إلى السـلطان، فسـألته: «مَن؟»، قـال: «ابـن أمية، سـلطان البشـرات وما حولها، وقريبًا سـيكون سـلطان غرناطـة»، فقلـت: «كيـف أصبح سـلطانًا عليكـم، وهو لم يكـن مَن دعا للثورة؟!»، فضحك وهو يضع الطعام في فمي: «هذا من تدبير عمي عبد الله»، فدهشت: «أبي؟!»، قال: «نعم»، ثم غاب بذهنه، وكأنه يستدرك ما كنـا نخوض فيه بالأمـس ليصل ما انقطع من الحديـث: «ما إن ذهب بك إلـى طليطلة وعاد ليجتمع بنا حتى شـرع في عـدة أعمال أخرى، كان من بينها الاتصال بصديقه بربروسـا، فأرسـل عن طريقه رسـالة إلى السلطان بايزيد طالبًا العون، وأرسل أخرى إلى علج علي باي الجزائر، وثالثة إلى

سلطان المغرب، فأجابوه جميعًا أن مراكبهم ستحمل من العدة والعتاد ما يشتت جمع النصارى وينصر المسلمين، كان ذلك في الخارج، أما في الداخل فقد ذهب إلى أثرياء غرناطة وأجوارها، والبشرات وسفوحها، وقرطبة وأغوارها، ولم يرفض الدخول في الثورة سوى أهل بلنسية ومرسية، لكنه كان قد حصل على وعد بثورة نحو خمسة وأربعين ألفًا في البشرات وغرناطة وقرطبة، فدعا رؤساء العائلات في اجتماع ببيت جبرائيل الخباز بالبيازين، وأخذني معه في تلك الليلة، قال لهم: إن بوجودهم هنا تكون الثورة قد وضعت أولى خطواتها على الطريق، ولم يبقَ لنا سوى اختيار رئيسٍ نحتكم إليه ونأتمر بأمره، فانظروا مَن يكون أميرًا عليكم؟، فقام فرج بن فرج وقال: إني لها، لكن رجلًا رد عليه: أنا أحق بها منك، واختلفت الآراء وتعالت الأصوات، ولم يكن لطرف أن يخضع لغيره، فقام والدك قائلًا: لو أردتم أن تسمعوا مني؛ فإنني أرى رد الأمر إلى بني أمية، داعين لقيام دولتهم، حيث الأندلس الموحدة لا المشرذمة في ممالك صغيرة، غير أن فرج بن فرج نهض ثائرًا: لعلك تسعى لأن تكون الإمارة إليك، فابتسم عبد الله بن جهور: لو نطق بها لساني يومًا فاقتلوني بأيديكم، فخرست الألسن، ودهشت الوجوه، ولزم الجميع الصمت، فأكمل والدك: ما أنا إلا رجل تجاوز الثمانين، وما أردت إلا النصح، وما لي مطمع في شيء، ولا غرض إلا رفع الذلة والمهانة عن رؤوسنا جميعًا، ثم صمت وجلس في مكانه غاضبًا، فقال الناس ما نطقت إلا بالحق، ثم توجهت عيونهم نحو فرج ليقول كلمته، فاحمر وجهه وتقلقل في مكانه، ثم خرج صوته بعد لأي: لو كان الأمر

هكـذا فقـل لنا مَن يمكننا أن نجتمع عليه؟ فصمـت والدك كمَن يفكر في أمـر عصي عليه، ثم قـال لهم: ما رأيكـم في فرناندو دي بالور دي قرطبة؟ ففغـر الجميع أفواههم لأنه شـاب في الثانية والعشـرين، والجميع يعرفه ويحبـه؛ فهو المشـرف على قنـوات الري فـي بلدية غرناطـة، وجميعهم يقدرون رجاحة عقله واتزان فكره رغم صغر سـنه، بعض نسـائهم يعرفن زوجته برياندة بريـز، تلك التي جابت غرناطة بأكملها لتحث الناس على الثـورة، وكلهـم يعرفـون والديه اللذيـن كادا يموتـان في ثـورة البيازين، فكيف غابت هذه الأسـرة الشـريفة عن أذهانهم؟ كان سـؤالهم لأنفسهم وهم ينظرون في وجوه بعضهم بعضًا، مقلبين أيديهم وجهًا لكف، حينها سـأل الحضور فرج بن فرج، وهو محارب قديم يعـرف فرناندو ووالديه جيـدًا: ماذا تقول في فرناندو ابن قرية بالـو المجاورة لكم؟ أجابهـم: هذا سـيد ابن سـيد، والله يعلم أنني لم أكن أريد الإمارة لنفسي، لكنني أردت الصالـح للجميـع، ومـا دام شـيخنا عبـد الله بـن جهور قدمه على نفسـه فلا أملك إلا النزول على ما نزلتم عليه، يومها فوضوه في محادثة ابن أمية وإقناعـه بالثورة، وتركوا الأمل يشـتعل بداخل ابن فرج عسـى أن يرفض فرناندو الأمر، فوالده قد ذاق من التعذيب في واقعة البيازين ما يكفي لأن يعتزل نسـلهم جميعًا السياسة ونارها، لكن عمي عبد الله كان من الدهاء بألا يسمح للحديد أن يبرد في يديه، فأومأ لي أن أذهب إلى ابن أمية، ولـم يكـن بيته ببعيد، فامتطيت جوادي وانطلقـت كالرمح نحوه، فوجدته كما لو أنه في انتظاري، قال: ما الأمر؟ قلت: ارتدِ أفضل ثيابك وهات سيفك معـك، ورحنا نسـابق الريح قبـل أن تتغير الأفـكار، ومـا إن طرقنا الباب

عليهم حتى تصايحوا في وجهه: كنا سنرسل إليك، فبش في وجوههم: كأنكم ناديتموني، وتركتهم لأجلس خلف الباب كأنني حارس بصحبته، حتى سمعت عمي يقول: لقد أجمع الموريسكيون أمرهم على الثورة، فهل أنت مع ذل المسلمين واستعبادهم وتفتيش ضمائرهم، أم أنك مع العدل وإعادة الحق لأهله؟، قال: وهل يرضى بالهوان إلا الوضعاء، والله إني مع كل مَن تخطو خطاه نحو التحرر من الذل، ومع كل مَن يرغب في حماية دين الله واستعادة ملك أجدادنا جميعًا، مهما كانت عائلته أو سنه، ورد والدك: قد اختارك الناس كي تكون أميرًا عليهم، تقودهم بنفسك نحو استعادة ملك آبائهم وأجدادهم، وتموت قبلهم وتعيش لهم، فهل تقبل دعوتهم؟ وبدا على الرجل أنه بوغت، فلم ينطق، حتى أعاد عليه الناس السؤال، قال: ما ولدت وما كان لي أن أولد لو وضعتموني موضعًا وخذلتكم فيه، فسمعت عمي يقول: إلينا بمصحف وسيف، فهرولت مسرعًا لأضعهما أمامه، لكن ابن أمية قال: قبل أن أقسم على شيء، لقد جئتكم وليس في نفسي شيء، فحضرت أمرًا اجتمعتم عليه، ولا علم لي بما في النفوس، فهل منكم مَن نازعته نفسه في الأمر فيكون أحق به مني؟ فنظر الجميع نحو ابن فرج: أبنفسك شيء يا بن فرج؟ ولم يكن أمامه سوى أن يقول: لن أكون أول من يكسر عصا الجماعة، وإني والله أبايعه قبل أن تبايعوه. ووجدت زوجة الخباز تشير لرجل بيديها، فذهب ليحمل منها مشروب العنب في دن كبير، فأسرعت أساعده وهي توصيه: انتظر حتى تسمعهم يعطونه البيعة، وسمعت عمي يعلق على ابن فرج ضاحكًا: وقد قبل الرجل بيعتك، فضحك الجميع بمن فيهم ابن فرج نفسه، وكان

ابـن عبو، وهو كما تعلم ابن خالة حبابـة زوجتي، قد أحضر مصحفه معه فوضعه أمـام والدك الذي أخذه قائلًا: مصحف ابن عبو مصحف الثورة. ووضع عليه سيفه موجهًا حديثه لمحمد بن أمية: أقسم أمام الجميع على السيف والمصحف إنك تبايعهم على الموت والحياة، وإنك لا تقطع برأي دون رأيهم، وإن دماء المسلمين ومصالحهم في عنقك من الآن، فإذا مت فأمرُ القوم بينهم، يؤمِّرون على أنفسـهم من شـاءوا. فلما تلا قسمه وضع والـدك يديـه على المصحف قائـلًا: وهذا عهدنا إليك يـا محمد بن أمية، نبايعك على السمع والطاعة ما دمت ملتزمًا بعهدك وقسمك، لا نخالفك الرأي، لكننا نشـاورك إن رأينا غير ما رأيت، ونقسـم لـك على هذا، فقام الجميع واحدًا تلو الآخر يقسـمون ويقبلون يده بالبيعة، فلما انتهوا طلب ابـن أمية من فـرج أن يجلس بجانبـه، وخرجت عليهم بمشـروب العنب قائلًا: وهذا نخب اختيار الأمير، ثم تلوت قسمي أمامهم مبايعًا له».

17

أعـاد مراد ترتيب غرفته وجلس أمام حاسـوبه يتطلع إلى رسـائله في البريـد، كانـت مفاجأته الكبرى أن راشـيل لا تعرف رئيـس الدار، ولا ما قالـه عـن بـلاس إنفانتي، فقد نسـيت في زحـام العمل أن تحـدث أيًّا من رؤسـائها بشـأن حجة وقف الموريسـكيين، حين سـألها: «مـن أين علم الرجل باسـمكِ، ومن أين أتى بكل هذه المعلومات عن جدكِ؟»، أجابته أن راشـيل إنفانتي ليس اسـمها الحقيقي، وأن بلاس إنفانتي ليس جدها، كان ذلـك بالنسـبة لمـراد بمثابة صدمـة أكبر مـن قدرته علـى تصديقها، فعاد من جديد يسـأل عن سـبب حملها هذا الاسـم، لكنها لـم تكن لديها الرغبـة فـي إكمال الحديث، فقالت إن لهذا قصـة طويلة، ربما حين تعود إلـى القاهـرة تروي له تفاصيلهـا، ولـم تكن تلك الإجابـة إلا بداية أخرى لمتاهـة جديدة، فمتى كانت فـي القاهرة، ولِمَ لـم تخبـره بالأمر من قبل؟ شـعر أن مَن تحدثه ليسـت راشـيل التي يعرفها منذ سـنوات، وأن كل ما جـرى بينهما لـم يكن سـوى محـض وهـم أو تهيؤات، شـعر أن كل ما في الغرفة يدور من حوله، وأن ريحًا عتية تكاد تحمله في طياتها نحو مجهول

في ظلمات من فوقها ظلمات، أخذ يضرب خديه بالكلمات عسى أن يكون نائمًا فيستيقظ، في تلك اللحظة كانت راشيل قد قررت أن تدير دفة الحديث في اتجاه آخر، قالت إن الأوضاع في مصر تطورت بشكل كبير، وإنها اقترحت على الوكالة إنشاء مكتب لها في القاهرة، ومن ثم فإنها ستعتمد في المرحلة القادمة على مجموعة من الصحفيين والمترجمين المحترفين. كان غضب مراد في تلك اللحظة مسيطرًا على فكره، فرأى أن ما تقوله راشيل هو تلويح بالاستغناء عنه، فقرر أن يتنحى هو قبل أن يأتي مَن ينحيه، قال لها: «تأكدي أنني لست في حاجة إلى العمل معكم»، حينها توالت ضحكاتها على الشاشة أمامه، فأغلق حاسوبه وخرج يبحث عن موشح قديم يدفن نفسه فيه.

ما إن خرج من الغرفة حتى انتابه يقين أن راشيل لا تقول الحقيقة، وأن ثمة معرفة لها برئيس دار الكتب، وإلا فمن أين عرف باسمها وتاريخ عائلتها؟ وكيف لها أن تنتحل شخصية ليست شخصيتها في فضاء عام كالفيس بوك؟ في النهاية قرر أن يذهب لرئيس الدار نفسه ليسأله عنها وعن سبب معرفته بها، حين ذهب في الصباح إلى الدار لم يعترض طريقه أي من أفراد الأمن، أومأ لهم بابتسامة ودود فردوا عليه بمثلها وأكثر، لكنه ما إن دخل إلى مكتب السكرتيرة الحسناء حتى وجد مكانها سيدة أخرى، تغاضى عن هذا التغيير وطلب منها الدخول إلى رئيس الدار، نظرت إليه السيدة من أعلى نظارتها سائلة بود إن كان ثمة موعد بينهما، فتلعثم قليلًا قبل أن يقول: «أبلغيه فقط باسمي»، ووقف باعتزاز شديد ينتظر السماح

له بالدخول، غير أنها عادت بوجه ممتعض لتقول: «لديه اجتماع»، انتاب مراد شعور بالإهانة، وراوده اليقين أنها أيضًا تكذب عليه كراشيل، أو أن الرجل هو الذي يسعى للتهرب منه لسبب ما، قرر أن يفاجئ الجميع ويضعهم أمام أنفسهم، فشكرها واستدار بحركة سريعة ليفتح الباب المجاور لها فيجد نفسه أمام خمسة أشخاص ينظرون إليه كوافدٍ غريبٍ عليهم، تجاهل نظراتهم وبحث عن الجالس على الكرسي الدوار، كان رجلًا عجوزًا يتمتع بصلعة طويلة بيضاء، استدار عنه مراد وأخذ يبحث بعينيه في شتى الأركان عن ذلك الذي جلس معه بالأمس في هذا المكان ما يقرب من خمس ساعات، دون أن ينتبه إلى جلبة الأصوات التي كانت تتعالى من حوله صارخة فيه بالخروج، بعدها خفتت الأصوات وأفسحت المجال للأيدي التي تكاثرت لتدفع به خارج الغرفة، حين صرخ فيهم أنه يريد ملاقاة رئيس الدار أشاروا إليه أنه ذو الصلعة الطويلة البيضاء، فوقف مبهوتًا لا يعرف بِمَ يجيبهم، بينما أقدامه وجسده يستجيبان لدفعهم له، وآذانه تلتقط همسات بعضهم عن الجنون وتعاطي المخدرات.

لم يكن يعرف إن كان هو الذي يسير أم أن الأرض هي التي تمشي تحت قدميه، فظل يقطع المسافة من رملة بولاق سيرًا إلى التحرير، عابرًا فندق كونراد والمركز التجاري والبنك الأهلي ووكالة البلح وكوبري الخامس عشر من مايو ومبنى الإذاعة والتلفزيون كأنه منوَّم أو مجذوب في شطح كبير نحو عالم آخر، في البدء تصور أن راشيل هي التي اتصلت بصديقها رئيس الدار ولامته على إفشاء سرها، فأحضر ذا الصلعة الطويلة

البيضاء ليجلس على كرسيه ممثلًا دورًا بليدًا في مسرحية مليئة بالكذب، لكنه تذكر أن أيًّا من راشيل أو أستاذ التاريخ لم يكن يعرف أنه سيذهب إلى الدار في ذلك اليوم، «فما الذي حدث؟»، هكذا سأل نفسه باحثًا عن مخرج من متاهته التي لا يعرف نهايتها، ظل يفكر في شيء يهديه إلى الصواب، شيء يوقن بحقيقته وليس كذبه، هداه تفكيره للبحث في النت عن صورة «رئيس دار الكتب»، لكنه لم يحصل إلا على صورة صاحب الصلعة الطويلة البيضاء، كرر البحث بكلمات متباينة دون أن يتمكن من الوصول إلى صورة واحدة لأستاذ التاريخ، حينها وضع يده على رأسه رافضا أن يكون كل ما حدث محض تهيؤات، أغلق الجهاز وخرج باحثًا عن أندلسيات جدته التي تليق بمتاهته العظيمة.

بدا له أن جنى هانم الجالسة في الصالة بكرسيها المتحرك كانت في انتظار هذا الخروج، كانت قد وضعت يدها على خدها وأخذت ترمي بعينها على باب الغرفة في صمت بلا أغنيات ولا موشحات، لا يعرف لم اجتاحه الشعور بالفرح حين وقعت عينه عليها، فمد فمه ليطبع قبلة على خدها سائلًا عن سبب جلوسها هكذا، لكنها فاجأته: «أنت ولد عاق»، لم يكن في حاجة لأن يفقد الحائط الأخير الذي يحتمي به من هموم الزمن، فازدرد الكلمة متغلبًا على غضبه وهو يرسم ابتسامة باتساع وجهه: «هل حدث ما يغضب جنى هانم مني؟»، غير أنها لم ترد على سؤاله، حين أعاده عليها من جديد انطلقت كمدفع رشاش في وجهه: «جنى هانم

لا يغضبها أحد، لكنها لا تقبل بإهمال الرسائل، فلا يفعل ذلك إلا مجنون»، ظل يتمالك أعصابه منتظرًا أن تعود لهدوئها كي يرد عليها بهدوء مماثل، لكنها ما إن أنهت كلماتها حتى حركت كرسيها بنفس الانفعال لتدخل غرفتها مغلقة الباب وراءها، كان ذلك بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير، فظل واقفًا كتمثال يحترق من الداخل، بينما خيوط المتاهة التي يعيشها تتصاعد في رأسه، فأستاذ التاريخ ليس رئيسًا لدار الكتب، وراشيل ليست راشيل، وبلاس إنفانتي ليس سوى اسم لا يعرف من أين أتت به، والجدة لا تعرف غير الرسائل وموشحات ابن زيدون، وحين ترى وجهه تتهمه بالجنون. «نعم أنا مجنون»، هكذا قالها ساخرًا في البدء، ثم ما لبث أن أخذ يكررها بانفعالٍ متصاعد: «أنا مجنون يا جدة، أنا مجنون»، وطرأت على ذهنه فكرة أن يُسمعها اعترافه الباكي، فراحت يداه تطرقان على باب غرفتها: «أنا مجنون يا جدة.. أنا مجنون»، لكنها لم تفتح له، ولم تنصت لكلماته، فأخذت أقدامه تركل الكراسي والمناضد وكل ما أمامه في غضب متزايد، غضب يريد أن يقطع الشك باليقين، يريد أن يكسر المتاهة ويعرف حدود الوهم من الحقيقة، حدود الكذب من الصدق، والواقع من الخيال، صارخًا على بابها: «كأنك تشاركينهم نفس اللعبة، نفس الدفع نحو الجحيم، لكنني لن أسمح لأحد أن يقتلني، لن أسمح لخرافاتكم أن تُذهب ما بقي من عقلي، فلست مجنونًا يا جدة، لست مجنونًا، ولن أسمح للجنون أن يعرف طريقي».

كان صراخه يدوي كعاصفة تقتلع الحوائط والأبواب والنوافذ والأباليك والصور والبلاط والمناضد والنجف والمصابيح والسماء الملونة بالسحاب، عاصفة تدور من حوله وهو يصرخ في قلبها: «لست مجنونا، ولن أكون»، بينما الصوت يتردد في صدى طويل لا ينقطع من أذنيه، وكل ما حوله يدور أمامه، ونفسه يضيق، وعينه لا تحتمل المزيد، فأغلقها وارتمى بجسده على الأرض مستسلمًا للريح التي تولي من أذنيه، والهدوء الذي عاد للمكان ولا يقطعه سوى خطوات صاعدة بثبات على درجات السلم الرخامي، خطوات كان يسمعها بقلبه قبل أذنيه، فراحت عينه تبحث عنها مترقبة دخولها من الباب نحوه، كان يتمنى لو أن العالم قد سمع صرخاته وجاء ليهدهده، لكن الخطوات التي تكاثرت أعلنت عن نفسها كأسراب متتالية من القطط، أسراب عديدة يسير في خلفها رجل طويل ملثم، كما لو أنه راعٍ يزج بخرافه في نهاية المساء إلى المبيت، لكنها سرعان ما تتحول إلى نساء وأطفال ورجال وعجائز، تنحني رؤوسهم من فوق الأكتاف مطأطئة في خشوع الداخل إلى قدس الأقداس، جميعهم بنفس الخطى الثابتة كانوا يعرفون الطريق نحو غرفة الجدة، دون أن يعيره أي منهم انتباهًا، فظل يرقب المشهد بعينين مفتوحتين وذهول لا حدود له، لا يعرف كيف زحف خلفهم على يديه وساقيه، حين اقترب من الباب سمع الجدة تردد بصوت حنون كلمات لا يعرفها، تحامل على نفسه لينظر نحوها من خلف هذه الجموع، كانوا بثيابهم البيضاء يتحلقون في دوائر تلو دوائر من حولها، مهمهمين خلفها

كأنهم يقرأون من كتاب غير مشهود، حين انتهت من ترتيلها أحنت رأسها ليقبلها الملثم ثلاثًا، ثم يجلسها على سريرها رافعًا يديه نحوهم: «هاتوا برهانكم»، فانطلقت أشعة بيضاء وخضراء من بينهم لتنتظم أمامه كصحائف طويلة، سرعان ما دفع بها نحو الجدة قائلًا: «هذا كتابنا فأين كتابه؟»، بعدها لا يعرف مراد هل انقطعت الكهرباء أم أنه الذي أغشي عليه، لكنه حين فتح عينيه رأى جدته في كرسيها المتحرك تنشد:

لولا بنو جهور ما أشرقت بهم   غيد السوالف في أجيادها تلمع

قوم متى تحتفل في وصف سؤددهم   لا يأخذ الوصف إلا بعض ما يدع

18

قالـت الجدة إن ما حـدث للملتزم كان بسـبب مخالفته وصايا الجد، فقد غلبه الشـيطان وضعفـت عزيمته أمام المال واسـتمع لنصائح قاضي السوء، فلم يكتب كل ما يملكه للوقف، رغم أن النصيحة كانت واضحة، لكنـه لم يكن يعلم ما الذي تخبئه الأيـام للجميع، ومن عجائب القدر أن شـيخ السـوء الذي نصحه ألا يكتـب كل ما يملك للوقـف «فعصفور في اليد خير من عشـرة على الشـجر»، هو نفسـه الذي أضـاع على عطية كل مـا يملك، فقد ترك العمل بالمحكمة الشـرعية وانضم للخدمة في جيش الباشـا حتى أصبح دفترداره، وحين مرت الأيام وقام الباشـا بحملته ضد الدرعيـة كان بحاجـة إلى تجهيز حملة ثانية ليقضي علـى الوهابيين فيها، فعـاد سـائلًا عن مـوارد لهـذه الحملـة، وكانـت الخزينة شـبه خاوية من الحرب مع المماليك وحملة فريزر، حين جلس الباشا لمناقشة الأمر مع ابنه إبراهيم ومسـاعديه، قال مسئول الخزينة إنه لا يمكن فرض ضرائب جديـدة علـى الفلاحين وأربـاب الحرف، فقـد صاروا يتركـون أعمالهم وحقولهـم هربًا من الضرائـب التي نُقرُّها عليهم، يومها صرخ الباشـا في

وجهه: «وهل نترك بذور الوهابية لتنمو من جديد، أم نقف مكتوفي اليد أمام المماليك المتجمعين على حدود السودان؟»، كان من الحضور في ذلك اليوم قاضي السوء الذي لم ينسَ أن عطية لم يعطه حلوان إنهائه لإجراءات الوقف، فقال: «يمكننا محاصرة المماليك إذا أخذنا من أذنابهم المال الذي يمدونهم به»، هنالك اشرأبت أذن الباشا وأشار له أن يكمل، فراح يوضح قائلًا: «أعرف ملتزمًا اسمه عطية إبراهيم، لم يكن أبوه سوى خولي أنفار، لكنه استطاع من خلال موالاته للمماليك أن يمتلك أكثر من خمسمئة فدان وقصر على مقربة من القلعة، فضلًا عن الذهب والخدم والعبيد، هذا الرجل ما زالت تربطه علاقة قوية بهم، فهو الذي يمدهم بالمال والأخبار، فلِمَ لا نأخذ أمواله من أجل الحملة». قاطعه إبراهيم باشا: «لو صدَّقنا ما تقوله فإن أمواله جميعًا لا تكفي لتجهيز نصف الحملة»، وعقب الخازندار: «ولو فعلناها لظن الملتزمون في البلاد أن الحرب بدأت عليهم، ولامتنعوا عن دفع مال الالتزام، وربما فروا بأموالهم من البلاد»، لكن الباشا قهقه عاليًا: «شو جوزال خازن بيك، شيلوا كل الملتزمين، أنا باشا مصر أقول لا أريد التزامًا في أرضي»، كان ذلك بمثابة استباحة لأموالهم وأملاكهم، وكان عطية الله في مقدمتهم، فلم يستطع أن يحتمل خروجه هو وأسرته من بيته بملابسه فقط، فسقط مسلمًا روحه إلى بارئها.

لم يكن أمام حور العيون سوى أن تنتقل بابنها إلى بيت والدها موسى العطار، لكن حبيب الله مال بهواه إلى جده إسماعيل الوراق

فـي الأزهـر، فلازمـه للتعلـم علـى يديـه، مؤكـدًا أنـه لا يحـب العطارة ولا يرغـب فيهـا، ولأن الحيـاة لا تأتـي إلا بمزيـد مـن الهمـوم، فقـد بنـى الباشـا المطبعـة الأميريـة، وراح النـاس يهفـون إلى كتـب مطبوعة لا منسـوخة، ورأت حـور العيـون أن مهنـة نسـخ المخطوطـات زائلـة لا محالة، فقررت أن تبحث لابنها عن مسـتقبل أكثر اسـتقرارًا، قال أبوها إنـه يعـرف رجلًا يعمل في ترسـانة بـولاق، وإن أعمالهم هـذه الأيام في ازديـاد، فقبلـه مرحبًـا به ككاتـب لديه، لكـن حبيب هوت نفسـه لارتياد السـفن، وحين سـمع أن ترسـانة جديدة في الإسـكندرية سـتفتح أبوابها لقبول متدربين على الملاحة كتب طلبًا للالتحاق بها، ومرت شهور نسي فيها الأمر حتى فوجئ بمن ينبه عليه بضرورة الذهاب إليهم، ودعته حور العيون وجدَّاه موسـى وإسـماعيل قائليـن إن المال ليس كل شـيء، وإن محبـة العمل أفضل من العمل ذاته، فاحتضنهم مقبلًا الوجوه والرؤوس، متخـذًا أول مركـب فـي طريقـه إلـى الإسـكندرية، حين وصـل علم أنه سـيكون جنديًّا على سـفينة في البحريـة تحت قيادة رجل فرنسـي يدعى سريزي، كان الباشـا في المحروسة يحلم بجيش حديث، فأقنعه سليمان الفرنسـاوي بأنه لا جيش دون بحرية، وحين فشل في تدريب السودانيين وأبناء النوبة أقنع الباشا بالاعتماد على المصريين، ونشط الأخير في إقامة ترسـانة بالإسـكندرية وأخرى على رأس البحر الأحمر، ولم يمضِ على تدريب حبيب الله أكثر من شـهرين حتى وجد نفسه يتعامل مع واحد من خمسـة مدافع منصوبة على ظهر سـفينة كبيرة في عرض البحر، فأرسـل لأمه: «صرت أركب موج البحر الذي لم يمتطه أي من أجدادي».

لـم تكـن حور تعلم من أمر الجندية غيـر المماليك، ورغم أنهم كانوا السـادة المتحكميـن فـي البلاد إلا أنهم فـي النهاية كانـوا عبيدًا، فصكت صدرها: «ابن عطية الله وحور العيون عبد؟!»، حاول موسـى وإسماعيل أن يهدئا من ثورتها، فأصرت على أن يأتياها بابنها، وكان عليهم أن ينتظروا إلى أن يجيء الرجل الذي ساعده في تقديم أوراقه للترسانة، فلما قال لهم إن الأمر ليس بيعًا ولا شراءً، لكنه وظيفة سيحصل من خلالها على راتب شـهري، هدأت ثورتهـا، وطلبت منه أن يصطحبها إلى الترسـانة لزيارته، لكـن الحمـى التي فاجأت موسـى العطـار جعلتها تنشـغل بمرضه، ولم تمضِ أيام حتى جاءها خطاب من حبيب الله: «سأسافر إلى جزيرة المورة في اليونان مع جنود الباشا لتأديب الخارجين على السلطنة العلية»، يومها صكت صدرها وانهارت في البكاء ملازمة الفراش حزنًا عليه، ولم تغادره إلا بعدما رأت العين الراعية وبصحبتها حبيب، كان كلاهما يمطتي جوادًا أشـهب في أرض واسعة خضراء، يتخطون بهما رقاب العباد، ويختلفون مـن بحر إلى صحراء إلى حدائق غنَّاء، ظلَّا يدوران وهما يتحاوران حتى طرقا الباب عليها، فانتبهت لتجد عمها إسماعيل يخبرها أن خطابًا جاءها من الترسانة، حين فتحته وجدت به مبلغًا من المال يكفيها لعام، فأسرَّت في نفسـها رؤياها ونهضت من حزنها تفتح محـل والدها، ومن يومها لم تعـد تبكيه ولا ينتابها القلق عليه، ولم تشُـك فـي رؤياها إلا حينما جاءها حبيب يحكي عن خسـارة أسـطول الباشـا في حربه مـع الفرنجة، وكيف رأى أصدقـاءه يموتون ما بيـن الغرق والحرق في مراكبهم، كانت سـفن الإنجليـز تتكاثـر عليهم وتضـرب بمدافعها من كل جانـب، حتى احترق الأسـطول وغرقت كل سـفنه، وأعلن الباشا استسلامه وقرر الفرنجة نقل

جنوده على سفنهم، قال إنه لم ينجُ من جند الباشا إلا القليل، ومَن نجا عاد بإصابات تحول بينه وبين العمل، قلة هي التي أظلتها رعاية السماء، لكنها لم تمنع عنهم الكوابيس وصور الأصدقاء في لحظة الموت.

كان حبيب الله ينتفض وهو يحكي، ولم تُجدِ قصار السور التي تلاها إسماعيل على مسامعه، ولم تجدِ طاسة الخضة ولا حلقة الزار ولا زيارة الكنائس والأضرحة في شيء، وظلت أمه تجلس على الأرض بجانب سريره باكية لما أصابه من هلع وجنون، حتى رأت جدها في منامها يطارد بسيفه أشباحًا تحوم حول الدار، فلما انتهى منها جاءها مبتسمًا يمسح على رأسها: «ابنك بخير يا حور»، فاستيقظت على يد حبيب وهو يربت كتفها: «ما الذي جعلكِ تتركين سريرك وتنامين هنا؟»، فانتفضت مقبِّلة وجهه ويديه. «كأنني رأيت جدك عبد الله»، أجابها: «وكأنني أيضا»، ثم نهضا يعدان طعامًا لجائعين من زمن طويل.

لم تمضِ أيام إجازته حتى ارتدى زيه البحري وسلَّم على جدَّيه موسى وإسماعيل، ثم ركب السفينة المتجهة إلى الإسكندرية، وحين مات موسى أرسلت له بالحضور للعزاء، لكنه كان قد أصبح ضابطًا يعلِّم القادمين من قراهم البعيدة كيف يصوبون المدافع على سفن الأعداء، كانت تراه في أحلامها وهو يجوب البحر الكبير ذاهبًا في اتجاه سلطان مرتعد، وسمعت أن الحرب بدأت بين الباشا والسلطان على أرض الشام، سمعت أن الفرنجة والإنجليز مرتعدون من طموح الباشا، وأنه لم يعد يفصل بين الأخير وبلاد السلطان غير جبل صغير، رأت حبيب الله في ظهر باشا كبير، رأته يأمر وينهى في جنوده على سفن كثيرة، وبإشارة منه

تـدوي مدافع كالصواعق على الأسـوار والحصون، وكلما سـمعت أنباء نصـر تذكرت حبيـب وهو ينافس جـده عبد الله بجـواده متخطيًا رؤوس الخلائق، حتى أيقنت أنه لن يعود من ترحاله إلا باسـتعادة مُلك أجداده، وأن حبيبها سـيكون بربروسـا المهيب بلحيته الحمـراء، إلا أنه لن يحمل في سـفنه العائدين من الأندلس، لن يحمل غير الراغبين في الذهاب إلى بلادهم وبيوتهم التي ما زالت مفاتيحها معلقة في الأعناق، لكن الأيام لم تأتِ ببشارة على تحقق أحلامها، فقد عادت الحرب بين الباشا والسلطان فـي الشـام، وعاد حبيب اللـه يضرب ببوقات الأسـطول الكبيـر في غزو واضـح للأناضول، فنهضت سـفن الـروس والإنجليز والسـويد تحاصر سـفن الباشـا في كل مكان، وتعطي إنذارات لها بالعـودة من حيث أتت، رأت سفن الفرنجة رابضة أمام شواطئ الإسكندرية، وحبيب يرتعد خ مـن أن تحترق سـفنه المشـرعة في البحـر، ويموت أصحابـه على يديه، حبيب يرتعد من سـفن صوبت مدافعها على أسوار الإسكندرية وراحت تعد الليالي للباشا العنيد في قصره، وإبراهيم يصرخ في أبيه: «دعني أجيئ لك بالسـلطان المريض راكعًا على قدميه»، لكن الباشا ينهره: «بلادنا في قبضة المدافع، وملكنا في مهب الريح»، رأت السفن تعود إلى ترساناتها، والجنـود تنفضُّ من على قطعها، وحبيب عالـق في يد جده كطفل مرغم علـى أمـر لا يريده، فتحت عينيهـا لتراه دون زيه العسـكري في أحضانها حزينًـا مهمومًـا، حتى جاءه رسـول من القلعـة قائلًا إن الباشـا تكرَّم عليه لمجهوداته في قيادة جند البحرية بجفلك بمئتي فدان بزمام كفر الدوار.

19

أخذني فرناندو إلى ابن عمنا محمد بن عبو قائد جيش ابن أميه، كان يجلس في خيمة كبيرة وسط معسكره بطاعة أجاجير بالبشرات، كان قد نصب خارطة للأندلس بمقاطعاتها وجبالها ومدنها، ملونا ما بعدها بلون الصحراء والبحار الزرقاء، كان يشرح بسيفه لعدد من قواده خطته لتحرير ثلاث قرى على سواحل مالقة، حين لمحنا توقف عن حديثه مرحبًا، ثم أذن لهم أن ينصرفوا قائلًا: «لا تقلقوا على السلاح فسوف يأتينا منه المزيد قريبًا»، سأله فرناندو: «من أين؟»، أجابه أن هرناندو الحبقي أرسل خطابًا من الجزائر بأن الداي علي استحسن الأنباء التي حملها إليه، وأنه نشط في جمع المتطوعين الجزائريين للحاق بنا، وقريبًا سترسو عشرة سفن محملة بالسلاح والرجال على شاطئ مالقة؛ لذا لا بد من تحرير قراها ضمانًا لنزولهم بسلام. كان سيفه يتحرك على الخريطة المنصوبة وكأنه ما زال يشرح خطته، لكن فرناندو نبهه: «هل تعرف مَن هذا؟»، فتوقف الرجل وكأنه انتبه فجأة إلى أن قواده قد خرجوا: «الوجه ليس غريبًا، لكنني لم ألتقِ به

من قبل»، هكذا قال، فسـأله فرناندو: «ألا يذكرك بأحد؟»، فتمعن الرجل في ملامحي: «لا أود أن أكون ظالمًا لنفسي، لكنني أراه أقربنا شبهًا بعمنا عبـد اللـه بن جهور». فصرخ فيـه: «إنه ولده محمد»، حينها سـقط الوقار عـن وجه ابن عبو، وألقى سـيفه على الأرض محتضنًا إياي، شـعرت من ضمته كم كان يجلُّ أبي، شعرت كم يدين له بفضل كبير، ورأى ذلك على وجهـي فقال: «لم يكن مجـرد عم، كان أبًا لي وللجميع، ولولاه ما قامت البشـرات»، ضحكـت خجلًا وربما فخـرًا أو تواضعًـا، لكنني ضحكت، فنظـر لـي من جديـد: «الآن تأكـد لـي أن عمنا ابن جهـور مـا زال حيًّا». بعدها سـألني فرناندو: «ما الذي سـتفعله؟»، ولم أكـن أجيد الحرب ولا القتل فقلت: «لا أدري»، وضحك ابن عبو «ليسـت المشـكلة في حمل السلاح، فسوف يدربك فرناندو عليه، لكن ما الذي تجيده أنت، فالحرب ليسـت دائمًا سـلاحًا وقتالًا»، قلـت: «أجيـد الكتابة بالعربية والقشـتالية وبعض التركيـة واللاتينية»، ورأيت عينه تنفتح دهشـة: «وتجيد الحديث بهـا؟»، قلـت: «نعـم»، فاحتضننـي كأنـه وجـد لقيـاه العظيمـة، أضفت: «وأجيد الرسـم والنحت وأفهم فـي بناء العمارة وتزيينهـا»، كان فرناندو يقف مشدوهًا مما يسمع، وكأنه يكتشف ابن عمه الذي حمله والده على جواده منذ عشـر سنوات إلى طليطلة، فسألني: «أين تعلمت كل ذلك؟»، أجبته: «في ورشة العم باديث بطليطلة، كنا نخط ونرسم وننسخ كتبًا بكل هذه اللغات، كنا نذهب لطلاء وتزيين القصور والكنائس والبيوت، ولعل العـم باديث ينتظرنـي الآن». فجأة وجدت الرجلين يسـقطان في ضحك

متواصل، فنظرت إليهما والدهشة تعلو ملامحي، لكن ابن عبو توقف احترامًا لمشاعري، ثم وضع يده على كتفي قائلًا: «هل تترك مملكة بني أمية لتذهب فتزين قصور وكنائس طليطلة؟»، كان السؤال مباغتًا، ولم يكن في خطتي ترك العم باديث ولا التخلي عن أرملة ابنه، وربما كان وجهها الجميل هو الذي يحثني كل لحظة على العودة، حين طال صمتي ابتسم فرناندو: «لنعرف رأي الأمير»، فنظر إليَّ ابن عبو: «لو أن أهلك بحاجة إليك في مواجهة أعدائهم فهل تتركهم من أجل الرسم والنحت وتزيين الكنائس؟»، قلت: «لا»، قال: «السلطان بحاجة إلى كاتب موثوق به، فنحن نؤسس ملكًا تقوده العقول البصيرة، وإني أراك واحدًا منها»، شعرت حينها بالخجل، ولم يكن أمامي غير البقاء بين أهل يؤسسون ملكهم الجديد.

خرجنا من عند ابن عبو بعدما جاءته البشرى أن مراكب أهل الجزائر قد تحركت، قال لفرناندو: «لا بد أن ننتهي الليلة من أمر ملقة»، وأجابه بأنه ورجاله مستعدون، ثم تركني في خيمته وحدي دون أن يخبرني بما حدث لزهراء وحبابة، فقد أسهب في كلامه عن قيام الثورة، إذ أصر ابن أمية على بيعة عامة، طالبًا كل مَن رغبوا فيها لإعطائه العهد، لكن أبي نصحه أن ذلك صعب، وقد يشعر الإسبان أن أمرًا يدبر ضدهم، فاكتفوا بممثل عن كل عائلة، واجتمعوا في قرية برذنار بوادي الإقليم، خطب فيهم ابن أمية خطبة عما حلَّ بالمسلمين وملكهم، وكيف أصبحوا من بعد عزٍّ أذلة، وكيف حرموا من امتلاك العبيد، وصاروا مستباحين

للعبوديـة فـي كل لحظة، مهددين بضيـاع أرضهم وأولادهـم كما ضاع آباؤهـم، فكل مـا يخص تراثهم يعاقبـون عليه، فلغتهـم وعاداتهم جرائم يشـردون بسببها، ودينهم هرطقة وكبيرة لا تغتفر، وحتى تنصُّرهم لا يُقبل منهـم، فلا هـم مسـلمون ولا مسـيحيون، ولا هـم بشـر ولا حتـى حيوان، فهـل يرضـي ذلك أحدًا؟ أجابـه الجميع: «لا»، صاح فيهـم: «لذا وجبت الثـورة»، فلما هتف الناس باسـمه انحنى لهم، ثم رسـم خارطة الأندلس علـى الأرض، واضعًـا أربعة أعـلام حولها: «هذه أرضنـا، وهذه الأعلام الخضـراء أعلام عبد الرحمن الناصـر، حيث بلغت الدولة في عهده أوج اتسـاعها، وعهد عليَّ أن أقودكم لهذه الحدود حتى ترفرف عليها أعلامنا مـن جديد»، هتـف الناس له، وأحضر والدي كرسـيًّا أجلسـه عليه قائلًا: «وأنـا أخلـع ما في عنقي كقائـد للثورة وأبايعـك قائدًا عامًّا لها وسـلطانًا علينا»، ثم خلع طوق ورد من عنقه وألبسه إياه مسلمًا عليه بالإمارة، فأقبل الجميع يسـلم عليه ويقبل يديه بالبيعة، بعدها عين ابن أمية أبي وزيرًا له، وفـرج بن فـرج قائدًا للجيش، وشـعبان ميكيل دي غرناطة رئيسًـا لوادي الإقليم، وماركوس الزمار قائدًا لقولجر، وماتيو الرامي قائدًا على المرية، وفرناندو الغري قائدًا لوادي المنصورة، وفرانسسـكو بوركرير بن مكنون قائـدًا للمنطقة الشـرقية، وجرنيمو بن المليح قائدًا لـوادي آش، ومارتين دي عـذرا قائـدًا لمنطقة عـذرة، واختار الرنداتي والناقص والأرشـدوني مستشارين عسكريين له، ثم جلس موضحًا خطته للتخلص من الإسبان، قال إن أفضل وقت للخروج هو ليلة رأس السـنة، ففيه ينشـغل النصارى عن أنفسهم، وفي فصل الشتاء تنزل الثلوج فلا يعرفون أين يذهبون، بينما

نحن نعـرف أرضنا أكثر مما نعـرف أبناءنا، نعـرف مخارجها ومداخلها، كهوفها وممراتها، فلم لا نجهز عليهم في هذه الليلة ونخلص بالبشـرات لأنفسنا؟

حينها سأله ابن فرج: «وماذا عن غرناطة التي إن فزنا بها فقد أسقطناهم إلـى الأبد؟»، قـال ابن أميـة إنها تحتاج إلـى أربعة فرق، وأزيـاء جند من جيـش المغاربة وبني عثمـان، ففغر الجميع أفواههم، لكنه لم يتوقف عن الشـرح: «تخيلوا لو أن البرطـال والناقص خرجا بمن معهما من المنفيين خارج غرناطة، فتوجهوا من وادي آش إلى قصر الحمراء فتسلقوا أسواره مـن جهـة جنة العريف فاحتلوه، بينما وزع فرج بن فرج رجاله وناسـه في حي البيازين على فرق ثلاث، الأولى تحمل علمًا أحمر، تتجه به من باب فـج اللوزة إلى المستشـفى الملكـي، ومنه إلى باب البيـرة حيث محكمة التفتيش، فيحررون مَن فيها من أهلنا، بينما تتجه الأخرى بعلم أصفر إلى ساحة باب البنود لتحرير مَن في السجن العام، والثالثة تخرج بعلم أزرق إلى وادي آش حيث بيت الرئيس ديسـا فتقضي عليه، ثم تعود هذه الفرق لتتظاهـر في سـاحة بـاب الرملة بوسـط المدينة، ويفاجأ النـاس بانضمام ثمانية آلاف رجل إليهم، قادمين من مرج غرناطة ووادي الإقليم بملابس جنـد بني عثمـان والمغاربة، فهل يملك ملك إسـبانيا فيليبي الثاني حينئذ سوى التسليم بالأمر؟».

كان فرناندو سعيدًا وهو يحكي تفاصيل خطة ابن أمية لتحرير غرناطة، لكن سوء تدبير فرج بن فرج جعلهم يخسرون المدينة، فقد شك الإسبان

في أن شيئًا يحاك لهم من خلفهم، فزادوا في الحراسة وأرسلوا بجنودهم إلى البشـرات، ولـم يكن أمام والدي سـوى أن يتحدث مع الرئيس ديسا، فذهـب إليـه قائـلًا: «إنكـم تعطلـون مصالـح النـاس من أجل وسـاوس لا أسـاس لهـا، فكل ما يشـاع عن هـذه الثورة محض افتراء من قساوسـة يريـدون معاقبة الموريسـكيين على جـرم لـم يرتكبـوه»، وتأكيدًا منه على صـدق كلامـه قال: «وإن أردت تثبتًـا من صدق نيتنا فخذ مَـن تريد رهينة حتى الموعد المزعوم، لكن لا ترهبوا الناس ولا تعطلوا الأحوال»، فاقتنع ديسا بحديثه، وأمر قائد جيشه المركيز دي مندوجر برفع يده عن البشرات، غير أن الأخير أمر باعتقال مئة وخمسـين رجـلًا جلهم من الأثرياء قائلًا: «سنحتفل جميعًا بليلة عيد الميلاد»، وأسقط في يد الجميع، إلا أنهم قالوا لأنفسـهم: «حالما تنجح خطة ابن أمية سـنعود جميعًا إلى البيوت»، لكن المشـيئة أرادت نقيض ذلك، فقبل الموعد المحدد بأسـبوع خرجت قوة إسـبانية في طريقها لوادي آش اسـتعدادًا لاحتفال رأس السنة، واعتادت هذه القوات في طريقها أن تأخذ من الموريسـكيين ما تشـاء قوة وغصبًا، فلمـا فعلـوا ذلك في هذا العـام عارضهم الناس، وشـعر الجنـد بالإهانة فبطشـوا بهم، معملين السـلاح فيهـم، حتى فروا من أمامهم مسـتنجدين بالمنفييـن خـارج غرناطة، فنزل إليهـم البرطال والناقـص برجالهما عند بلدة قديار، فقتلوا الجند وأخذوا منهم السـلاح، واعتبر الناس ذلك بداية الثـورة، فخرجوا على الإسـبان في قراهـم، وخرج قادة المناطق بحسـب الخطـة الموضوعـة على الحاميـات التي في مناطقهـم، وأعطى ابن فرج أوامـره لرجاله بالخروج، لكن الثلوج هطلت فـي هذه الليلة بغزارة حتى

سدت الطريق من وادي آش إلى غرناطة، ولم يتجمع لابن فرج سوى مئة وسبعين رجلًا توجه بهم إلى البيازين مناديًا في الناس بالخروج، إلا أنهم حين رأوا قلة مَن معه رفضوا الخروج، ولم يستطع ابن فرج دخول المدينة لفتح السجون، ولا الذهاب لقتل الرئيس ديسا، ولم تظهر الأعلام الحمراء ولا الزرقاء أو الصفراء، ولم يرَ الناس حتى زيًّا واحدًا مغاربيًّا أو تركيًّا.

كان حكي فرناندو قد أشعرني باليأس والفشل، وشعرت أن الأمر قد ضاع، فقلت: «كيف فعلتم ذلك إذًا؟»، قال: «إنها الحياة، يوم لك ويوم عليك، ففي هذا اليوم استطاع ابن أمية أن يتسلل هاربًا من غرناطة إلى البشرات، تاركًا شقيقه وأختيه وأمه وأباه، وفي الصباح وصل ما وعد به الجزائريون والدك، فقد رست سفنهم على سواحل ألمرية ومربلة معبأة بالسلاح، لكنها لم تأتِ بالرجال، وجاءتنا الأنباء أن قادة المناطق نجحوا فيما اتفق عليه، وأضحت البشرات وأجوارها لنا، واشتعل غيظ الإسبان فراحوا يقتلون كل موريسكي يرونه أمامهم، حتى حفر الناس لأنفسهم الخنادق ليختفوا فيها، وخرج المركيز مندوجر بجيشه لمهاجمة البشرات من جهة غرناطة، بينما أرسل فيليبي الثاني لقائد منطقة مارسية المركيز دي بلش كي يخرج بجيشه علينا من جهة الشرق، فانقطعت الصلة بين ثوار المنصورة وألمرية وبين البشرات، وصرنا نحارب جيشين منظمين في وقت واحد، حتى فقدنا الكثير من قوادنا وهم يدافعون عن قراهم وأهليهم، فشعبان ميكيل أخذ بالقوة القليلة التي معه في الدفاع عن وادي

آش بكل شجاعة إلى أن شتت جيش مندوجر عند جسر طبلاتة، لكن الأخير جمع قواته من جديد وكرَّ عليه مضيقًا، حتى حاصره وقتله هو وابنتيه ووالده ممثلًا بجثثهم، ثم أمر بذبح كل مَن كان معه، وسبي كل مَن وجدوه من النساء أو الشيوخ في البيوت، مات شعبان وغيره كثيرون رجالًا في أماكنهم، بينما لم يستطع صهر ابن أمية الصمود أمام مندوجر، فتحصَّن بقرية جبيلش وأرسل له طالبًا العفو مقابل تسليمها له، لكن مندوجر الذي ارتاب فيه لم يستجب لطلبه قبل أن يسأل الملك، مكتفيًا بقتل ثلاثة آلاف شخص كان قد أسرهم في طريقه لجبليش، ومرسلًا لابن أمية يأمره بالاستسلام مقابل العفو عن الموريسكيين، فرفض السلطان معتصمًا بجبال أجاجير، مدافعًا عنها هو ومَن معه من القادة، فقتل في هذه الواقعة ماركوس الزمار وابنتاه، وسيق الباقون أسرى ليُذبحوا في غرناطة أو يباعوا في أسواق العبيد بقشتالة، وحين علم مندوجر أن السلطان يبيت لدى ابن عبو في بلدة مشينة، سحب جيشه وهاجم القرية من كل جانب، غير أنه حين دخلها لم يجد لا السلطان ولا ابن عبو، فلم يكن أمامه غير إعمال السيوف في رقاب وصدور كل مَن وجده أمامه، ولم يكن المركيز دي بلش أقل قسوة منه، ولم يكن رجالنا أقل شجاعة من شعبان ميكيل وماركوس الزمار، فقد التقاه فرناندو الغرمي في الجهة الشرقية فكبَّده خسائر فادحة حتى فرَّ من أمامه، لكنه عاد فنظم جيشه واشتبك معه عند قرية أندرش، وكاد ينتهي أمر الغرمي ومَن معه في هذا اليوم ببلدة فيلش، لولا ابن مكنون الذي تحرك برجاله للسيطرة على ألمرية، فلما سمع

بذلك دي بلش خشـي على ألمرية وأجوارها، فترك الغرمي وعاد مسرعًا للدفـاع عنها، مخلفًـا ألفين من القتلى، كان أغلبهم من النسـاء والأطفال والشـيوخ، فقد كان يقتل ويحرق كل مَن يجده أمامه، رافضًا فكرة السبي التي قد تعطل الجيش أو تضيع الوقت».

تنهد فرناندو وقتها وشعرت أنه تذكر أمرًا خاصًّا، ربما كان سبي حبابة أو مقتلها، قال: «كنا نحارب جيشين منظمين لدولة كبيرة، ولم نكن نملك غير العصي والأسلحة القديمة، وكانت الحرب على أرضنا، وأي خطأ أو صواب كان على جثـة أهلنا وذوينا، فقدنا الكثيرين، فقدنا الزهراء وأخي الصغير وحبابة»، حين نطق باسمها بكى، فسألته ما الذي حدث لها، تنهد قائلًا: «هذا أمر سـأحكيه لك فيما بعد، لكن دعني أوضح كيف اسـتطاع والدك أن يجمع شـتات الأمور، فقد أهمل فرج بن فرج نصرة رجالنا في الأوديـة والأقاليم التي نسـيطر عليها، وراح يقوم دون الرجوع للسـلطان أو غيره بغزوات على شـواطئ بيرة شـمال شـرقي المريـة وجبل طارق، كان هدفـه أن يخلق مكانًا يمكنه الاتصال منه بالمغرب، لكن منطقه كان مقلوبًا، فالحفاظ على ما نسـيطر عليه كان خيرًا من السـعي للسيطرة على أماكن سـتكبدنا الكثير، ولن نجني منها شـيئًا، فسبتة وطنجة محتلتين من قبل الإسـبان، ولن يملك سـلطان المغرب أن يمدنا منهما بشـيء إلا بعد تحريرهمـا، فغضب عليـه ابن أمية مذكرًا إياه بسـوء تدبيره فـي البيازين، وكيف خدعه الناس وتخاذلوا عنه فضاعت منا غرناطة وظل أهلنا رهائن لديهم، وفي ثورة غضبه قال له: «من اليوم لن تتحمل مسـئولية الجيش»، فـرد ابـن فـرج: «إذن فاجعـل عجـوزًا فـي الخامسـة والثمانيـن يتحمل

مسئوليته». ولم يكن في الاجتماع غير والدك، فنظر إليه ابن أمية وقال متحديًا: «من اليوم هو قائد الجيش»، ثم نادى على كاتبه وأصدر قراره بعزل ابن فرج وتولية والدك مكانه، يومها شعرنا جميعًا بالقلق، فكلنا يعرف أن ابن فرج مقاتل شرس، لكننا لا نعرف ما الذي سيفعله رجل مشرف على التسعين من عمره، وزاد الأمر سوءًا أن عمي اعتكف في خيمته فلا يخرج ولا يدخل عليه أحد، وظل ساكنًا لا يصدر أمرًا واحدًا لثلاثة أيام، حتى ظن الناس أن الأمر أُسند لغير أهله، وراحوا يراجعون السلطان في قراره، لكن والدك فاجأ الجميع، فقد جمعنا ونصب خارطته أمامنا شارحًا كيف يتحرك جيشا الإسبان كشقي رحى حول البشرات من الشرق والغرب، موضحًا أننا نقوم بحروب كر وفر، وليس لدينا جيش منظم، ولا أنسى جملته: المشكلة أننا نحاربهم على أرضنا، وكل خطأ أو صواب يبدو كما لو أننا خسرنا كل شيء؛ لأنه يثير الرعب في النفوس، ويضعف العزائم، ويجعل الراغبين في الثورة يؤثرون السلامة؛ لذا ليس أمامنا سوى أن نغير من طريقتنا في الحرب. يومها طلب من قادة المناطق أن يجمع كل منهم خمسة آلاف رجل يزحف بهم كجيش على غرناطة، وأخذ يرسل لمَن في غرناطة بهذا الأمر كي يستعدوا، ولا نعرف هل كان ذلك خطة منه أم أنها المصادفات، فقد بدأ الرئيس ديسا يرتعد، وأصدر أوامره للماركيز دي مندوجر بالعودة للدفاع عن المدينة، فخف الضغط عن غرب البشرات، وتحت ضغط الخوف ارتكب مندوجر خطيئة كبرى، فقد أمر بقتل كل الذين أخذهم رهائن لديه كي لا تقوم الثورة، فأثار ذلك غضب الناس في كل مكان، حينها قسّم والدك جيشه إلى ثلاث فرق، وراح يهاجم بكل ضراوة جنود دي بالش، كانوا

رغم كثرة أعدادهم يتفرقون أمامه ويقعون في الكمائن التي أعدها لهم، لم يكن والدك يرغب في احتلال أرض ولا الحفاظ على مكان، فقط كان هدفه تشتيت شملهم، وإبراز أننا قادرون على الرد في كل مكان، يومها دخل فرج بن فرج على والدك قائلًا: كأنني أتعلم منك، وظننا أن والدك سيحرص على استبعاده، لكنه قام واحتضنه قائلًا: نحن جميعًا رجل واحد، نحارب عدوًّا واحدًا، هكذا قال يومها، وهكذا أخضع ابن فرج وجعله يحارب كما لم يحارب من قبل، حتى إنه كسر بفرقة صغيرة جيش المركيز دي بالش، وطارده حتى ألمرية من مكان إلى مكان.

كانت الأخبار قد وصلت بانتصارات ابن أمية لملك إسبانيا فيليبي الثاني، فانتفض من على كرسيه ممزقًا الرسالة التي في يده: سأحاربه بنفسي. هكذا صرخ فيمَن حوله، لكن مستشاريه رفضوا أن يخرج على رأس الجيش، قائلين إن البشرات جبال وعرة، والموريسكيين شياطين تهيم في الجبال، ويمكنك أن ترسل أخاك غير الشقيق خوان على رأس الجيش، فإن انتصر فقد انتصرت، وإن انهزم فيمكنك تدبير الأمور، فتراجع فيليبي الثاني وأصدر قراره بتولية أخيه قائدًا عامًّا على جيوشه في غرناطة، فاستقبله الرئيس ديسا على أبوابها بالأطفال والأرامل قائلًا: هذا ما حصدناه من صمتنا على الموريسكيين. لكنهم ما إن عقدوا مجلس حربهم حتى اختلفوا ما بين أن يكملوا الحرب أو يطلبوا الهدنة، وكان دي بالش أكثر الراغبين في الأخيرة، قال إن الأرض أرضهم، وإنهم ذوو طريقة غريبة في الحرب، فهم أقرب إلى الموت منهم إلى الحياة، ولا قبل لنا بحرب مفتوحة معهم. لكن ديسا الذي لم يخض حربًا من قبل طالب

بتهجير أهل البيازين وكل مَن في غرناطة من الموريسكيين: وجودهم خطر، وابن أمية يتحين الفرصة لدخولها، ولن نأمن على أنفسنا والأفاعي تفح تحت جلدنا. بهذه الكلمات التي نقلتها عيوننا اختتم خطبته العظيمة ماسحًا الدموع عن مقلتيه، غير أن خوان لم يأخذ برأي هذا ولا ذاك، وأرسل إلى أخيه في مجريط أن يأتيه بآلاف الرجال، فناشد فيليبي البابا في روما كي يعلن الجهاد المقدس، وراحت الخطب النارية للقساوسة تلقى على الرؤوس في كل مكان، مرسلة بطلب النجدة إلى ملوك فرنسا وإيطاليا وألمانيا الذين جهزوا لفيليب آلاف المرتزقة كي يدفع بهم لأخيه في غرناطة.

لا نعرف من أين أتت لوالدك كل هذه الحنكة في إدارة الحرب، مستفيدًا من كثرة الإسبان التي أربكتهم، ومن غضب أهلنا في غرناطة، ومرسلًا للداي علي بالجزائر أن يمده بالرجال والسلاح، وإلى السلطان عبد الغالب السعدي طالبًا المدد، لكن السعدي كعهدنا به كان حسن اللسان قليل الأفعال، فنزل عبد الله بن جهور ذو الخمسة والثمانين عامًا بنفسه ليجمع المتطوعين من القرى، عرف كيف يحرك الصخر في القلوب حتى جمع جيشًا قسَّمه إلى فرق وجيوش أصغر، محددًا لكل منها قائدًا ومهامًّا، غير راغب في حروب القرى، ساعيًا بكل الحيل لجرِّ الإسبان بعيدًا عنها، معدًّا لهم الكمائن في الجبال والممرات، وفي كل مواجهة كانوا يخسرون، وكنا نربح أسرى وسلاحًا وقوة روح ومتطوعين وثوارًا، فانضمت لنا مارسية وألمرية وجبال طوميز ورندة والحانة ومالقة، وسيطرنا على المنصورة وواديها، وأخذنا منهم صيرون، وهزمنا

جيشًا كبيرًا دفعه خوان بقيادة حاكم بسطة، فأخذنا منه حصون أرية وبيرة وأرجبة، لكن سهمًا غادرًا فاجأنا جميعًا وأصاب والدك، سهمًا من بيننا لم نعرف صاحبه، ولم نرغب في تفرقة مَن جمعهم بنفسه من قراهم بتخويننا لهم، فكفكفنا دموعنا، وعدنا نبحث عن قائد جديد للجيش، وكنا نظنه سيكون فرج بن فرج، لكننا وجدنا السلطان ابن أمية يصدر قراره بأن يكون محمد بن عبو هو القائد من بعد والدك.

20

فوجـئ مـراد باتصال في العاشـرة صباحًـا، لـم يكن يصحـو إلا على الثانيـة عشـرة أو الواحـدة ظهرًا، فهـو لا عمل له إلا تفقـد الأحداث عبر النـت وقنـوات التلفزيـون وميـدان التحرير، وفـي النهاية يكتـب تقريره اليومـي ومـا يجول فـي ذهنه من خواطـر أو هواجس، ثـم يرفق كل ذلك بالصور ويرسـله إلى راشـيل، في هذا اليوم أخذ الاتصال يتوالى من رقم مجهـول، وكلمـا أغلق الخط عاد مـن جديد نفس الرقـم للاتصال، حين أمسـك الهاتف بحنق مقررًا لعن المتصل أيًّا كان فوجئ بصوت راشـيل، قالت إنها في مصر وتريد رؤيته، نهض من سريره وارتدى ملابسه وذهب يبحـث عنهـا في بهو الفنـدق الكبير، لم تمضِ لحظـات حتى وجد رجل الأمـن يخبـره أنها تنتظـره في المطعـم على النيـل، وأشـار بإصبعه نحو فتاة ذات شـعر أسـود وبشـرة بيضاء وتفاصيـل وجه متناغمـة، رحبت به ثم انشـغلت بمحادثـة أغلقت بعدها الهاتف تمامًا، سـألها: «منذ متى؟»، قالت: «كان عليَّ أن أنتهي من بعض الأعمال قبل أن نلتقي».

نظر بعينيه فرأى أنهما يجلسان في عمق النيل، بينما المياه تكاد تجري من تحتهما، سحره المشهد الذي لم يرَه من قبل، علقت راشيل على دهشته: «لدينا مفاتن ولا نستمتع بها». أشعرته كلماتها أنها واحدة من أبناء المحروسة، وظل للحظات يحاول أن يخفي غضبه من عدم اتصالها به فور وصولها القاهرة، وجعلها حديثها العملي تبدو في نظره كآلة لا تعرف المشاعر، حين سألته عما جرى بينه وبين أستاذ التاريخ ألقى بنظره إلى الأرض قائلًا: «أكاد أعترف أنني مصاب بالتهيؤات»، حينها أطلقت ضحكة أنثوية رائعة، فنظر إليها مندهشًا، هي بدورها شعرت بالحرج وتشاغلت بالبحث في حقيبتها عن وردة بنفسج قائلة: «لا أعتقد أن الأمر هذيان أو تهيؤات، لكنه بالفعل ليس رئيس الدار، فمثل هذه المؤسسات لا يحكمها موظف حتى وإن كان في الواجهة بدرجة نائب وزير، ولو أنك فكرت قليلًا لعلمت أنه رجل أمن، وأنك الذي أعطيته طرف الخيط بيديك على سلم دار الكتب»، بدا أن مراد نفسه لم يكن راغبًا في الخروج من وهم المرض الذي استراح إليه، فراح يؤكده لنفسه سائلًا: «فمن أين علم أن اسمك راشيل لويس بلاس إنفانتي»، رنت من جديد ضحكة أنثوية على المنضدة التي خلفه، فألقى بنظره ليرى فتاة في العشرين مسترخية لهمسات عجوز يدغدغ أذنيها، نبهته راشيل بطرقة من أصابعها: «مواقع التواصل الاجتماعي لعبة كبرى في يد رجال الأمن، وشركات الاتصال ليست بعيدة عن أيديهم».

كانـت كلماتهـا مرتبـة ومنطقية إلى درجـة أربكته: «علـى أية حال لم أعد أريد الوقف ولا غيره»، هذه المرة رنت ضحكتها هي، وامتدت يدها بمجلـة بها صـور للوكالة التي تعمل بها: «مؤسسـة كبـرى»، هكذا قالت وهي تشـير إلـى الصور، موضحة أنهـا ناضلت حتى أقنعتهـم هناك بفتح مكتب في القاهرة، ولاح في ذهنه ما يجري من أحداث في مصر وتونس وليبيـا والأردن والبحرين واليمن، فابتسـم دون أن يعلّق، هي بدورها لم تعلق على ابتسامته ودخلت فيما أرادته: «لقد رشحتك لإدارة المكتب»، فتحولـت ابتسـامته إلى مزيج من الاسـتنكار والدهشـة والفـرح، قال إنه لا يحمـل كارنيـه النقابـة، «لقـد تدبرنا الأمـر»، هكذا ردت وهي ترسـم ابتسامة عريضة على وجهها، فراوغها من جديد: «لست صحفيًّا وأنا آخر مَن يمكنك الاعتماد عليه»، حينها ألقت إليه المفاجأة الأخيرة: «سـنكون معًـا في مكتـب واحد، أنت المديـر وأنا المديـر التنفيـذي، فرصة لنبقى أكبـر وقـت معًا»، جاءت جملتها الأخيرة مشـمولة بغمـزة عين واضحة، فلـم يجد أمامه سـوى الخجل، ولـم يعرف بمَ يجيبهـا، هي أيضًا لـم تنتظر ردًّا، ووضعـت يدها في حقيبتهـا لتخرج رزمة أوراق خضراء: «عليك أن تتعامل مع نفسك كمدير لمكتب وكالة كبرى».

كانت هذه أول مرة يتقاضى فيها مبلغًا ماليًّا كبيرًا، حينها شعر بالخوف وضرورة العودة بأسـرع ما يمكن إلى البيت، حين وصل أغلق على نفسه غرفته محاولًا تهدئة توتره، بعدها قرر أن يشـاهد فيلمًا يشغله عن التفكير فيمـا ينبغـي عليـه، لا يعرف كيف اشـتمَّت الجـدة رائحتـه فخرجت من

غرفتها لتجلس بجانبه كقط أليف، وما إن ظهرت شخصية رجل قعيد على الشاشة حتى قالت: «هذا الرجل يذكرني بجدك حبيب»، لم يستطع أن يفصل نفسه عن حديثها، فهي لم ترَ يومًا حبيب الله، وهو لم يسمع يومًا أنه كان مقعدًا، فنظر إليها وقد ارتسمت على ملامحه الدهشة، فابتسمت: «هو لم يكن مقعدًا لكنه كان مصابًا بالجذام، وضعته زوجته وأبناؤه في غرفة أعلى البيت، وجعلوا له فيها صنبورًا ومرحاضًا، ونافذة صغيرة يلقون منها إليه بالطعام، فعاش سنوات لا يقترب منه أحد، ولا يرى وجه أحد، حتى سمِّي بأبي جذام». جذبته الحكاية بعيدًا عن الفيلم، فألقى بسمعه نحوها منتظرًا أن تكمل، لكنها صمتت وشردت بذهنها كما لو أنها تتذكر الأحداث من بدئها: «حين تقاعد من البحرية منحه الباشا الكبير جفلكًا بمئتي فدان على مقربة من كفر الدوار، فتزوج من درية ابنة عمه إبراهيم بن إسماعيل، وحملها في موكب كبير إلى هناك، حيث أقام قصرًا من ثلاثة أدوار، واستخدم محاسبًا وخولي أنفار، وانشغل بالزراعة وحفر الترع والقنوات عن بقية أهله، حينها كانت درية قد وضعت له ثلاثة أولاد وبنتين، وقالت إنها تريد أن ترى أهلها، فركب جواده وحملهم في كارتة بصحبة اثنين من الخفر، غير أنه ضل الطريق إلى المحروسة، وبحث عمَّن يدله في الظلام فلم يجد سوى رجل مسرع بجواده، فهمَّ خلفه ينادي عليه، حين توقف له وجده ملثمًا فلم يرَ معالم وجهه، وحين سأله عن الطريق إلى المحروسة قال: سأدلك عليها على أن تجمع أهلك ليقيموا معك في أرضك بكفر الدوار. فتعجَّب من طلبه، وسأله عمَّن يكون ومن أين يعرف أهله، حينها التفت إليه قائلًا: أنا جدك

عبد الله بن جهور، واتبعني كي أدلك على الطريق، فحمل زوجته وأولاده وخدمه وظل يسير على مسافة منه لا تطول ولا تقصر، لا صمت فيها ولا كلام، فقط همس ريح يحمل نواحًا مكلومًا في الثلث الأخير من الليل:

فَلَئِنْ تَسُمْنِي الحَادِثَاتُ، فقد أرَى   للجفنِ، في العضبِ الطَّريرِ، ندوبَا
وَلَئِنْ عَجِبْتُ لأنْ أُضَامَ، وَجَهْوَرٌ   نِعْمَ النَّصِيرُ، لَقَدْ رَأيتُ عَجِيبَا

حين وصل حبيب إلى القاهرة، جمع أبناء جديه موسى وإسماعيل سائلًا عن بقية الأهل، فقيل. منهم مَن هاجر ومنهم مَن قضى نحبه، قال: وكيف حال مَن بقي منهم، ضحك إبراهيم: بارت التجارة، وساءت الأحوال، وصرنا نجلس في البيت بالأيام من كثرة الديون، فربت حبيب كتفه قائلًا: لا عليكم، أريدكم أن تأتوا معي، هناك أرض تبحث عن زارعيها، وقصر ينتظر ساكنيه، وقد آن للموريسكيين أن يجتمع شملهم. فأخذ إبراهيم يطلب من أبنائه وأبناء عمه أن يتركوا بيوتهم وأعمالهم ويذهبوا مع حبيب الله، لكن أبناءه قالوا للناس إن زوج أختهم سيبدأ في تجارة كبيرة ويبحث عن شركاء له، وأخذوا يجمعون من الناس أموالًا على تجارة لا وجود لها، ولم يكن أبناء إسماعيل على علم بذلك، فقالوا لإبراهيم إنهم سينتظرون في محالهم إلى أن تتحسن الأحوال مع القناة التي أمر الخديوِ بحفرها، فأخذ سليمان بن إبراهيم يلح عليهم بترك ما لديهم والهجرة إلى كفر الدوار قائلًا: إذا كانت الحياة كما يقول حبيب

فنبقى معه، وإن كانت غير ذلك تركناه وعدنا لأعمالنا، فحملوا مفاتيح بيوتهم على صدورهم وفي ضفائر شعورهم وأبلغوا حبيب موافقتهم، حينها شعر الأخير أنه نفذ وصية جده، ومع شروق الشمس كان ركبهم قد عبر شبرا الخيمة، فأرسل الخفر الذين معه إلى عماله في كفر الدوار كي يجهزوا سكنى تليق بأهله، وإحضار عربتين أو ثلاث لحملهم، لكن الذين دفعوا أموالهم بالأمس لشراكة حبيب الله في تجارته وقفوا على أبواب الموريسكيين المغلقة، وتساءلوا فيما بينهم حتى تأكدوا أنهم وقعوا في شرك أعده لهم أبناء إبراهيم، فنهضوا من فورهم إلى شيخ البلد صارخين، فما كان منه إلا أن أخذهم إلى حكمدار المحروسة، ذلك الذي أرسل ضابطًا بصحبة خمسة جنود في الطريق المؤدي من المحروسة إلى طنطا لإعادتهم، كان إبراهيم قد رأى أن أبناءه معهم مال، وأنهم يفكرون في شراء أرض كأرض ابن عمهم، فلما سألهم من أين؟ قالوا أخذنا حقوقنا من الناس حيلة وذكاءً، فتشاجر معهم وعلا صوتهم حتى أوقف حبيب عربته ليصلح بينهم، وما إن علم بما فعلوه حتى اغتمَّ في نفسه؛ لأنهم استخدموا اسمه وضيعوا هيبته بين الناس، ولم يعبروا قليوب حتى كان عسكر الحكمدار قد لحقوا بهم، وما كانوا بحاجة للشجار أو الجدال بعدما أخبرهم حبيب الله باسمه ورتبته، وأخرج لهم صك الشكر من إبراهيم باشا على جهده في قيادة فيلق البحرية أثناء حروبه بالشام، وصك ملكيته لجفلك المئتي فدان من والده محمد علي، فأدى له الضابط التحية معتذرًا: لكنني أنفذ الأمر. فغضب حبيب وصرخ

فيه: خذ هذا الصك وعد به إلى قائدك، قل له إن حكمدار البحرية حبيب الله عطية بن إبراهيم يبلغك أن أموال الناس عنده، فأخذ الصك وعاد بجنده.

كانت الرحلة قد توترت أجواؤها، وظلت درية تخفف عن زوجها وهو يقول: خسرت بسببهم سمعتي كقائد عظيم. حين وصلوا إلى طنطا كان مولد السيد البدوي لم يبقَ على ليلته الكبيرة غير يوم واحد، فأصروا على حضورها قائلين: إن غدًا لناظره قريب، فاستأجر لهم حبيب خيمة أنزلهم فيها، وتركهم لينام في الكارِتَّة بعيدًا عن شجارهم، غير أنه رأى في منامه كأن أغرابًا أغاروا على أرضه، فظل ليلته مستيقظًا لا ينام، وما إن ظهرت بشائر الصباح حتى جمع أهله ليخبرهم بما رأى، فقالوا: محض أحلام، لكنهم مع تعامد الشمس على الرؤوس جاءهم أحد الخفرين اللذين ذهبا بالأمس ليعدا مكانًا لإقامتهم، قائلًا إن الأعراب طردوا العبيد من الأرض، ووضعوا أيديهم عليها قائلين: هذه أرض آبائنا، وما انتزعها الباشا الكبير إلا غصبًا ليعطيها لرجاله، حينها قال سليمان: «نستمتع الليلة بالذكر وغدًا نتدبر الأمر، فما حدث قد حدث»، وفي الصباح قال أبناء إسماعيل إنهم ليس عليهم ديون لأحد، ولم يكونوا راغبين في السفر، وبيوتهم وأعمالهم في المحروسة تنتظر عودتهم إليها، وعوَّل حبيب على أبناء إبراهيم، لكنهم فاجأوه بأن ما معهم من مال يكفيهم لشراء أرض وبدء تجارة جديدة، وحين ألح عليهم بأن أرضه أوسع وقصره كبير وأعداءه لا ظهر لهم، قالوا ما أدرانا أنها خدعة، وأنك حملتنا كي تضحي

بنا من أجل مالك الملعون، وحسم سليمان الأمر قائلًا: اذهب ورجالك وإنا منتظروك هنا، فإن استعدت الأرض ذهبنا معك. فما كان من حبيب الله إلا أن حمل أبناءه وتركهم باكيًا لائمًا على جده الذي أرسله لأناس لا يستحقون أن يعفر أي من خدمه قدمه من أجلهم، ولم يعرف أن حكمدار طنطا أرسل جنده في اليوم التالي ليجمع المتسكعين بجانب المسجد الأحمدي، فأخذوهم من بين مَن أخذوا، ولم يعلموا بمصيرهم حتى وجدوا أنفسهم في قطار طويل من البشر ذاهبين للسخرة في حفر القناة.

21

مضى يومان ولم يعد فرناندو، لكن السلطان وصلته أخبار استخلاص مالقة، ونزول سفن الجزائريين بها، شهدنا فرحًا كبيرًا في أجاجير بالخبر، وطلب السلطان من الشيخ لوبيز بن عدول أن يصلي بالناس صلاة الشكر، فجمع النساء في جانب والرجال في جانب وكبَّر وابتهل حتى كلَّت أقدام الناس من الوقوف على الحصا، ولم يكن لي أصدقاء أعرفهم كي أنخرط في حديث معهم، لكن الناس كلما علموا أنني محمد بن عبد الله بن جهور كلما تزايدوا عليَّ بالسلام، حتى شعرت أن ابن عدول شملته الغيرة، فأخذني تحت إبطه قائلًا: «أين ضن والدك بك علينا؟»، فقلت إن والدي لم يضن على أحد، لكنه كان قد أرسلني للتعلم في طليطلة قبل أن تقوم الثورة، ولا أظنه كان يعلم أنها ستقوم كي يضن بي على أحد. ضحك الرجل ضحكة خفيفة وهو يقول: «إنك فتى محظوظ، فأنت الآن في مقام أمير، والدك كان الوزير وقائد الثورة، وابن عمك قائد الجيش، ولا أستبعد أن السلطان سيضعك في منزلة أخيه»، فقلت: «وأين أخوه إذن؟»، قال: «إنه سجين في غرناطة، فقد قبض الإسبان عليه وعلى أبيه

وأمه وأختيه، وضعوهم في السجن فور علمهم أن أخاهم هو السلطان».
قلت: «لعلنا نسمع قريبًا عنهم كل خير»، لكنه رد بملامح متجشمة: «لا أظن، فهم رهائن لدى الإسبان، وقد أضاع أبوك فرصة التفاوض عليهم»، هالني كلامه، وشعرت أن تحت الرماد نارًا، فسألته عما حدث، ردَّ وكأن الحزن يمزق كبده: «حين هزم رجالنا جيش حاكم بسطة وأسروه هو وزوجته وابنته، أمر والدك بقتله، ثم ما لبث أن نصح السلطان بالزواج من ابنته فاستجاب لنصحه، ولم يرسل للإسبان عارضا إخلاء سبيل عائلة السلطان مقابل إخلاء سبيل حاكم بسطة وأهله»، حين صاغ ابن عدول كلماته على هذا النحو شعرت أن القشرة الصلبة التي على جبال البشرات ليست سوى طبقة من جليد، وأنها مع سطوع أول شمس عليها ستذوب جارفة معها كل شيء، عزفت عن الكلام مع الرجل وعدت إلى خيمتي ساهمًا حتى جاءني فرناندو، كان عائدًا من لدى ابن عبو منهكًا بعدما أطلعه على كل ما جرى في رحلته، فقد أمدنا الجزائريون بعشرين ألفًا من المتطوعين، جميعهم مزودون بالسلاح، وبعضهم لديه بنادق ذات تدريب خاص، فقذيفتها لا تحتاج إلى قوة في جذب الوتر لإطلاق السهم، لكنها تحتاج إلى دقة في النشان، قال إن البنادق متوفرة بكثرة لدى بني عثمان، ولديهم سلاح أقوى منه بكثير يسمونه المدفع، قذيفته تطيح ببيت كامل، وقد دكَّ به محمد الفاتح حصون القسطنطينية، واجتاح مدن أُورُبَّا حتى حدود روما، وحسم به سليم الأول حربه مع المماليك وأخذ منهم مصر، ولو أننا لدينا منه عشرة فقط لاجتحنا قشتالة نفسها.

في غمرة حماس فرناندو بأدوات الحرب الجديدة تذكرت ما قاله ابن عدول فسألته: «هل كان بإمكان أبي أن يفاوض الإسبان بحاكم بسطة وأهله في مقابل إخوة السلطان وأبويه؟»، وكأن ثعبانًا لدغه فانتفض من مكانه: «مَن قال هذا؟»، لم أُرِدْ أن أنثر بذور الخلاف بيدي فقلت: «سمعت بعض الصبية يهرفون بذلك». لكنه بغضب واضح قال: «دلني عليهم». ولم أستطع الحفاظ على هدوئي فصرخت فيه: «لا أعرفهم، ولو عرفتهم ما دللتك على أحد منهم، فلست جنديًّا لديك ولا قائدًا لاستطلاعك»، بدا من قسمات وجهه أنني قسوت عليه، فتراجع في ثورته ملطفًا الحديث: «يا بن عمي، أنت ما زلت حديث عهد بالمكان وما به من خلافات وإحن، هؤلاء يريدون أن ينشروا الفتنة، ووالدك لم يفعل كقائد عسكري غير ما هو جدير بالاحترام، نحن نموت بالمئات كل يوم، فلِمَ التفكير فيمَن هم في غرناطة، ولمَ إثارة النفوس بأن السلطان افتدى أهله ولم يفتدِ الآخرين، ومَن قال إن الإسبان تعنيهم حياة حاكم بسطة وذويه، هم لا يريدون سوى الخلاص منّا، وعائلة السلطان ليست سوى شوكة يشهرونها في ظهره من حين لآخر، ومَن فتح هذا الباب ما يريد سوى أن يدخل ريح الشر على النفوس حتى إذا تمكنت عصفت بالجميع من على وجه الأرض».

كنت موقنًا أن فرناندو صادق فيما يقول، فطيبت خاطره وتركته يتسبح بالماء ورحت أتنسم الهواء خارج الخيمة، على البعد رأيت جماعة من العسكر بينهم نفر من قادتهم، لمحني من بينهم ابن عبو الذي

خـرج عن الدائرة ونـادى عليَّ، هرولت إليه فسـألني: «ألا تريد أن تلتقي السلطان محمد؟»، فرددت بحماس: «أنى لي ذلك؟»، فابتسم قائلًا: «ها هـو أمامك». ما إن اسـتدرت حتى رأيت رجلًا أقـرب إلى الطول منه إلى القصر في زي عسـكري تعلوه عباءة خضراء وقلنسوة خفيفة تشبه عمائم أهل المغرب، وجدته يمد يده بالسلام، فمددت يدي مقبلًا إياها. فأعجبه السـلام وخفة الانحناء فابتسـم: «أنت محمد؟»، قلت: «نعم»، قال: «إن أبـاك مـا زال يأتيني فـي منامي ليوصيني بـك خيرًا، ولو لم تأتنا لأرسـلنا فـي إحضارك مَن يقطع المسـافة بين البشـرات وطليلطة فـي يوم وليلة». للحظـة شـعرت أننـي أذوب خجـلًا أمـام كلمـات السـلطان، وحاولت تجميع نفسـي من شتاتها حتى قلت: «سـمعت في طريقي إلى هنا الكثير مـن الخيـر عن ثورتكم، ورأيـت النصارى يرتعدون مـن نجاحكم، حتى صاروا لا يخشـون فـي أحلامهم إلا ظهوركم لهم». بعدهـا انتبه الجميع لمـا قلـت فتجاوبوا مع ابتسـامتي بالضحك. فقـال السـلطان: «أنبأنا ابن عبـو أنك تتحدث عدة لغـات، وأنك تتقن فنون العمارة والرسـم، وأنك ذو خـط حسـن»، قلـت: «نعـم»، قال: «فإنـي أريـدك كاتبًا لـي، فكاتبي لا يعرف من القشتالية ما يمكنه من النجاة بحياته»، كدت أطير من الفرح، ونسيت لحظتها طليلطة ومَن ينتظرونني بها، وجدتني أقول: «إنني جندي من جنود مولاي». فنظر إليَّ مبتسـمًا: «كما لو أن عمَّنا عبد الله بن جهور بعث شابًّا». ثم أردف: «أوَلم يكن وزيرًا في مثل سنك؟»، فهززت رأسي: «بلى»، قال: «فادعُ الله أن يستتب أمرنا، وتترسخ قواعد ملكنا، كي تكون وزيـرًا لدولتنا، كمـا كان والدك وزيرًا لبني الأحمـر». ولم يفتح الله عليَّ

بشـيء سـاعتها، فوقفت متفكرًا مـا بين الماضي الذي لـم أره، والحاضر الذي لم أشـارك فيه. وأدرك من بريق عيني وحمرة وجهي ما جعله ينهي حديثه: «غدًا أراك في مقر عملك الجديد».

كان لوقـع الخبـر على أذن فرناندو مفعول السـحر، فقـد أخذ يرقص فـي الخيمـة كمـا لو أنـه سـيزف على عـروس جديـدة، أخذ يدلـي على مسـامعي حزمة مـن النصائح قائـلًا: «من اليـوم لا تختلط بأحـد ولا تُبدِ رأيًا في شـيء، فالناس ترى كل مقرب من السـلطان كما لو أنه السـلطان ذاتـه، وإن رأى شـيئًا ظنـوا أنـه رؤية السـلطان، مـن الغد تطلـع على كل مـا كتـب من رسـائل من قبـل كـي تعـرف أسـاليبها وديباجاتهـا وتتذكر تواريخهـا ووقائعهـا، ودائمًـا مـا تكـون بينـك وبيـن السـلطان مسـافة، فـلا أنت قريب منه فيرتاب من تجسسـك عليه، ولا أنـت بعيد عنه فيظن إهمالـك لـه، واحفظ أدواتك في مكان لا يعرفه سـواك، فإن ضاع شـيء منها فأخبر السـلطان من فورك به، وإن سـألك عن شـيء فردك على قدر السؤال؛ لأن سوء المآل من فرط المقال».

ظل يوصيني ليلتها كأم تحادث ابنتها ليلة الزفاف، حتى شـعرت أنني لم أعد قادرًا على الانتباه، فرحت أغير مجرى الحديث سـائلًا عن حبابة وزهـراء، طفا على وجهه الحزن، ولزم الصمت حتى ندمت أنني سـألته، لكنه في النهاية قال: «لا بد أن تعرف، فهذا حقك»، ثم أغلق عينيه ليذرف دمعة سـالت مـن تلقائها في كفه: «كان الإسـبان قد اشـتد أزرهـم علينا، وفقدنـا القدرة على التواصل بين الأقاليم، ولـم يكن فرج بن فرج يعرف

أن عليه إدارة الحرب وليس العراك فيها، وكان والدك رئيسًا للوزارة وملازمًا للسلطان في كل خطواته، حين رأى دي مندوجر الفوضى تدب في خطوطنا، تحول من وادي الإقليم إلى أجاجير، مرسلًا بالوسائط لإقناع السلطان بتسليم نفسه مقابل العفو عن الجميع، شعر يومها والدك بأن الخطر أصبح قريبًا، وأنه يريد السلطان أكثر من غيره، فنصحه بترك خيمته والانتقال لمكان آمن، كان ابن عبو قد تولى قيادة حرس السلطان بعد ماركوس الزمار، فقال إنه بنى بيته كما يبني اللصوص بيوتهم في الجبال، وهو الآن أأمن مكان، وأن أهله سيكتمون أمره، وأهل قريته سيدافعون عنه حتى آخر نفس لديهم. وأعجب والدك بالفكرة، وزيادة في الأمر أمر السلطان وحرسه أن يتواروا في زي النساء، وأمر النسوة أن يخرجن معهم في موكب للعزاء، وقادت حبابة والزهراء وزوجة السلطان المسيرة بالصبية والأطفال من أجاجير إلى مشينة في منتصف الليل، لكننا لا نعرف من أين وصل الخبر إلى دي مندوجر، فسحب جيشه متوجهًا إلى مشينة، وكالعادة حرقوا البيوت وقتلوا كل مَن وجدوه أمامهم إلى أن وصلوا إلى بيت ابن عبو، ولما لم يجدوا غير النساء والأطفال أخذوا في إعمال السيوف فيهم حتى صرخت إحداهن: يا عبيد الصليب تقتلون الصبية ولا تحفظون عرض النساء، والله إن نعل ابن عبو لأحب إلى الله من وجوه السفاحين. وكان قائد هذه الفرقة من المدجنين، فأمر بوقف القتل وسبي الموجودات، ثم أخبر دي مندوجر بما قالت، مستنتجًا أنها إما زوجة السلطان أو زوجة أيٍّ من مساعديه، فأمر مندوجر بتعذيبهن إلى أن يعترفن بمكان ابن أمية، ووضعوا لهن صلبانًا على الأشجار وأخذوا

في ضربهن، وكانت ريحانة حاملًا فلم تحتمل التعذيب، ونزفت حتى فارقت الحياة على صليبها، بينما أُخذت زهراء والباقيات إلى سجن غرناطة لاستجوابهن، فلما رأى ديسا كثرة مَن في السجون خشي من ثورتهم، فسلسلهم في جماعات وأرسلهم إلى قشتالة لينظر فيليبي الثاني في أمرهم بنفسه».

بكيت تجاوبًا مع فرناندو، رغم أنني لم تكن لديَّ قدرة على البكاء، فتوقف عن بكائه وأخذ يواسيني: «إننا في ثورة، وكلنا رهن الموت، وما الموت بمحزن، لكن العذاب على وجه الأرض من أجل أن تحظى بهذا الموت لهو الأشد قسوة على القلب». نظرت إلى فرناندو ورأسه الذي بدأ يتلون بالشعر الأبيض مستبعدًا أن تكون هذه كلماته، قلت لنفسي لعله سمعها من والدي، أو ربما ظهر له كي يرشده إلى الصواب مثلما ظهر لي، شعرت أن حزن فرناندو لم يكن على مقتل زوجته وضياع جنينهما فقط، وربما لأجل ما حدث مع زهراء في طريقها إلى قشتالة، حين سألته عن زوجة السلطان وابنهما، قال: «قُتلوا مع مَن قُتل»، مسحت عيني ونظرت إليه مندهشًا: «وكيف نجا السلطان وابن عبو؟»، لاح شبح ابتسامة ضعيفة من بعيد في عينيه وهو يقول: «هذا الملعون ابن عبو لم يكن سوى قاطع طريق في يوم ما، بنى لنفسه بيتًا على ثقب يؤدي إلى مغارة في الجبل، يخرج منه ويدخل فيه دون أن يعلم به أحد، فلما هاجم الإسبان بيته أخذ السلطان من يده ودخلا الجبل، وظلا ثلاثة أيام مختفيين حتى جلا الإسبان عن المكان، فخرج ليجد القرية تنتشر بها رائحة الجثث المتحللة، ولم يكن أمامه سوى أن يحضر الزيت ليرشه على البيوت والجثث مشعلًا النيران في كل شيء كي لا ينتشر الوباء بيننا».

22

رفـض مـراد العمل في وكالـة لا يعرف الكثيـر عنها، قائلًا لنفسـه إنه ليـس في حاجـة لتحمل مسـئولية أكبر مـن قدراته، أو الدخـول في أمور لا يعرفهـا. ومـن ثم قـرر أن يعـود إلى نظامـه القديم، حيث يسـتيقظ في الظهيـرة ليتنـاول فطـوره، ثم ينزل لارتشـاف قهوته السـادة على المقهى المجـاور للبيـت، لـم يكن هـذا المقهـى أكثر مـن منضدة ودكة خشـبية اسـتأذن صاحبهما نـور الصعيدي الجـد رفيق في وضعهمـا بممر البيت كي يسـتريح عليهما العاملـون في بناء مول علـى أرض الحديقة القديمة لبيـت الموريسـكي، مع اكتمال البنـاء تزايدت المناضد والكراسـي التي يؤمهـا مختلـف أنـواع البشـر، ولـم يكن لمـراد أو الجـدة جنـى أن يلغي أي منهمـا مـا أذن بـه رفيـق، حيـن جلس مـراد في مكانـه المعتـاد وجد شـخصًا يجلس قبالتـه على نفـس المنضدة قائـلًا: «أريدك»، رفـع عينيه عـن الجريدة فوجد نفسـه أمام أسـتاذ التاريخ أو رئيـس دار الكتب الذي ذهـب إليـه ولم يجـده، وقبـل أن يفتح فمه قـال الرجل: «سـأخبرك بكل شـيء حين تلحق بي في ميدان التحرير»، بعدها نادى على عامل المقهى

وطلب منه شيشة تفاح أخذ يطلق منها عدة سحب دخانية متعجلة، ثم دفع حسابه وغاص بين البشر المتدفقين في نهر الشارع الواسع، لا يعرف مراد ما الذي جعله يطيع تعليمات الرجل بكل هذه الدقة، فقد أنهى قهوته وترك المقهى متجهًا من فوره إلى الميدان، بالقرب من الكعكة الحجرية وجده ممسكًا لافتة تطالب بدماء الشهداء في ماسبيرو ومحمد محمود، وقبل أن يخرج ثورته المكبوتة وضع الرجل يده في جيبه مخرجًا رخصة عمله كمقدم في أحد الأجهزة الأمنية رفيعة المستوى، كانت عليها صورته واسمه ورتبته وخاتم النسر الكبير، فأعادها إليه متسائلًا: «ما الأمر؟»، وبصوت هادئ أجابه الرجل: «نريدك في مهمة»، نظر إليه مراد مندهشًا من الثقة التي يتحدث بها، لكن أستاذ التاريخ الذي يعمل رجلًا للأمن طرق على كتفه: «من الصعب الحديث أمام الناس، يمكنك أن تأخذ المترو إلى محطة سراي القبة، هناك ستجد حديقة صغيرة، انتظرني في وسطها».

حين خرج مراد من محطة المترو وجد ممرًّا على جانبيه عدد من الأكشاك في حديقة صغيرة، لا يعرف من أين ظهر له أستاذ التاريخ فاصطحبه إلى واحد منها قائلًا للواقف في الكشك: «سأقوم بعملك»، فرد عليه الأخير بتحية شبه عسكرية ثم اختفى بين العابرين في الممر، لم يكن هناك كراسي للجلوس عليها، فعدل المقدم من صندوق بيبسي مشيرًا لمراد بالجلوس وهو يقول: «حمد الله على السلامة»، فرد الأخير بدهشة: «الله يسلمك»، لكن رجل الأمن أوضح: «على سلامة راشيل»،

وعمـلًا بمنطـق الصدمـة والرعـب قـرر المقـدم أن يطـرق الحديد وهو ساخن: «نحن على علم بكل شيء». غير أن مراد لم يفاجأ ولم يندهش، وربما شعر بارتياح كبير لطريقة اللعب على المكشوف، فرد بآلية شديدة: «منـذ متـى؟»، وكأن الرجل قد أعجبته ثقة الموريسـكي في نفسـه، فقرر أن يكـون على نفـس الدرجة من الحياد: «منذ أعطيتني ملف الوقف على سلم الدار، لم يكن في ذهني شيء، لكنني حين طالعت ما فيه شعرت أن ثمة شيئًا ما خلفه، فقررت أن أعرف مَن أنت وما الذي تريده من البحث عـن وقف مات منـذ نحو مئتي عـام، فرحت أتابع رسـائلك واتصالاتك وحركتـك اليوميـة، وزادت الريبـة لدينـا بمجرد ظهور اسـم راشـيل في رسـائلك، زادت الشـكوك أكثـر حين علمنـا بمجيئها قبل سـقوط النظام بأيام، استـدعيناك عسـى أن يكـون لديك ما يفيـد، غير أن الثـورة حالت دون لقائـك، وحين جددنا لك اللقاء وجدتك مشـغولًا بأهلك وما جرى لهم، وكدنا ننسـى الأمر لولا أن راشيل فاجأتنا من جديد بطلب ترخيص لمكتـب وكالة إسـبانية»، كان مراد ينصت وكأنه يتعلـم كيف يعيد ترتيب الأوراق، موقنًـا أن عليـه إعطاء شـيء فـي مقابل ما يأخذ، قـال إن كل ما يعرفـه عنها أنها موريسـكية من أصول مغربية، وقـد عرضت عليه مؤخرًا إدارة مكتـب الوكالة بالقاهرة، لكنـه حتى الآن غير متحمس للأمر طرق المقـدم علـى ركبته: «لكننـا نريدك أن توافـق». حينها نظر مـراد في عين محدثه بغضب، لكن الأخير قال: «هذه مهمة لا خيار لك فيها».

كان صاحـب الكشـك قد ظهر في الأفق فهمـس المقدم في أذن مراد ضاحكًا: «ما رأيك في زيارة لبيت جدك الملتزم؟!»، في البدء اعتبرها مراد

نوعًا من الإشـارات السـرية التي ينبغي عليه أن يتفهمها من الآن، فنهض مـن مكانه كجنـدي يلبي أمر قائده، لكن رأسـه ظل مشـغولًا بالعديد من التسـاؤلات، وما إن استقلا التاكسي حتى سـأل مرافقه ساخرًا من نفسه: «كيـف أقنعتني بأنك أسـتاذ للتاريخ؟»، فضحك المقدم: «لسـت أسـتاذًا للتاريخ لكنني حاصل على الدكتوراه فيه»، لكن مراد لم يصدق، وقرر أن يختبر محدثه سـائلًا عن معركة الملوك الثلاثة، فابتسـم المقدم في هدوء قائلًا: «إنها معركة فاصلة فيما يعرف بالتاريخ الوسيط والتاريخ الحديث، اسـمها موقعة وداي المخازن، كان الإمبراطور سيباسـتيان قد وصل إلى سـدة الحكم في البرتغال، وداعبته الأحلام بأن يوسـع حدود مملكته في إفريقيا، مسـتغلًّا الخلاف الذي دبَّ بين السـعديين في المغرب، فقد لجأ إليه ملكها السابق محمد المتوكل كي يساعده في مواجهة عميه عبد الملك وأحمد المنصور، فأمده بالسلاح والرجال حتى فرًّا من أمامه مستنجدين بالخليفة العثماني، وكان الأخير يحلم أيضًا بضم المغرب إليه مثلما فعل في تونس والجزائر، فأمدهما بخمسـة آلاف مـن الترك ليعيدا الكرة على المتوكل منتزعين منه فاس التي حكمها المنصور، ومراكش التي حكمها عبـد الملـك، وكانت كل منهمـا مملكة وحدها، ولم يجـد المتوكل أمام ملاحقتهمـا له سـوى اللجوء إلى سـبتة التـي يحتلها الإسـبان، ومنها فر إلى طنجة التي يحتلها البرتغال، مسـتنجدًا من جديد بسيباستيان، هنالك رأى الأخيـر أن الأرض قـد مهدت بما يكفي، ويمكنـه الآن أن يضع يده على المغرب كاملًا، فجهز اثني عشـر ألفًا من البرتغاليين، وأرسـل للبابا

في روما طالبًا بركة النصر في حرب صليبية جديدة على الشرق، أرسل الأخير في ملوك أورُبا كي يعاونوا سيباستيان، فجاءه من الإيطاليين ثلاثة آلاف جندي، ومن الألمان مثلهم، ومن الإسبان عشرين ألفًا، فحملهم جميعًا ومعه كل أفراد أسرته ونبلاء بلاطه على ظهر ألف مركب أبحرت من لشبونة إلى لاكوس عام 1578، ثم مر بطنجة آخذًا المتوكل معه إلى أصيلة، ومرسلًا لعبد الملك السعدي في ملاقاته، فرد عليه الأخير: لقد أظهرت شجاعة فريدة بخروجك من بلادك إلى أرضنا، فإن ظللت على ما أنت فيه فإنك نصراني شجاع، أما إن تراجعت فإنك لا تزيد على كونك كلبًا عوى ثم جرى. ثم تحرك عبد الملك بجيشه من مراكش إلى محلة القصر الكبير، مرسلًا لأخيه أن يلتقيه بجيشه هناك».

توقف المقدم عن حديثه لينظر مبتسمًا في عيني مراد، فتجاهل الأخير ابتسامته وأخذ يستحثه على الإكمال، فتنهد المقدم متطلعًا لواجهات المباني من النافذة المجاورة له ثم عاد يقول: «كانت البرتغال في ذلك الوقت أقدم الممالك الأورُبية وأقواها، وكان جيشها في تلك المعركة أكثر من ثلاثين ألف مقاتل، بصحبتهم أربعون مدفعًا كبيرًا، بينما كانت دولة السعديين تعاني من الانقسام والحروب الداخلية، غير أن السعديين جمعوا عددًا مماثلًا لمقاتلي جيش سيباستيان، كان من بينهم موريسكيون وأتراك وجزائريون وبرابرة ومغاربة، وفي صحبتهم ثلاثون مدفعًا كبيرًا، إلا أنهم كانوا أكثر معرفة بأرضهم، فلما وصل عبد الملك إلى محلة القصر الكبير أرسل لسيباستيان: لقد قطعت لملاقاتك ست

عشـرة مرحلة، فهلا قطعت لملاقاتي مرحلـة واحدة؟ ورغم أن المتوكل نصـح سيباسـتيان ألا يترك أصيلـة الواقعة على البحر ليدخل بجيشـه في البـر قاصدًا محلة القصـر، إلا أن إمبراطور البرتغال غرَّه ما معه من قوات فقـرر الذهـاب إلى محلة القصر، ولم يكن من سـبيل للوصـول إليها غير جسـر صغير على نهر يدعى وادي المخازن، فعبره معسـكرًا بجيشـه في موجهـة جيش عبـد الملك وأخيـه، فلما جـنَّ الليل قام المغاربة بنسـف الجسـر من خلفهـم بمدافعهم، ثم ركـب عبد الملك متغلبًـا على مرضه فـي الصباح كي يسـتحث رجاله علـى القتال، بينما نهض القساوسـة في جيـش سيباسـتيان ليذكروا الجنـود بأن البابا قد غفر لـلأرواح التي تزهق في الحروب المقدسـة، وفي النهاية دوت الطلقـات إيذانًا ببدء المعركة، فهجم عبد الملك بجيشه من الأمام، بعدها مال أحمد المنصور بمن معه علـى مؤخرة جيش البرتغال، مشـعلًا النار في العربـات الحاملة للبارود، فانفجرت مزهقة آلاف الأرواح ومربكة صفوف البرتغاليين، هنالك شـن عبد الملك هجومه وقتل من البرتغاليين الكثير، حتى إن سيباستيان نفسه فقـد الجنود المكلفين بحراسـته، فلجأ إلى حقل تين شـوكي كي يحتمي به، لكن المغاربة تبعوه وقتلوه، ثم رفعوا رأسه على الحراب إيذانًا بانتهاء المعركـة، فلمـا رأى المتـوكل ذلك فرَّ بجـواده نحو الشـمال، لكن جثته طفت بعد أيام على سطح نهر وادي المخازن، فأُخذت وسُلخت وملئت تبنًا، ثم طيف بها في أرجاء البلاد، أما عبد الملك فقد اشتد عليه المرض حتـى توفي بعد أيـام من نصره، تـاركًا ملك فاس ومراكـش لأخيه أحمد الذي تلقَّب بالمنصور، وسرعان ما وجَّه جيوشه نحو ممكلة سونغاي في

إفريقيا ليعود بقوافل محملة بالذهب منها، فأسـماه الناس أحمد الذهبي، أما البرتغال فقد فقدت إمبراطورها وكل نبلائها وأفراد أسـرتها الحاكمة، حتـى إن فيليبـي الرابع ملك إسـبانيا بذل جهدًا في الوصول إلى شـخص ينتمـي إلـى هذه الأسـرة كي يعينـه إمبراطـورًا للبرتغال، ويعلـن دخولها فـي اتحاد مع إسـبانيا تحت هيمنته، لتفقـد البرتغال فيما بعـد العديد من مسـتعمراتها وهيبتها في حروب إسبانيا مع الهولنديين فيما عرف بحرب السنوات الثماني، لكن الشعب البرتغالي لم يصدق كل ذلك، وظل ينتظر عـودة إمبراطوره المنتصر كـي يعيد للبلاد هيبتها واسـتقلالها، أما اليهود الذين وعد سيباسـتيان بذبحهم أمـام قصره حال ضمه المغرب إلى ملكه فقـد جعلوا يـوم وفاته عيـدًا لهم، أطلقوا عليه اسـم: بوريم سيباسـتيانو، يحتفلون فيه بنجاتهم من الذبح، مغلقين محالهم غير آكلين في هذا اليوم سوى التين الشوكي، داعين في صلاتهم لسلطان المغرب، وناثرين القطع النقدية على الأرض ليلتقطها الأطفال كهدايا نزلت لهم من السماء».

حين وصلا إلى ميدان السـيدة عائشة نزلا من التاكسي وأخذا يسيران في اتجاه معاكس لقلعة محمد على، وما لبثا أن اتجها يسارًا ليجدا بيتًا بدا كما لو أنه حصن عظيم، له سـور حجري يزيد ارتفاعه على خمسة أمتار، ونوافذه عالية وكبيرة تكاد أخشـابها تتسـاقط من فعل الشمس والبرد بها، ظلا يسـيران أمامه حتى وجدا لافتة كبيـرة معلقة على بابه الصغير مكتوبًا عليها: «وزارة الآثار ـ مشـروع ترميم بيت الملتزم»، دام سيرهما أكثر من أربـع أو خمس دقائق حتى نهاية السـور الحجري، فوجـدا مقهًى صغيرًا

كتب صاحبه بخط كوفي متآكل على واجهته: «مقهى الملتزم»، فجلسا يحتسيان الشاي ويتبادلان سحب الدخان والحديث عما جرى لأعقاب الموريسكيين في الأندلس.

23

منـذ الصباح الباكر، ويبدو أننـي لم أنم في انتظار هذا الصباح، ذهبت إلى خيمة السلطان، كان حرسه قد علموا بأمري فأدخلوني من باب قصير يجعل المرء ينحني رغمًا عنه، وجدت السـلطان جالسًـا على أريكته كما لـو أنـه لم ينم، ألقيت عليه السـلام فـرد مقطبًا: «اجلس واكتب مرسـومًا بتولي حسين جودت قيادة المتطوعة من الجزائر والأتراك، على أن يكون تابعًـا لقائـد جيشـنا محمد بن عبو فـي جميع ما يعمل». جلسـت وكتبت نسـختين من المرسـوم وذهبت إليـه فأخرج خاتمه من ثقـب في الأريكة ومهرهما به، ثم نادى على قائد حرسـه فأعطاه إياهما: «تسلم واحدة إلى ابـن عبـو والثانية لقائـد المتطوعة»، لم أعـرف ما الذي ينبغـي عليَّ فعله بعد ذلك، فجلسـت في مكاني منتظرًا أن يملي مراسيم أخرى، لكنه أخذ ينـادي علـى قائد حرسـه كي يحضـر له فلانًا أو يرسـل إلى فـلان، رأيت في عيـون القادة تذمرهم من الانحناء أثناء الدخول والخروج، لم أسـأله عن سـبب ذلك، لكن ما إن التقيت فرناندو حتى همسـت له بملاحظتي، فأوضح أن ابن أمية رأى أن بعض القادة حدثتهم نفوسهم بالزهو والغرور بعد الانتصار على الإسـبان، فقرر أن يكسر هذا الزهو بهذا الباب، فصرنا

ننحني في الدخول أو الخروج. قلت: «منذ متى ذلك؟»، وضع وجهه في الأرض: «منذ أن نال والدك الشهادة». ساد الصمت بيننا قبل أن يفاجئني. «لكن بعضهم يقول إن ابنة حاكم بسطة هي التي أشارت عليه بذلك كي ينحني الجند له كما كانوا ينحنون أمام أبيها». فاجتاحني العجب: «وما علاقتها؟»، فأوضح لي أن السلطان تزوجها بعدما أسلمت. وبدا لي أنه غير قادر على تبرير الأمر، لكنه خفض من صوته قائلًا: «لا تخبر السلطان بما تسمع، ولا تخبر أحدًا بما تراه». ولم أستطع أن أستوعب فكرة عزل السلطان في خيمته على هذا النحو، فراح يوضح أن العلاقة بين السلطان ووالد زوجته الأولى ليست على ما يرام، وكلاهما يرتاب الآن في الآخر، فالسلطان لم ينسَ له تفاوضه على تسليم حبليش لينجو بنفسه، بينما القادة الذين لا تربطهم به أية علاقة قربى لم يثنهم التمثيل بجثث أهليهم عن إكمال الجهاد ومواجهة الإسبان بشجاعة حتى ماتوا في أرض المعركة كما حدث لشعبان ميكيل. شعرت يومها أنني لم أعد محمد الذي بات في هذه الخيمة بالأمس، فقد راحت الأمور تنجلي أمامي أكثر، وصارت الحياة أكثر تعقيدًا مما يمكن للمرء أن يتعاطف فيها مع أحد، وأيقنت أن الغليان الدائر أسفل البشرات أوشك على تفتيت قشرة الجليد التي نعيش عليها، لكنني أزحت كل ذلك عن رأسي منتهيًا إلى أنني لا بد أن أخوض التجربة، ولا أنهزم من اللحظة الأولى، فأخون أهلي وتاريخ أبي.

لم تمضِ أيام حتى بدأ الأتراك والجزائريون يحتكون بحرس السلطان، وسرت همسات أن الأخير يرغب في الاستغناء عن بعض حرسه والاعتماد على الجزائريين، ولا أعرف مَن كان مصدر هذه الإشاعات، فالرجل لم

يبُح بذلك وربما لم يكن يعرف به من الأساس، في النهاية صدر قراره بأن يتوجه ابن عبو بقوة الأتراك والجزائريين إلى البنيول، وأن يرابط هناك حتى تصله أوامره، ولم يبلغه بشيء عن خطته أو الهدف من الذهاب إلى هناك، فشعر ابن عبو أن الهدف هو استبعاده عن دائرة اتخاذ القرار، وربما يصدر قريبًا قرار بتنحيته عن قيادة الجيش، كانت هذه الفترة واحدة من الفترات القليلة التي تهدأ فيها الحروب، حتى إن الأخبار التي كانت تجيئنا من غرناطة كانت تتحدث عن شقاق وخلاف في مجلس الحرب الإسباني، وربما اقتنعوا بعدم قدرتهم على الحرب، لكن حدثًا خطيرًا ومفاجئًا وقع، ولا نعرف مَن الذي تفتق ذهنه عنه، فقد بحث النصارى في أوراقهم الغائبة متذكرين أنهم لم يقتلوا والدي السلطان وإخوته، فنقلوهم من السجن العام إلى سجن محاكم التفتيش، وأخذوا في الضغط عليهم ليكتبوا للسلطان بالاستسلام، ووجدنا والد زوجة السلطان الأولى يأتيه بالخبر، ولم تمضِ ساعات حتى وجدنا رسالة من والده يستعطفه فيها أن يرحم شيبته وعرض أمه وأختيه، وأن يتفاوض من أجل إنقاذهم من الموت في كل لحظة، كانت الرسالة مصحوبة بثياب لهم وقد بدا أنها مزقت من فرط التعذيب. سأل السلطان: «ما العمل؟»، فاقترح الوزير ديبكو أن يرسل لهم رسالة تهديد واضحة، فلدينا مئتا أسير قشتالي، ويمكننا ذبحهم في ليلة واحدة، وإلقاء رؤوسهم من على جبال البشرات حتى تصل إلى خوان على سرير نومه. فأعجبت السلطان اللهجة التي تحدث بها ديبكو فصرخ في وجهي: «اكتب بالنص ما قاله، وأضف عليه إن تركوهم تركناهم، وإن حدث لأي منهم مكروه فلا يسألون إلا أنفسهم عن دماء إخوتهم». فكتبت بالقشتالية كي لا تترجم أي من مفردات

الرسالة خطأ، ومهرها السلطان بخاتمه مرسلًا بها إلى خوان، لكن الأخير لم يرد، وبعد أيام وصلتنا رسالة من والد السلطان تخبرنا أنه بخير، ولم يتعرض لتعذيب ولا أذى، وعلى السلطان أن يتفاوض من أجل مَن في السجون. فتحير أمرنا، ولم نعرف أي الرسالتين كاذب، لكن السلطان اتخذ قراره بنقل معسكره إلى لوشر، وترك الوزير دييكو في أجاجير يدير الأمور، حين استقر مقامنا هناك أمرني أن أكتب رسالة لابن عبو كي يبدأ هجومًا بمَن معه على ميناء مطريل، مستحثًّا إياه أن يفعل ذلك في أسرع وقت قبل أن ينتبه الإسبان، لكنني حين أنهيت الرسالة وجئته ليمهرها بخاتمه لم يجده، فاغتمَّ كما لو أن في الأمر دنو أجله، ثم استغفر الله وطلب من صائغه أن ينحت له خاتمًا جديدًا بنفس الرسم والشكل قائلًا: «إلى أن نخبر قادتنا بتغيير خاتمنا». ثم ختم الرسالة وأوصى قائد حرسه أن يختار أمهر رجاله وأأمنهم، لكن الرجل مرَّ على أجاجير، فسأله الوزير عما معه، فأخبره أنه يحمل رسالة لابن عبو والجزائريين، بعدها اختفت الرسالة والرجل، وذهبت أخرى عليها خاتم السلطان لابن عبو تأمره أن يجرد المتطوعة من سلاحهم، ثم ينقض عليهم في الليل برجاله لينهي عليهم، فقد أصبحوا عبئًا على الثورة، كانت الرسالة واضحة وكلماتها حاسمة، فارتبك ابن عبو في مصدرها، ولم يعرف ما الذي ينبغي عليه حيالها، وشك أن لوثة أصابت السلطان، فترك حسين جودت برجاله في البنيول وعاد بالرسول إلى لوشر ليراجعه في أمره، كان قائد الحرس قد دهش من حضور ابن عبو وعدم تنفيذه للهجوم، فاستوقفه ليحدثه في مخالفته أمر السلطان، فما كان من ابن عبو إلا أن صاح فيه: «أي سلطان هذا الذي يخون أهله ودينه؟»، وهمَّ بدخول الخيمة فقبض عليه الحرس

واحتجزوه، وحين اشتبك معهم ضربوه على رأسه ففقد الوعي وحمل إلى خيمة بعيدة، بعدها أبلغوا السلطان بما حدث، وشعر الأخير أن مَن سرق الخاتم بدأ يوقع بينه وبين رجاله، فأرسل في طلب الوزير دييكو ليستشيره فيما حدث، لكن الوزير لم يأتِ، بينما أتى حسين جودت ومَن معه من الجزائريين والأتراك، فسألوا عن ابن عبو حتى علموا أنه مقبوض عليه، وكانوا قد علموا بأمر الرسالة ورفض ابن عبو تنفيذها، فقالوا: «نريد من السلطان أن يخبرنا بشأن رسالته». فأقسم الأخير أنه أرسل لهم ليهاجموا ميناء مطريل ولا يعرف شيئًا عما يقولون، وأن خاتمه ضاع منه آن انتقاله من أجاجير إلى لوشر، ثم نادى عليَّ لأدلي بشهادتي أمامهم، فأقسمت ثم كررت ما قاله، لكن حسين جودت ومَن معه لم يصدقوا، وقالوا: «لم تعد من الآن سلطانًا علينا»، ثم استداروا خارجين من خيمته، فتركت السلطان ورحت أبحث عن ابن عبو، دلني بعض الحرس على مكانه، كان قد استعاد وعيه لكنه غير قادر على الاتزان في السير. قلت: «أدرك السلطان، لقد خلعه حسين جودت ومَن معه بلا ذنب، فخاتمه مسروق والرسالة مدسوسة عليه». ورحت أسنده في الذهاب لخيمة ابن أمية، لكن الحرس كانوا قد اشتبكوا مع المتطوعة، فأخذنا نصرخ فيهم بالتوقف حتى أشار جودت لرجاله بالكفِّ عما يفعلون، واتفقنا على الدخول للسلطان كي نعرف كيف زورت رسالته، ومَن الذي سعى لقتل الثورة وفقدان الموريسكيين ملكهم، لكننا ما إن دخلنا الخيمة حتى وجدنا السلطان جالسًا في مكانه، وخيط من الدم الكثيف ينزف منه، نظرنا فإذا بخنجر مسموم في عنقه، وعبثًا حاولنا نجدته، فقد كان أمرًا مكتوبًا، ولم يكن أمامنا سوى التفكير فيمَن سيخلفه.

24

استيقظ مراد على رنات متوالية لجرس الباب، وكأن الحرب قد نشبت فجأة، نهض متخبطًا بين الحوائط والأثاث، حين فتح وجد راشيل أمامه وخلفها شخص طويل يحمل جملة من الحقائب البلاستيكية الكبيرة، لم يعرف كيف يعدل من قسمات وجهه الغاضبة: «صباح الخير»، هكذا قالت راشيل بدلال شديد، وقبل أن يفتح فمه كانت قد طبعت قبلة على خده الأيسر هامسة: «مش هندخل؟»، وسرعان ما أزاحته جانبًا لتقطع الردهة المؤدية إلى الصالة وكأنها تعرف البيت عن ظهر قلب، انتبه مراد لوجود الشخص المرافق لها، والماثل أمامه في خشوع شديد، فرحب به مومئًا بالدخول، ما إن دخلا الصالة حتى انتبه مراد لقطع ملابسه المتناثرة على الكراسي وفي الأركان، فأخذ يلهث جامعًا إياها بحركات مرتبكة، بينما راشيل تكتم ابتسامة خفيفة تطل من عينيها، حين استأذنها في الذهاب للحمام دارت على جذعها برشاقة راقصة باليه. «خذ راحتك، أنا مشتاقة لرؤية كل جزء هنا»، وبمجرد اختفائه من الصالة أخذ الشخص المرافق يخرج جهازًا من حقائبه، وراح يوجهه نحو الأركان والجدران

والأسقف باحثًا عن شيء ما، حين خرج مراد من غرفته سأل بغضب عما يحدث، فردت راشيل بأن ذلك حفاظًا على سلامته، ولم يكن ذلك مقنعًا له، فجاءت نبراته بغلظة لم يتوقعها أي منهم: «لا أعتقد أن أمري يشغل أحدًا كي يتجسس عليَّ». هنالك انطلقت ضحكة مشبعة بالأنوثة والدلال: «ليس هناك أهم من عميد الموريسكيين لننشغل بأمره»، حينها شعر بالارتباك والحرج منقلًا نظره ما بينها وبين الرجل السادر في عمله كآلة لا تسمع ولا ترى، لكن راشيل خطفته: «أحضرت لك هدية»، ثم أخرجت من حقائبها ثلاث بَدْلات أنيقة، فابتسم بمزيج من السرور والدهشة: «ومَن أخبرك أنني سأوافق؟»، حينئذ دارت على مشط قدمها كراقصة باليه ثم نزلت براحتيها على كتفيه: «وهل يمكن لعميد الموريسكيين أن يترك ابنة عمته بلا سند؟»، أفقدته الجملة الأخيرة توازنه، حتى إنه شعر بانقطاع الكهرباء عن ذهنه للحظات، متفكرًا في صورة ابنة عمته التي سافرت منذ سنوات طويلة، لكنه لم يتذكر سوى طفلة بزي مدرسي تطارده في ردهة البيت كي يرسم لها سيدة في يوم عيد الأم.

انتبه من شروده على يدها وهي تجذبه للجلوس في شرفة البيت، مومئة لصاحب جهاز الكشف عن أجهزة التنصت بالانصراف، فحمل حقائبه وخرج كما لو أنه لم يكن موجودًا من الأصل. «أجَّلت كل مواعيدي اليوم من أجلك»، هكذا قالت وهي تخرج بعضًا من السندوتشات الصغيرة من حقيبة بجانبها، حين لمحت معالم الدهشة على

وجهه استرسلت: «هل تذكر حين أخبرتك أنني سأحكي لك في القاهرة عن اسمي ومَن أكون؟»، أومأ لها بالإيجاب في انتظار حل لألغازها المتواصلة، مسحت عينيها وعادت بالذاكرة إلى البعيد قائلة: «حين هاجر عمي عفيف وزوجته جواهر إلى لبنان التقيا برجل مغربي أقنعهما أن لديه مؤسسة إعلامية كبرى في أستراليا، وأنه بحاجة لشريك كي ينشئ محطة تلفزيونية بها، حينها انبهرت جواهر بالفكرة وأخذت تلح على عفيف للدخول في هذه الشراكة، ودون أن يريا شيئًا دفعا كل ما لديهما للرجل، لكنهما ما إن ذهبا إلى سيدني حتى وجدا أن المؤسسة ليست أكثر من جريدة محلية لا يسمع بها أحد، وبعد شجار طويل استسلما في النهاية لأن يتنازل الرجل لعفيف عن نصيبه في الجريدة، وظلا يكافحان ضد الدائنين حتى علما بوفاة أمي، يومها أقنعت عفيف بالعودة لمساومة جدي عليَّ أنا ووديع، وكانت المفاجأة أن جدنا رفيق لم يقبل بالمساومة ولم يرضَ بإحراجهما كمتسولين أمام العائلة، فمنحهما إيانا ومعنا نصيبًا وافرًا من تركته، ويبدو أن ما أعطاهما إياه كان مشمولًا بالبركة، فقد سددا الديون، ودبَّت في الجريدة الحياة، وسرعان ما تحولت من صيغتها المحلية إلى صيغة دولية، وصدرت في طبعة باللغة الإنجليزية وأخرى بالعربية، فوطدت جواهر علاقتها بعدد من رموز البعث العراقي، وصار عفيف من ألمع رؤساء التحرير، بينما عرفت جواهر بأنها المرأة التي تعشق المال والإدارة، لكن لهاثها خلف الأحلام التي لا تنتهي جعل عفيف يسقط فجأة، فكانت أولى مشكلاتها عقب رحيله هي البحث عن اسم كبير يصلح أن يكون رئيسًا للتحرير، ولم يكن هناك أفضل من لويس

بلاس إنفانتي، ذلك الذي ينتمي إلى أسـرة عريقة في السياسـة الإسبانية، فوالـده هو بلاس إنفانتي أبو القومية الأندلسـية، كان رجلًا ودودًا ومثقفًا كبيرًا وعلى علاقة واسـعة برجال السياسـة والاقتصاد في بلاده، لكنه بعد رحيل ابنته راشـيل زهد في كل شـيء وقرر أن ينفي نفسـه في أقصى بقاع العالم، هناك تعرف على عفيف وجواهر، واستعاده لكتابة مقال أسبوعي فـي الجريدة، فلما مـات عفيف ألقت جواهر بشـباكها عليه ليكون زوجًا ورئيس تحرير».

حيـن سـألها مراد عن شـقيقها وديع تنهَّـدت كما لو أنهـا مقدمة على القفـز في الجحيم، فظل ينتظرها حتى اسـتجمعت شـتات نفسـها قائلة: «كان عفيـف تميمـة السـعد فـي حياتنا، وبرحيلـه انفرط عقد كل شـيء، فجواهـر تزوجـت من صديقـه لويس، وصدام حسـين اجتـاح الكويت، وكانـت أسـتراليا من بين الـدول التي دخلت تحالفًا لطـرده منها، وانتهى الأمـر بأن العراقيين لـم يعد مسـموحًا بوجودهم، ولـم يعد بإمكانهم إبداء السخاء الذي كانوا عليه، وكان من الممكن للمؤسسة أن تستمر في عملها بـدون اللجوء إلى أحد، لولا أن جواهر كانت قد أدمنت أموال الآخرين، فاستعانت بالشـيعة ليكونوا بديلًا عن البعث، ولـم تمضِ شهور حتى أثار ذلك انتباه أمراء الخليج وخوفهم من أن تكون الجريدة منبرًا لمنافسيهم، وأمام سـخائهم غيرت جواهر قبلتها من الملالي إلى المشـايخ، وما كان للأمر أن يمر دون حساب، إذ انحرفت سيارتها عن الطريق السريع لتسقط مـن فوق الجبل، وكان وديع لحظِّه العثر هو الذي يقودها في ذلك اليوم،

كان الأمـر صدمة بالنسـبة لي، فلـم أتقبل فكرة موته بديـلًا عنها، ورحت أصرخ فيها بأنها آثمة، ولـم يكن أمامها سوى أن تودعني مصحة للأمراض النفسـية والعصبية كي تسـتريح مني، فأمضيت بها سـتة أشـهر لا يزورني سوى عمي لويس، هذا الذي شعرت أنه والدي الذي لـم أرَه، وأيقن أنني منحـة السـماء التي جاءت لتعوِّضه عـن ابنته التي ماتت فـي طائرة تحلق علـى المحيط، ظلـت صور وديع وعمي عفيـف تطاردني وأنا أصرخ في الجميـع أن جواهر هي التي قتلـت كل مَن أحبهم، ولن تصدقني إذا قلت لـك إن عذاباتـي لـم تنتـهِ إلا حينما رأيت جدنا عبد اللـه بن جهور، يومها أمسـكني بيده قائلًا: أنا العين الراعية لآل جهور، وآن لكِ أن تخرجي من هذا الظلام، فتركت له نفسي ونحن نسوح على قمم الجبال وفي السهول وبيـن الحدائـق والغابات، يومهـا رأيت وديع خلفه علـى جواده الأبيض باسمًا في وجهي وهو يقول: كل أمر بكتاب».

كانـت ناريمـان تبكـي كأنها تغتسـل مـن آلامهـا الطويلة، بينمـا مراد لا يعـرف كيـف يخفـف عنهـا أحزانهـا، فجأة طرأ علـى ذهنه أن يسـألها عـن المقر الـذي اختارتـه لمكتب الوكالة، فمسـحت دموعهـا ونهضت مـن مكانهـا قائلة: «هيا بنا»، حيـن وصلا إلى المكان وجـده فيلا صغيرة بحي المهندسـين، أبدى تعجبه من قدرتها على الوصول إلى مكان كهذا دون أن تكـون فـي القاهرة، فضحكـت بدلال على طيبة قلبـه قائلة: «كل شيء بالمال»، تمتم خلفها مؤمِّنًا على ما قالت، وترك أقدامه تتفقد غرف الصحفييـن ومراجعي الأخبار والمترجمين، وفـي النهاية قادته إلى غرفة

بهـا مكتب يليق بأمير: «ها هنا يجلس عميد الموريسـكيين ليتابع عمله»، هكذا قالت، لكنه ردَّ ساخرًا: «عميد الموريسكيين الآن جائع»، فضحكت ونـزلا يبحثـان عن مطعم يليق بالعمداء، حين سـألهما النادل عن طلبهما قالـت لمـراد: «أريـد أن أحتفل معك بالـذي أنقذني من المـوت»، فأومأ موافقًـا وهو يسـأل عمَّـا حدث، فأغـمضـت عينيها وتحدثـت بحزن يليق باعتراف على مذبح إله عظيم قائلة: «رأيت بعد خروجي من المصحة كم اتسـعـت الفجوة بين لويس وجواهر، فهـي لا تؤمن إلا بما في يدها، وهو لا يؤمـن إلا بما يراه في خياله، شـعر كلاهما أنه أخطـأ الاختيار، لكنهما أصـرَّا على اسـتكمال التجربة سـنوات يمثلان أمام النـاس أنهما زوجان متفاهمان، لكن اتهامات جواهر له الفشل والغباء كانت أكبر مما يحتمل، أنا نفسـي كنت أتسـاءل عن السـبب الذي يجعله يتحمل هذا السخط من قبلهـا، وبدا لي أنني كنت الأمر الوحيد الذي دعاه للبقاء كل هذا الوقت، كان يوقن أنني ابنته التي ماتت وبُعثت في دورة جديدة على هيئة جديدة، وكنـت أراه الملاك الذي كلفته العيـن الراعية بحمايتي، وما كان لجواهر أن تتـرك هذه العلاقة تمر بسـلام، فبحثت عن طريقـة للقضاء عليها، ولـم يكـن هناك أفضـل من تزويجي لأميـر عربي يدفع للجريدة بسـخاء، كان الرجـل يريدني بالفعل ولكن ليس كزوجة لـه، غير أنها قررت أن تصطاد عصفورين بحجر واحد، فتخرجني من رباط الأبوة الذي جمعني بلويس، وتضمن تمويلًا ثابتًا لا ينتهي، لكن لويس اعترض فقامت بطرده ليس من المؤسسـة فقـط، ولكن مـن حياتها، رأيتـه يعد حقائبه قائلًا: سـأعود إلى غرناطـة كي أموت فـي أحضان أجدادي. بعدها أعلنـت خطوبتي للأمير

رغمًا عني، ودفعتها حماقتها لنشر صورة لنا في الصفحة الأولى من الجريدة، فكان ذلك بمثابة الكارثة التي سقطت على رأسها، فقد غضب الأمير، ولم تستطع تكذيب الخبر، ولم تمضِ أسابيع حتى وجدنا جثتها مغمورة في الثلج على سفح جبل بمشارف سيدني، بعدها جاءني الأمير قائلًا: يمكننا أن نكون زوجين على طريقتي الخاصة. فقمت بطرده لتبدأ رسائل التهديد المتوالية لي، ولم يكن أمامي سوى الهروب إلى غرناطة حيث يقيم لويس، فدبَّر لي أمر بيع المؤسسة والدخول باسم ابنته راشيل في شراكة مع الوكالة التي نعمل بها الآن».

25

كان مقتل ابن أمية بالنسبة لي صدمة كبرى، فلم أكن أتصور بأي وجه من الوجوه أن يموت السلطان على يد رجاله، أيًّا كانوا وأيًّا كان الخلاف بينهم وبينه، اعتزلت الأمر ولم أخرج من خيمتي إلا للصلاة عليه والعودة إلى حيث أجلس في ركن يجلس أبي قبالته، وكأن كلًّا منا كان يبكي بصمته ضياع الدولة التي حلم أنها ستعيد للإسلام مجده، كان فرناندو يجيئني بالأخبار محاولًا إنقاذي من الغوص في العزلة، قال إن ابن عبو يريد أن يخرج الأمر من أيدينا ويعطيه للمتطوعين الجزائريين والأتراك، طارحًا أن يكون حسين جودت الأمير بعد ابن أمية، قال إنه عارضه رافضًا الدخول عليه في خيمته، متهمًا إياه بالجبن، قلت: «أليس الرجل بحزين على صاحبه؟»، قال: «كلنا مكلومون، لكنه الحلم، فهل نتركه ليضيع من أيدينا؟»، قلت: «ربما عافت نفسه المؤامرات والدسائس». فنظر إليَّ غاضبًا: «أترمي إلى شيء يا بن عمي؟»، قلت: «لمَ قُتل ابن أمية، ومَن قتله، ولمَ الآن؟»، قال: «لو كنت أعلم لكنت أول مَن يطيح برأسه»، وسحب سيفه من غمده فنظرت إليه متقززًا، فأغمده من جديد

قائلًا: «لو كنت تعتقد أن لي دخلًا فيما جرى، أو أنني أعرف سببًا لذلك، فقد ظلمتني». قلت: «فلِمَ الدفع بابن عمنا؟ ولمَ السعي لأن يكون بنو جهور هم ورثة بني أمية؟». قال: «كأنك تفكر فيما جرى قديمًا، لكن هل نجا الناس من الفتن بغير حكمة جدنا الحزم بن جهور؟ وهل حكم الحزم الناس بغير الشورى والعدل؟ وهل ترى سوى ابن عبو الآن أهلًا للأمر؟ وهل نبني بدمائنا ملكًا ثم نتركه للأتراك، وهل يفهمون معاناتنا كي يقفوا في وجه عدونا مثلما وقفنا وما زلنا واقفين؟»، كنت أسمع أسئلة فرناندو وأنقل وجهي ما بين وجهه ووجه أبي الصامت، كنت أريده أن ينطق بكلمة تدلني على الصواب، لكنه ظل صامتًا، كأن زوجته وابنته ماتتا للتو دون أن يثأر لدم أي منهما، أو كأنه عاد بذاكرته لترحيله من البيازين إلى البشرات، ليمنحه قس بغيض بها حق الحياة عبر التعميد بالماء، أو أنه يتفكر فيما هو آتٍ من ظلمات تتبعها ظلمات، فظللت صامتًا لا أعرف بما أجيب على ابن عمي، حتى تركني وخرج آسفًا، فنكست وجهي برهة من الوقت ثم انفجرت في صاحب الوجه الصامت أمامي: «لمَ لا تتحدث؟ لمَ جئت بي إلى هذا العالم المملوء بالقتل والغدر؟»، حينها رفع رأسه من على صدره: «كي تتعلم»، كان صوته أشبه برجع الصدى، حتى إنني تفزعت منه حين دوى حول أذني، وكدت أتوه عن نفسي وأنا أقول بحسرة: «أتعلم القتل أم الخيانة أم الصمت؟»، فرفع رأسه من جديد ودوى من حولي: «كل شيء بكتاب»، ثم وضع رأسه في حجره وغاب عني، حتى ساد الصمت طويلًا، ربما يومان أو ثلاثة،

دون أن أعـرف كـم ظللت أعاني من الحمى التـي هاجمتني، لكنني حين فتحـت عينـي وجدتني مدثرًا بأغطية لا حصر لها، شـعرت برائحة العرق في كل شـيء، ورأيت بقايا خرق وأعشـاب وأواني شراب، ودمت ما بين اليقظـة والصحو مخدرًا، أفتح عيني برهة ثم أتوه من جديد، حتى دخلت خيمتي صبية في الخامسـة عشـر من عمرها، كانت تظنني نائمًا، فأخذت تنظف الخيمة وترتب أشـياءها، ثم شـرعت تنفخ بفمها في شراب مغلي كي تبرده، بعدها دخل فرناندو وهرناندو الحبقي وحسين جودت ورجلًا عجـوزًا لا أعرفه، قالـوا: «أما زال نائمًا»، فردت عليهم باسـتحياء: «أظنه هكذا»، فاقترب العجوز مني ودس يده تحت إبطي فاقشعر بدني وفتحت عيني، فضحك قائلًا: «كأنه كان مسـتيقظًا». ورأيـت فرناندو يتقدم بلهفة نحوي ليحتضنني: «لم يبقَ لي سواك، فهل تتركني يا أخي وابن عمي؟»، وددت أن أقـول له إنني بخيـر، وددت أن أقول لن أتركك ما حييت، لكن الكلام كان ميتًا في فمي، فلم أستطع إخراجه ولا بلعه، لكن ثغري انفرج رغمًا عني، فتبسـم الجميع وهنأوني على السلامة، فرددت عليهم التحايا بطرفـات عينـي، وهتـف العجـوز في الصبيـة: «أطعميـه ما شـئتِ الآن، فلا بد من استعادته للحياة»، وهلل حسين التركي بصوته الجهير: «سأجيئه الليلـة بأرنب بري». لكن الحبقي أزاحه جانبًا: «هذه ابنتي هند، لو شـئت زوجتها لك الليلة». فسـقط الجميع من الضحـك قائلين: «كأنك تصطاد في الماء العكر زوجًا لابنتك».

فـي اليوم التالي اسـترددت جـزءًا من عافيتـي، فأطعمنـي فرناندو ما اصطـاده وطبختـه هنـد، «وجدتـه يترنـح بيـن الصخـور فترصدتـه حتى أوقعـت بـه هدية لك»، هكذا قال بفرح شـديد، سـألته: «ما هـو؟»، قال: «ظبي غرير، لو رأيته لاسـتحرمت أكله». فنظرت إليه متعجبًا، لكنه أدرك مفارقته فابتسـم قائلًا: «لكنه أشهى ما يأكله مريض مثلك». حينها رفعت عينـي مـن جديد إلـى وجهه المبتهـج: «كيف عرفـت؟»، قـال: «هل كنا سـنتركك تأكل ظبيًا وحدك ونحن نتضور من الجوع بجانبك؟»، فعلمت أنهم سهروا الليلة عليه، علمت أيضًا أن الأمس كان ليلة انتخاب ابن عبو أميرًا، فقد أقنع فرناندو حسين جودت أن ابن عمنا أحق منه بالإمارة، ولا ينبغـي شـق الصف بتقدمه لها على موريسـكي جاهد فـي الأمر من بدئه، فالموريسـكيون لـن يقبلوا أن يكـون أميرهم تركيًا. علمـت أن التفاوض انتهـى بـأن يعلن ابن عبو انضمامـه لآيالة الجزائر، حيـث علي داي الذي يمثل السلطان العثماني سليم الثاني القابع الآن على عرش السلطنة العلية في إسـطنبول، وأن ابن عبو وافق علـى الأمر، علمت أيضًا أن ابن مكنون والأرشـذوني رفضا أن يجاهـدا تحت راية الجزائريـين والأتراك، فأعلنا انسـحابهما من الجهـاد، مقررين مغـادرة الأندلس إلـى الجنوب، حيث ينتظرهما ملك السـعديين في المغرب، لكن فرناندو قال إنها الغيرة، فقد ظنا أن الأمر سـيقع في يد أي منهما، ولم يكمل حديثه حتى سمعنا بعض الأصـوات من خارج الخيمة، فنهض لينظـر الأمر، فإذا بالأمير محمد بن عبـو داخلًا في صحبة الحبقي وابن المليح والشـعبي وبولود، فانحنى له

فرناندو بالتحية، وكدت أنهض لاستقباله لكنه قال: «كما أنت»، وقبل أن أتحدث بشيء كان قد ألقى بنفسه جالسًا بجانب رأسي، قال: «أيها البطل أريدك، ثمة مكاتبات كثيرة تحتاج إلى ريشتك، وقد ولى أوان الدلال، فحمدًا لله على السلامة». هنأته على الإمارة ودعوت له بالتوفيق، فربَّت كتفي: «لا تتأخر علينا، فلن نتخذ قرارًا بدونك».

لم أكن أعرف ما الذي يتحتم عليَّ بعدما انتهى النهار والأمير يرغب في توقيع قراراته صباحًا ليذهب كل إلى عمله، حملت أدواتي وأوراقي ومنضدة صغيرة وسراجًا عامرًا بالزيت إلى خيمتي، وجلست طيلة الليل أكتب قرارات تولية ابن مليح قائدًا عامًّا على وادي المنصورة ومنطقة بسطة، والشعبي قائدًا عامًّا على البشرات وجبال شلير، وبولود قائدًا على ألمرية وأجوارها، وفرناندو قائدًا عامًّا للجيش، وحسين جودت قائدًا للأتراك والجزائريين، وفي النهاية كتبت رسالة لعلي داي في الجزائر، يخبره فيها ابن عبو بما استقر عليه الأمر في البشرات، ويدعوه لقبوله أميرًا على البشرات كإمارة تابعة لحكمه في الجزائر ولراية العثمانيين في الشرق، واستيقظت على صوت فرناندو يستعجلني بما كتبت كي يختمها ابن عبو بخاتمه، ويرسل بها رسله لينادوا في الناس بها، ثم أمر حسين التركي أن يفوض واحدًا من رجاله بقيادة جنده، ويذهب بنفسه لملاقاة علي داي ليحدثه عن حاجتنا إلى إعلان هذا الأمر على الجميع عبر مدد كبير منه بالسلاح والرجال.

كان ابـن عبو رجلًا جسـورًا، ويعلم حكمة الحـرب ومواطئ ضعف الرجـال، كان يعلـم أنـه يقود أمة تسـير على فوهة بركان سـينفجر في أي وقت، فدفع بالجميع إلى العمل مرسـلًا برسالة واضحة إلى الإسبان بعد مـوت ابن أمية، فنظم جيشًـا من عشـرة آلاف رجل لقنـص مدينة أرجبة، ونجـح الرجـال في ذلـك، وحاصـروا قلعتها مـن كل جانب، فاسـتنجد قائدها بنائب الملك وشقيقه غير الشرعي دون خوان النمساوي، فأنجده بجيش كبير تحت قيادة الدوق دي سياسة، لكن الرجال فطنوا إلى الأمر، وقطعـوا الطريق المـؤدي إلى أرجبة مـن لانجرون، وقنصـوا القلعة قبل تمكنه من تعديل مسـاره، ثم قنصوا غليرة، وحين جاءت من أشكر قوات دون خـوان استبسـلوا أمامها حتى شـتتوا جندها وأسـروا بعض قادتهم، فتوهجـت الأرواح التي خبت بموت ابن أمية، وأيقن الجميع أن ابن عبو قائدًا لا يقل أهمية عن سـلفه، فانتشـرت رايته على ملقة ورندة، وفتح ابن مليح حصن أرية، وأرسـل البشـارة بذلك للأمير، فأرسـل له بترقيته قائدًا عامًّا على المنصورة وبسطة وأرية.

قلـت لابن عبو. «ما الذي جعلنا نرفع راية الجزائريين على أرضنا؟»، فنظـر إلـيَّ: «لو أن والدك حي بيننا ما فعل إلا ذلك، فكنه الأمر في الإبقاء على الدولة وليس لون الراية، نحن نريد أن نبقي على دولتنا، وليس أمامنا غيـر القبول بشـرط السـاعة التي نحياها، ليـس أمامنا جـدار كبير نحتمي برايتـه سـوى بني عثمان، وأقرب طرف لهم مـن أيدينا هو علي داي، ولو هُزمنا فسـيقول الناس إن بني عثمان قد هُزموا، وهم لن يقبلوا بذلك؛ لذا

كان ينبغي توريط الكبار في الأمر، وقد حدث ما نريد، فها هو علي داي يرسل ستة آلاف جندي بسلاحهم، بينما الصدر الأعظم محمد الصقلي يمارس ضغوطه على السلطان سليم الثاني كي يؤجل فتح صقلية ويجرد جيشه للنزول على شواطئنا، ولو حدث هذا فإن الإسبان سيفقدون شرق الأندلس إلى الأبد، وربما تهددهم الموت في غرناطة ومجريط وقشتالة نفسها، وحينها الملك لله يا بن عمي، يهبه لمَن يشاء ويورثه مَن يشاء».

أعجبتني حكمة ابن عبو في توريط الكبار، لكن الأمنيات ليست كالواقع دائمًا، فبنو عثمان كانوا يعتبرون الأندلس خطوة لا بد لحدوثها من خطوتين أولًا، أولها أن تحرر تونس من قبضة الحفصيين التابعين للإسبان، وقد فعلها علي داي، فهيج الإسبان الذين كانوا يقرأون المشهد تمامًا مثلما يقرأه ابن عبو وآل عثمان، مدركين أن الأخيرين لم يبقَ لهما غير الاستيلاء على صقلية كي يدين لهما البحر بكامله، بعدها لن تجد سفنهما مَن يعارضها في الدخول إلى مجريط نفسها، ولم يكن أمام فيليبي الثاني سوى أن يجمع قادة حربه راسمًا أمارات الغضب الكامل على وجهه وهو يقول: «بنو عثمان دخلوا تونس، ويسعون الآن لإقامة حلف مع شارل التاسع ملك فرنسا، ولا نعلم إلى أي مدى سيقف البابا في صالحنا ضد هذا الحلف الذي يقصدنا، ولو حدث ما يريده الأتراك فلن ينجو أحد منا من القتل أو السبي للبيع في أسواق الرقيق، وأنتم هنا لا تستطيعون أن تنهوا على حفنة من المستضعفين الذين يبتهلون إلى ربهم كي يبقي على أرواحهم حتى يدركهم جند الترك ومددهم، فماذا

تنتظـرون؟»، لـم يكن لسـؤاله سـوى إجابـة بـدأت علاماتهـا تتضح في الوجـوه، فنظـم خوان قواته في ثلاثـة جيوش مزودة بالمدافـع والبنادق، كان أولها بقيادته، وثانيها بقيادة دي سياسـة، وثالثها منح قيادته لأنطونيو دي لونا بعدما عزل المركيز دي بلش من منصبه، في النهاية صرخ فيليبي الثانـي فيهـم الصرخة التي سـمعنا أصداءها هنا: «لو عدتـم بغير أن تنهوا على هذه الحفنة فلا تبكوا على قشتالة بعد ذلك».

انقلبـت الأمـور علينـا، وكان عنـاد الإسـبان أشـد قـوة مـن عنادنـا، وعزيمتهم أقوى من عزيمتنا، فاستولى دون خوان على غولجر في طريقه إلـى غليرة التي سـقطت بعد قصف لا يرحم من المدافع على أسـوارها، فقتـل كل مَـن وجده فـي طريقه قائلًا: «لا أريد أسـرى»، ثـم زحف على صيرون التي عرف ابن عبو أنها مقصدهم بالأسـاس، فأمدها بسـتة آلاف مقاتـل بقيادة الحبقي وابن المليح قائلًا: «لو سـقطت سـقطنا، ولو بقيت فالأمـل كبيـر في نجـدة بني عثمـان»، فأحكـم القائدان خطتهمـا، وكمنا خارج المدينة يترقبان مجيء دون خوان بجيشه المكون من عشرين ألفًا، بينمـا أحكم قائدها غلق مداخلها، فلما نصـب دون خوان مدافعه فوجئ بانقضاض ابن مليح عليه، فانتشر رجاله لمطاردته وقنصه، تاركين المدافع والعاملين عليها خلفهم، ففاجأهم الحبقي بمَن معه، وأشـعل فيها النيران فانفجـرت على نفسـها، وارتبك الجيش العظيم من الأشـباح التي تتقافز خفيفـا بين صخور الوديان والجبـال، وراحت المدينة تفتح أبوابها لصيد الإسـبان من الخلف، فسـقط منهم الكثير، وقُتل مربي الملك، وكاد دون

خوان نفسه يهلك في المعركة، لولا أن دوق دي سياسة ظهر في الأفق بجيشه، فكان أمرًا غير متوقع حتى للإسبان أنفسهم، فعادوا للتجمع من جديد، وفشلت المدينة في غلق مداخلها، وراحوا يطاردون الرجال خلف الصخور بالبنادق والمدافع، حتى هلك الجميع ولم يبقَ غير قلة تمكن الحبقي من الفرار بها، فعادت الغلبة للإسبان وسط فلول جيش مشتت في الجبال، راحوا يطاردونها حتى حصلوا على نجولة وبرشانة وكنتورية وتهالي، ووصلوا إلى سهل البدول في البشرات، بعدها عاد دي سياسة إلى غرناطة جامعًا مزيدًا من الرجال لمحاصرة البشرات من الغرب، ووصل دي لونا إلى جبال طوميز وشرق مالقة، وجمع دون خوان كل مَن وجده من الموريسكيين في غرناطة ومرجها، فأرسلهم في جماعات مسلسلة دون طعام أو شراب إلى قشتالة في الشمال، ومَن لم يمت منهم جوعًا أو هوانًا تلقفته أسواق الرقيق، ولم تُجدِ رسائلنا إلى الجزائريين أو العثمانيين نفعًا، فقد تمكنت حاشية السلطان من إفشال محاولات الصقلي بتأجيل فتح صقلية ونجدتنا في الشرق، ونشط علي داي في توطيد حكمه بتونس ضد فلول الحفصيين الذين أمدتهم إسبانيا بالسلاح والرجال، أما محمد بن غالب السعدي في المغرب فقد كان أكره ما على قلبه أن تقوم في الأندلس دولة تابعة لبني عثمان، فوقفنا وحدنا ننظر ضياع ملكنا حصنًا وراء حصن، وقطعة تلو الأخرى، وبعدما التقى جيشا خوان ودي سياسة في سهل البدول اتجها جنوبًا لقنص أندرش وكبيتة ومارو ونرجة وبرجة وقمارش، مرسلين برجالهم لابن عبو كي يفاوضونه على التسليم.

26

فوجـئ مراد بالطبيب الشـاب خارجًا مـن بيت الموريسـكي، لم يرد علـى ذهنه سـوى أن الجـدة أصيبت بمكـروه، حاول الرجـل أن يوضح لـه أنـه كان علـى مقربة مـن البيت فصعـد للاطمئنـان عليها ليس أكثر، لكـن مـراد لم يصدقه، وأصـر على عودته معه، كانت شـركة الاتصالات التـي اسـتأجرت فيلا حبيـب الله تفتـح ذراعيها على الشـارع لاسـتقبال عملائهـا، فتركاهـا واسـتدارا متخذيـن الممـر الجانبي، عابريـن من بين كراسـي المقهى الذي نشـأ على ضفـاف المول المجـاور للبيت، والذي كان يومًـا مـا حديقـة يهلو الموريسـكيون تحـت أشـجارها، حين وصلا إلـى البـاب الخلفـي تطلع الطبيـب إلى الأسانسـير ذي الحديـد الصدئ والتـراب المختلط ببقايا زيت قديم، أسـلما نفسـيهما لصعود الدرجات الرخامية وبسـطاتها الفسـيحة النائمة حول مجرى الأسانسـير، رأى مراد أسـراب القطط وهي تنزل أمامه في سـرب طويل متقطع، ودون رغبة منه فـي اعتـراض طريقها نظر إلى الطبيـب باحثًا عن أي من ملامح الدهشـة لرؤيتهـا، لكـن الأخير كان منشـغلًا بتحسـس أقدامه للدرجـات في بقايا

الضوء الشحيح المتسرب من منور الأسانسير إلى السلم، كانت الرطوبة قد أثقلت أنفاسه فتلمَّس أول بسطة أمامه ليجلس عليها قائلًا: «غريب أمر هذا البيت، كنت أظنه في صغري كنيسة ليس بها سوى قساوسة ورهبان»، توقف مراد في انتظار نهوضه قائلًا: «ما كان لأي من أجدادي أن يفكر في أن يكون قسًّا أو شيخًا، فجميعهم حكمهم الخوف الذي توارثوه في الدماء، لكن حبيب الله حين فكر في بناء بيت لهم أحضر مهندسًا إيطاليًا طالبًا منه أن يبني له بيتًا لا يغري أحدًا بالسطو أو التجرؤ عليه، قال: أريده أن يكون قلعة لأهلي من بعدي، لا يتركونه ولا يسكنون معي، لكنه يحميهم من غائلة الأيام. يومها اقترح عليه المهندس أن يبني له فيلا صغيرة تفتح أبوابها على الشارع الكبير، وخلفها بيت من خمسة أدوار، كل دور يحتوي على ثلاثة أجنحة، في نهايته غرفة واحدة للغسيل، وخلفه حديقة كبيرة يلهو فيها الأطفال والنساء، لكن مرور الأيام جعل الموريسكيين يتنازلون كل يوم عن جزء منه، فالحديقة باعها جدي رفيق لتصبح مولًا يغطي على البيت، وفيلا حبيب الله أجَّرتها جنى هانم لشركة اتصالات كي تنفق على البيت».

بدا للطبيب أنه أثار شجون مراد من حيث لا يدري، فلزم الصمت حتى وصلا إلى البسطة النائمة أمام شقة مراد، حينها لم يستطع أن يمنع نفسه من السؤال عن تركهم لهذا الأسانسير معطلًا طيلة الوقت، لكن مراد الذي ابتسم ساخرًا من رغبة الطبيب في معرفة كل شيء قال: «نطمئن على

جنى هانم أولًا»، ثم دفع الباب ليجد جدته بكرسيها المتحرك في انتظاره، كان وجهها مشرقًا وعيناها تلمعان بفرح جميل، فانحنى ليطبع قبلة على خدها مادحًا ذلك الجمال الذي لم تؤثر فيه السنون، لكنها بغمزة عين سألته عن سبب إحضاره الطبيب، ولم يجد تبريرًا لاصطحابه معه سوى أن قال: «وجدته بالقرب من البيت فأمسكت به ليشرب الشاي»، هزَّت رأسها غير مقتنعة بتبريره، ثم استدارت بكرسيها المتحرك نحو غرفة الخادمة العجوز كي تخبرها بوجودهما، ولم يمضِ الكثير من الوقت حتى ظهرت الأخيرة متثائبة وفي يدها صينية من الفضة المشغولة باللون الذهبي على المقابض والحواف، وضعت الشاي الأخضر أمامهما ووقفت بانتظار إشارته، فأومأ مراد لها بالعودة لغرفتها ثم نهض ليحضر منفضة السجائر من غرفته، حين عاد وجد الطبيب واقفًا وحقيبته في يده طالبًا الاستئذان في النزول: «أعتقد أنه لا داعي لوجودي الآن»، هكذا قال بوجه صارم حزين، لكن مراد الذي شعر أنه مدين باعتذار للرجل جذبه من يده ليجلس في مكانه قائلًا: «حين بنى حبيب الله هذا البيت لم يكن يعرف ما هو الأسانسير، ولو كان عرفه ما كان سيفكر فيه، ليس لأنه لم يكن مغرمًا بالأمور الحديثة عليه ولكن لأنه لم يكن يريد أن يختلط بالموريسكيين، لكن زوجته هانم التي ما أرادت أن يشعر أبناء عمومتها بتكبرها عليهم انتقلت بأبنائها لتقيم بينهم، جاعلة من فيلا حبيب الله مقرًّا للقاء الضيوف والغرباء، غير أن الروماتيزم هاجمها في سنواتها الأخيرة،

فأنشأت هذا المصعد الذي لم يُصب بعطل ولو لمرة واحدة، حتى نشبت الخلافات بين جنى هانم وبقية الموريسكيين على عمادة العائلة، ففوجئ الجميع بأنه يسقط بها وحدها في بئره السحيقة، لتخرج منه إلى المستشفى، وتعود بكرسي متحرك».

كان الطبيب قد استرخى في مكانه منصتًا باهتمام لمراد، ناسيًا أنه كان يرغب في النزول، وأن شايه قد فقد حرارته دون أن يرتشف منه شيئًا، فنبهه مراد مازحًا: «يُقال إن أكبر إهانة لموريسكي في بيته هي ألا تحتسي شايه؟»، فرد الطبيب على المزحة بمثلها: «لكن الموريسكي لم يحضرني من أجل ذلك»، أدرك مراد أن عليه الحديث مباشرة فيما أراد الطبيب فيه، فقال إن الجدة في الآونة الأخيرة دائمًا ما تتحدث عن الراحلين، ذاكرة كل تفاصيل حياتهم كما لو أنها كانت تعيش معهم، رغم أنهم رحلوا قبل ميلادها بزمن طويل، ابتسم الطبيب موضحًا أن هذا يسمى بفصام العجائز، فهم يرفضون واقعهم كمسنين موشكين على الرحيل، ويسعون لاستحضار طفولتهم والعيش في كل تفاصيلها، وبعضهم يتماهى في هذه الحالة حتى إنه يعتقد أن كل ما سمعه في صغره هو محض حقائق عاشها، رغم أنها لا تخصه ولا يعرف عنها الكثير. حاول مراد أن يوضح أن المشكلة هي حدوث أمور أخرى، وكاد يحكي له عن القطط التي تدخل غرفتها وتتحول إلى آدميين، لكنه تذكر أن الطبيب لم يرَ القطط التي كانت على السلم، وخشي من أن يخبره بذلك كي لا يتهمه بالجنون، فقرر أن يغير دفة الحديث سائلًا عن تخصصه، وبوغت بأنه حاصل على ماجستير

في الأمراض العصبية والنفسية، فراح يسأل بانزعاج عن متابعته لصحة سيدة مسنة وهو في تخصص بعيد عن حالتها، هنالك أحنى الطبيب رأسه وأخذ يتحدث في ارتباك عن أن أستاذه صنَّف شللها النصفي كمرض نفسي، وتعاملت أغلب تقاريره معها على هذا النحو، لكنه من الزيارة الأولى لها أيقن أنها تعاني فصام العجائز، ومن ثم فإنه يتابعها بين حين وآخر، وفي ظنه أنها الآن في طريقها للشفاء.

تنفس مراد الصعداء، فقد كان يظن أنه ورث عنها الخرف أو الجنون، فنهض ليحضر له شايًا جديدًا وهو يقول إن حبيب الله جمع الموريسكيين في هذا البيت واضعًا كل زوجين منهم في جناح، فلما وافته المنية جعل زوجته هانم وصية عليهم من بعده، تاركًا لها من الأبناء: سميح وفخري وسعيد وهيام، وكان عليها أن تدير تركة مليئة بالمتاعب، من بينها تلك التي تقاسمها حبيب الله مع الأعراب في كفر الدوار على أن يقوموا بحماية ما بقي له من جفلك الباشا الكبير، فلما انتقل إلى المحروسة كانوا يزرعونها ويؤدون ثمن محصولها إليه، لكن بوفاته تغيرت الأحوال، فقد طمعوا في ريع سنوي منها، ورأت هانم أن الموريسكيين يقيمون في المحروسة بلا عمل، فلم لا يذهبون لحراسة أرضهم وزراعتها، لكنهم رفضوا قائلين إنهم لن يفعلوا أمرًا رفض آباؤهم من قبل أن يفعلوه، ولو كان خيرًا لألزمهم حبيب الله بفعله، فلما أصرت على موقفها قالوا: «نقتسم الأرض وكل يفعل في نصيبه ما يشاء»، ولم يكن أمامها غير الرضوخ لطلبهم، فباعوا نصيبهم وتفرقوا في أعمال تخصهم، ولم يكن أمامها سوى أن تدبر أمرها

لتفتح محلًّا لبيع الغلال في روض الفرج كي تنفق على أبنائها الصغار، مشترطة على الأعراب أن تأخذ ريعها من أرضها غلالًا تبيعها، وبدا أن العين الراعية كانت في معيتها وضد الآخرين، فرَبَت تجارتها وخاب سعيهم، حتى صارت كلمتها هي المسموعة بينهم، فلا يقطعون أمرًا إلا بمشورتها، وإن حكمت بشيء نفذوه من فورهم، فزوَّجت ابنها سميح لهويدا ابنة نسيم بن موسى، وزوَّجت فخري لقدرية ابنة ناصف ابن إسماعيل، وحين قرر سعيد السفر للاستكمال تعليمه في أورُبا زوَّجته مديحة ابنة مجيد بن إسماعيل، وأصرت على سفرها معه، وزوَّجت هيام من راضي بن رؤوف بن عزيز بن موسى، وحين كبر الأحفاد أخذت في تربيتهم وتزويجهم مذكرة الجميع بما قاله الموريسكي لجدهم رزق الله في تغريبته: «ليس للموريسكي أن يتزوج بغير أهله»، فزوَّجت جمال بن فخري من لميس ابنة رامز بن نسيم فأنجبا عفيف وأسعد، وحين سمعت أن جنى ابنة فخري تعرف طالبًا في دار العلوم زوجتها من رفيق بن سميح، فأنجبت منه يوسف ونجاة، وظلت هانم رابطة العقد في البيت حتى ماتت قبيل الحرب الكبرى في أورُبا، فلما علم الموريسكيون بقرب قدوم الألمان إلى مصر خشوا على أنفسهم، فقرروا الفرار بحياتهم لبلاد بعيدة عن الحرب وآثارها، ولم يكن سميح من القوة بما يكفي لمنعهم، غير أنه ذكرهم بوعد العين الراعية لحبيب الله أن من يخالفه ويغادر بيته لا ينال إلا غضبه، لكنهم خالفوه، وتاهوا في بلاد لم يعد منها إلا صغارهم، وفتح الله على سميح حتى اشترى مصنعًا كبيرًا للزجاج، وراح

يديـره بنفسـه حتى هلك تاركًا الأمـر من بعده لرفيق، ذلـك الذي نال من اسـمه الكثير، فسعى للعيش على ضفاف الحياة برقة لا حدود لها، وزهد أطمـع فيه عفيـف بن جمال وزوجته جواهر، ومات تـاركًا العمادة في يد جنى ابنة فخري بن حبيب الله، التي جاءت محنتها كمحنة عمها سـميح، ولم تمضِ شهور على رحيل زوجها حتى سقط الأسانسير بها، ثم طالبها أبناء أعمامها بالتنحي عن العمادة لأي منهم، لكنها قالت: ما ألبستني إياه العيـن الراعيـة لا أنزعه لأحد، فتركوها وفروا كما فـرَّ آباؤهم من قبل في شتات طويل».

27

كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها مراد العين الراعية، كان في الحلم واقفًا في ميدان التحرير مع أصدقاء لا يتذكر أيًّا من ملامحهم، والميدان مزدحم بأناس تفد من كل اتجاه تحت رايات وأعلام متباينة، بينما الخيام التي نصبت على الكعكة الحجرية تضج بأعداد المصابين النائمين داخلها، وأبوابها مغطاة بلوحات تزينها خطوط يدوية هزيلة، وبلا مقدمات راحت السماء تمطر بمياه حمراء، والريح تشتد ضاربة جدران الخيام التي تدافع الناس لدخولها، فوقف مراد ينادي على أصحابه ألا يذهبوا معهم، لكن أحدًا لم يكن لينتبه لندائه، ولم يكن لصوته أن يخرج أبعد من جدران فمه، حين أصابه اليأس جلس على الأرض مستسلمًا للهزيمة التي حطَّت بصمت لا مثيل له على المكان، رافعًا نظره نحو عمر مكرم الواقف على منصته في شموخ باهر، وهو يشير بيده تجاه فارس ملثم يدخل الميدان من جهة جامعة الدول، شعر مراد أنه يعرف الجواد وصاحبه، وأن الأمر مألوف بالنسبة له، فظل جالسًا في مكانه حتى توقف الفارس أمامه: «ما بك يا مراد؟»، وأجابه

الأخير: «الخوف يا جدي». فضحك الفارس: «وكأننا ولدنا دون خوف يا بني؟!»، ولم يكن لمراد أن يسلم بأنه جاء من خوف إلى خوف، فأومأ برأسه ساخرًا، هنالك انحنى جده من على جواده العالي مهدهدًا: «رفقًا بنفسك يا بني، فلا هي تملك غير ما تفعل، ولا أنت تملك غير ما ترى». ثم اعتدل لاكزًا جواده بقدمه الطويلة فانطلق كالرمح في سهول واسعة على امتداد البصر.

قالت الجدة إن العين الراعية لا تجيء إلا ساعة الخطر: «فما الذي حدث؟»، هزَّ رأسه بحزن قائلًا: «لا أعرف، لكنني أواجه بعض المشكلات في عملي»، ربتت كتفه ثم حركت كرسيها لتحضر له عودًا من النعناع الأخضر، وما لبثت أن تركته لتذهب إلى مكانها الأثير بالشرفة. لكن مراد أخذ الأمر على نحو مختلف، فقد استقر بذهنه أن هلاوسه وتهيؤاته بلغت حدًّا أكبر مما يحتمل، فاتصل بصديقه الطبيب طالبًا لقاءه، كان الأخير مشغولًا مع مرضاه في عيادته بباب اللوق، فطلب منه أن يمر عليه بها، حين ذهب لم يجد أحدًا سواه، ولم يأخذ كثيرًا من الوقت حتى وجد نفسه مستريحًا على الشيزلونج مستمتعًا بسريان حقنة الاسترخاء في أعضائه، فأغمض عينيه وراح يغوص في أعماق نفسه، كان يسير في سراديب ملتوية ومظلمة ولا يرى فيها سوى ضوء ضعيف في نهايات أطرافها، كان يلهث في سيره من أجل الخروج من هذه الأنفاق المظلمة، كان يود لو أن بإمكانه العودة إلى حيث ترك الطبيب أمام الشيزلونج ليتوسل إليه ألا يدخله هذه الأنابيب الموحشة،

لكـن دوامـات من الريح الباردة كانت تدفعه نحـو الأمام، ولـم يكن أمامه سـوى الاسـتجابة السـريعة قبل أن تلحقه دوامات الصـراخ العالية الآتية من بعيد، في النهاية وجد نفسـه خارجًا من كهف جبلي يطل على سـهول واسـعة خضراء، وجد أناسًـا في طريقهم للكهف خوفًا من ملاحقة جنود وكلاب مدربة تطاردهم، لم تكن أعداد الراغبين في الاختباء كبيرة، وثمة دخان كثيف كان يشتعل في السهول المحيطة، وعلى البعد كانت أسراب كبيرة من البشـر تسير نحو الجنوب، أسـراب لم يكن قادرًا على حصرها ولا معرفة هويتها، لكنهم كانوا مستسلمين لعدد قليل من الخيالة المحلقين حولهم، كما لو أنهم كانوا مقرين بالجريمة التي يستحقون من أجلها هذا العقاب، حين قرر بعض الجند أمام الكهف جمع ما يستطيعون من عشب ليشـعلوه فـي المدخل توقع أن مصير مَن لجئـوا إليه ليس أفضل حظًّا من المقيدين في أسـراب متباعدة، كان بوده أن يعـود إلى الكهف ليخرجهم منه لكنه لم يستطع، حاول أن يمنع الجنود المتباهين بقسوتهم عن إشعال النيـران لكنـه لم يسـتطع أيضًا، بدا لـه أنه محض هواء لا يؤثر في شـيء، أو أنه ظل ضعيف لرجل يرقب المشـهد بعينين يابسـتين وأنفاس حبيسـة بيـن الصخور، حيـن رحل الجنود رحل خلفهم موقنًـا بمصير مَن تعالت أصوات سـعالهم فـي ظلمة الكهف الممتلئ بدخان مشـبع برائحة القار، كان عليـه أن يلحـق بالجماعات المستسـلمة لمصيرها وهـي في طريقها نحـو البحـر البعيد، لا يعـرف كم لبث معهم مـن الأيام في تلـك الرحلة التي تسـاقط فيها الكثيرون مـن الجوع والخوف والتعـب، كان الحراس يضربونهم بالعصي والكرابيج إذا تلكئوا في مشـيهم، وكان على الجميع

أن يجر في سيره مَن أصابه الإعياء أو اسودت الدنيا في وجهه فرفض الذهاب نحو المصير المجهول، وكان الجنود إذا رأوا أيًّا منهم وقد أصبح حملًا ثقيلًا على المسيرة يتبرعون بضرب عنقه أمام الجميع، كان الكل يعلم أن الموت قدر لا مفر منه، ومَن لم يمت من الإجهاد مات في السفن العجوز التي تنتشر الآن على الشاطئ، لم يكن لأحد أن يفكر في قدرة السفينة على حمل مَن تسلقوا جنباتها، بقدر ما كانوا يفكرون في البحث عن رشفة ماء أو كسرة خبز على ظهرها، كانت النساء تصعد في البدء مع الأطفال، ثم تأتي لحظة الهجوم من الرجال والصبيان، عجائز كثيرون داستهم الأقدام وهي تهرول في سعيها نحو طوق النجاة من العذاب، وربانو السفن يصرخون فيهم أن يتراجعوا أو يعاونوا بعضهم بعضًا، لكن ذلك كله كان بلا جدوى، ولم يكن الجنود الذين رافقوهم إلى الشواطئ معنيين بغير منعهم من العودة إلى الوراء، كان البعض يلطم خديه متشبثًا بالأرض الواقف عليها كأنه اكتشف فجأة أنها نهاية الحلم وبداية الكابوس، وأن تراب أجداده ستذريه الرياح من بعده، وأن أحلام العودة ليست سوى ضرب من الخيال، بعضهم كان يقبِّل أقدام الجند الجالسين على صهوة جيادهم من أجل أن يعودوا ليأخذوا أطفالهم معهم، لكن ذلك لم يكن يثير لدى الجند سوى مزيد من الضحك بأصوات متعالية، بينما السياط التي مزقت الملابس والجلود كانت تقول للجميع إنهم لم يعد لهم مكان على هذه الأرض، في النهاية كانت السفن تتمايل على وجه الماء بحملها الزائد كما لو أنها تبتهل لله أن يمن عليها بالغرق، ومع أول موجة كان الذين على السطح أو الحواف يتساقطون في العباب

الهائـج، البعـض كان يمد يـده ليلتقطهم، والبعض كان يتسـاقط خلفهم، ودوامات البحر تجرف الجميع كوليمة سـماوية للسـمك الجائع، بعض السـاقطين تصور أنـه عبد الرحمن الداخل، وقـرر مغالبة الموج من أجل الوصـول إلى الشـاطئ الآخر أو حتـى أطراف الأنامـل الممتدة من على سطح السفينة باتجاهه، بعضهم استسلم لمصيره وعدم معرفته بالبحر من الأصـل، وراح يغـوص منجرفًا مع الماء المالح، وبدا أن السـماء نفسـها كانت أكثر قسـوة عليهم من الجنود الذين شيعوهم بالضحكات، فراحت تغيم وتزمجر وتبرق، وبعدها هطلت بسـيول لم يعرف الناس في بلادهم مثلهـا، حتى إن الذين شـكُّوا فـي قدراتهم على احتمـال العقاب صرخوا فـي وجهها: «ما الذي فعلناه من أجل كل هذا العذاب؟!»، لكنها لم تكن لتستجيب للضعفاء، فظلت سادرة في غضبها، وظل البحر يضرب جنبات السفن العجوز كأنها حبات رمل في غربال مشدود، في النهاية قال الربان إنه لا يمكنه الاقتراب من الشـاطئ، وعليهم أن يقطعوا المسـافة المتبقية سباحة، فصرخت النسـاء القابعات فـي جوف الخشـب: «لا نرغب في المـوت»، والربـان يقول: «كل رجل يحمل طفلًا على جسـده وامرأة في ذراعه». بعضهم ضربه بما تبقى لديه من قوة على الغضب، وبعضهم قرر أن يقود السـفينة التي لا يعرف عنها شيئًا، لكنها أعلنت عصيانها الأبدي، فاستسـلموا علـى أمل أن مَن يصل أولًا سـيلقي لهم بحبـال النجاة، لكن مَـن كان يقطـع الأمتار الطويلة في مصارعة الموج مـا كان له أن يفكر في غير التقاط أنفاسـه، حين استفاق بعضهم وألقى بها فبدت الحبال كما لو أنها أسـراب نمل تطفو على الماء بينما الموج يطيح بسـيرها كلما انتظم،

الكثيرون ماتوا غرقًا وخوفًا وربما رغبة في وضع حد للعذاب، البعض كان الموج رحيمًا به فألقاه من حيث لا يدري على الرمال لتلتقطه أيدي المغاربة المنتظرين بخيامهم في الجنوب، كانوا سعداء بلقياهم كما لو أنهم رزقوا بكنز بحثوا عنه عشرات السنين، وما بين جند الكرابيج والسيوف في الشمال، وجند ضاقوا ببضاعة فاضت عن حاجتهم في الجنوب، كان البحر يذهب ويعود بمزيد من الأجساد، وبين العيون المتحجرة من الخوف رأى مراد وجه جده محمد بن عبد الله بن جهور يطل من بين الجموع كأنه نبيهم في هذا الظلام، حين وقعت العين على العين انتفض صائحًا على جده، لكن الأخير لم يسمعه، وأخذ يضرب بيده على مجلد كبير قائلًا: «كل شيء بكتاب».

28

ربحت ناريمان الرهان ووصل الإخوان إلى الحكم، كان ذلك بالنسبة لمـراد صدمة ألزمتـه الجلوس في البيت عدة أيام لا يود فيها رؤية أحد أو سـماعه، فـي النهاية جاء أسـتاذ التاريـخ لزيارته، لم يكن لـدى أي منهما رغبـة في الحديث، بدوا كما لـو أنهما جنديان خرجا من معركة فقدا فيها كل شـيء، حتى القـدرة على النظر في وجه بعضهمـا، بعد صمت طويل أعلـن ضابط الأمن أنه بحاجة لتدخين حجري شيشـة على أي مقهى، لم يرفـض مـراد ولم يقبل أيضًا، لكنـه تحرك بآلية المستسـلم لفعل بدا كأنه قدر مكتوب، حين جلسا على طاولة بمقهى منعزل في السيدة زينب ظلا صامتيـن كأنهما في انتظـار تقبل العزاء من الناس، لكـن أحدًا لم يعرهما انتباهًـا، حتى عامـل المقهى نفسـه كان يرقبهما من بعيـد دون أن يقترب مـن مكانهما، وحين طلب منه المقدم شـايًا وشيشـة تمتم لنفسـه: «بكرة يمنعوها»، فنظرا إلى بعضهما وانفرطا في موجة من ضحك لم يعرفا سببًا لـه، بعدها وضـع مراد عينه في وجـه صديقه: «كيف حـدث هذا؟»، ولم تكن لدى مقدم الأمن إجابة، فسـحب نفسًـا طويلًا وأطلق عدة دوائر من

الدخان قائلًا: «أوراقهم كانت أفضل، والأمريكان وغيرهم كانوا يفكرون ويدعمون بكل ما لديهم، لعبوا على مشاعر الجميع واشتروا الكثيرين، ولم يكن باستطاعتنا وقفهم». ضحك مراد ساخرًا: «أين المشير والقوى الوطنية من هذا؟»، صمت مقدم الأمن ولاحت في عينه دمعة وهو يقول: «ما الذي نتوقعه من رجال في السبعين من أعمارهم، يجرُّون خلفهم غنيمة أكبر مما قد يكسبونه من حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل».

شعر مراد بأن ما يقوله صديقه الآن هو ما كانت تقوله ناريمان من قبل، وأنها ربما في قرارة نفسها لا ترغب في ذلك، ولا تتمنى التعاون مع جماعة تحكم باسم الله، لكنها بالتأكيد تعرف أكثر منه عما يجري في العالم من حروب وصفقات، وتسرب إليه شعور بأنه مدين لها باعتذار؛ لأنه تخيل أن العالم تحكمه إرادات الشعوب، في النهاية سأل صديقه: «هل سنستسلم؟»، فمسح الرجل وجهه من الحزن مشيرًا لعامل المقهى أن يغير الحجر: «الحرب جولات، وليس شرطًا أن مَن يربح أولًا يربح أخيرًا، وفي بلد أصبحت العشوائية فيه نظام حياة تصبح المعارك أطول مما نتوقع لها، ومن الصعوبة الحديث عن نصر أو خسارة»، تذكر مراد أن عدة ملايين الآن يجلسون في بيوتهم بلا عمل، وأنهم على استعداد للتعامل مع الشيطان طالما سيسد جوعهم، تذكر أيضًا أن هذه البلاد منذ قديم الزمن يحكمها الكهنة القابعون في غرفهم المظلمة، وليس الفراعنة الجالسون على كراسيهم المذهبة، فارتسمت على وجهه ظلال ابتسامة لمحها ضابط الأمن سائلًا عن سببها، فهشَّ مراد ذبابة حومت

على وجهه: «لا أعتقد أن راشيل متورطة في شيء»، هنالك أطلق الرجل سحابة من دخان أخذ يتابع حلقاتها في الهواء قائلًا: «يبدو أنك لم تعد تعرف إن كانت ابنة عمتك أم أنها جزء من مخطط رُسم في بلاد بعيدة».

كان المقهى قد بدأ يزدحم بالوافدين، وراح الجميع يضرب ودعه محللًا ما يجري، فتعالت الأصوات وانتقل التوتر إلى النقاش، والتقط مراد الخيط قائلًا لصاحبه: «الكل يرى أنكم الطرف الثالث»، ورد الثاني: «ما المصلحة؟»، نظر مراد متعجبًا: «فمَن يكون إذًا؟»، المقدم: «ليس كل ما يُعرف يُقال يا صديقي، فنحن نجمع المعلومة، ونرفعها لصاحب القرار»، «ما الدليل؟»، هكذا قال مراد بغضب، وأجابه رجل الأمن الحاصل على دكتوراه في التاريخ: «من اليوم سيختفي هذا الطرف، فهل عرفت من كان وراءه؟»، كانت كلماتهما قصيرة ومتلاحقة كتبادل إطلاق النيران، وحين شعر كل منهما أنه أوجع صاحبه بما يكفي أغلق فمه وغرق في صمته، لكن رجل الأمن ما لبث أن وضع مبسم شيشته على المنضدة تاركًا المقهى، فانتفض مراد خلفه ليصطدم بعشرات الأكتاف لاحقًا به في الميدان الواسع قائلًا: «بقي لديَّ سؤال يخصني»، نظر إليه مقدم الأمن وهو يهز رأسه بأسف: «لم يعد للموريسكيين وقف»، حينها فغر مراد فاه، فزاده أستاذ التاريخ بيتًا جديدًا من الصدمات: «بعد أن عاد محمد علي من الدرعية منتصرًا، كان عليه أن يواجه المماليك المتجمعين على حدوده مع السودان، ولم يكن أمامه سوى أن يلغي الأوقاف ويضم أرضها للدولة، كي يتمكن من تجهيز جيشه الجديد، وظلت البلاد

بلا أوقاف حتى جاء الخديو ليسمح بأن يوقف الناس ممتلكاتهم لخدمة أعمال خيرية، لكن ذلك لم يعنِ أن الأوقاف القديمة تعود لأهلها ولا للأعمال التي أوقفت عليها، والدولة لا تعترف إلا بوثائق الوقف التي تخص الفترة من سعيد إلى ثورة يوليو، فبعدها ضمت الثورة أراضي الوقف إلى الإصلاح الزراعي، وحتى لو كان ثمة اعتراف بوقف من قبل مجيء محمد علي للحكم فهل تعتقد أن هناك محكمة يمكنها أن تصرح بعودته؟ حتى وإن فعلت فهل تعتقد أن هناك حكومة يمكنها أن تستجيب لهذا الأمر، لقد مضت سنوات طويلة والتاريخ لا يعود إلى الوراء»، كان المقدم يتحدث بهدوء وحزم، لكن ذلك لم يمنع رغبته في التمتع بإيلام صديقه مثلما أغضبه الأخير في بداية لقائهما اليوم، فانفجر مراد في وجهه متحدثًا عن الدستور والقانون، لكن رجل الأمن المدرب على ضبط الأعصاب ابتسم من جديد قائلًا: «للدساتير أن تقول ما تريد، لكن الحياة تسير كما ترى، والدولة ما زالت هي الصانع الوحيد والزارع الوحيد، ونحن لم نفارق بعد خطة الباشا الكبير في تغييره لثقافة المماليك، فدع وثيقة أهلك محفوظة في الأرشيف الكبير، ولا تسعَ في أمور إن لم تضرك فلن تفيد سوى غيرك».

أدرك مراد أن أحلام جدته في استعادة الوقف قد تبخرت، وأن عليه أن يعيش حاضره دون آمال في العودة للماضي، للحظة تحجَّرت عيناه، واجتاحته الرغبة في البكاء، لكن صديقه الذي شعر أنه أوجعه بما يكفي ربَّت كتفه، وأخذه من يده معدلًا مسار طريقهما نحو محطة مترو سعد

زغلول، كانا يتفاديان الناس بشق الأنفس في شارع السوق، ومراد يسأل: «ألا يوجد أمل؟»، وبوهن مصطنع ضحك المقدم: «طالما ما زلنا على قيد الحياة فثمة أمل»، طأطأ مراد رأسه بحزن مَن يسير في مشهد جنائزي وهو يغز في سيره خلف صديقه، حين انتبه إلى أنهما خلَّفا محطة المترو وراءهما توقف عن السير، لكن مقدم الأمن الذي زال غضبه ابتسم من جديد وهو يقول: «دعني أستضِفْكَ على شيشة في مقهاي المفضل».

على مقهى جانبي في شارع ضريح سعد أخذ مراد ينفث سحبًا من الدخان ذي الرائحة العطرة، بينما صديقه الحاصل على دكتوراه في التاريخ ينظر في عينيه قائلًا: «لم يكن موت طاهر الحر هو نهاية نضال بقايا الموريسكيين من أجل دولة تخصهم، فقد كان موته بداية لشرارة جديدة في لشبونة بحثًا عن الاستقلال شرق الأندلس، فقد أخذ رجاله يكتبون منشورات يوزعونها على الأهالي في القرى بأن موته لم يكن سوى نتاج خيانة، وأن عليهم أن يكملوا الذي بدأه كي ينعموا بالحرية والسلام، فأخذ الناس يغيرون على القوافل المحملة بالفضة من إشبيلية إلى مجريط، وكانت إسبانيا وقتئذ منشغلة بحرب السنوات الثماني مع الهولنديين، فتشجع الناس على التظاهر في غرناطة مطالبين بالانفصال، واكتشفت الحكومة المركزية مخططًا للانقلاب بقيادة دبَّاغ في غرناطة يدعى فرناندس دي ماهاندون، فقد درب ما يزيد على ثمانية آلاف من أبناء البيازين وأجوارها على حمل السلاح للاستيلاء على غرناطة، لكن قبل أن يأتي الوقت المحدد لبدء خطته انفصل عنه أحد رجاله وكشف مخططه لحكومة مجريط، فحاصر الجيش البيازين وأعدم

ماهاندون وخمسين شخصًا من كبار رجاله، ونفوا أكثر من خمسة آلاف رجل إلى خارج غرناطة، كان الأمر بالنسبة للإسبان فاجعة، فقررت حكومتهم معاقبة الموريسكيين جميعًا بالإهمال، فلم تقدم لهم يد المساعدة حين انتشر الطاعون في العام التالي، وتركتهم للجوع والبرد تحت وطأة الجفاف الذي ساد الأندلس، وظلوا خائفين من الخروج على الحكومة حتى مات لسيدة جاليقية طفل من الجوع، فحملته على ذراعيها وخرجت تصرخ في الشوارع بالدعاء على حاكم المدينة، فتجمع الناس حولها بالعصي والسكاكين متجهين إلى بيته، لكنه فرَّ ليحتمي بأسوار الكنيسة، فعادوا إلى بيوت النبلاء مشعلين النيران فيها، ثم عرجوا على بيت المطران فأخذوا ما به من قمح وشعير، وجلسوا مكونين مجلسًا ثوريًّا من بينهم، معينين من قبلهم حاكمًا على قرطبة يدعى دييكو فرنادس، وطاردين النبلاء من مدينتهم وأجوارهم، ملزمين مجريط بقبول خطتهم وحكومتهم الجديدة، ولم يكن أمام الملك سوى أن يعلن عفوه عن كل مَن شارك في الثورة، ومرسلًا لفرنادس ألف دوقة ليشتري بها قمحًا لأهل قرطبة، كان لهذه الثورة مفعول السحر في نفوس الأندلسيين، فحذا أهل إشبيلية حذوها، وقادهم رجلان يدعيان أيزديرو طريس وفرانسسكو هورتادو لطرد النبلاء من المدينة، وتشكيل حكومة ثورية، جاعلين مصارف الري خدمة للجميع».

كانت الشمس قد أوشكت على الغروب حين توقف أستاذ التاريخ عن الكلام مبديًا رغبته في الذهاب، لكن مراد الذي استسلم لفكرة ضياع الوقف ما كان له أن يستسلم لعدم معرفة ما جرى لأهله ونضالهم، فأخذ

يلح على صديقه أن يكمل ما بدأ، فأشار الأخير إلى النادل لتغيير الشيشة وإحضار شاي، واتخذ موقعه كحكّاء عجوز في مقهى قديم قائلًا: «حين اجتاحت جيوش بونابرت المقاطعات الإسبانية عام 1808، فرَّ الملك والنبلاء من أمامها، وشعر بونابرت أن إسبانيا العظيمة دالت له، لكن الشعب الذي تخلت عنه حكومته ما كان له أن يستسلم، فقد انتفض أهل قادس في وجه الفرنسيين ليذيقوهم أول هزيمة، بعدها تجمعوا من جديد ليهزموهم في معركة حاسمة على مشارف بايلن، مكونين في إشبيلية حكومة باسم المجلس المركزي للثورة، وأخذ ثوار قادس في وضع دستور جديد للبلاد، نصَّ على أن كل إقليم شبه ولاية مستقلة، من بين هذه الأقاليم الأندلس التي تضم مدن مملكة غرناطة القديمة، إلا أن هذا الدستور ألغي بمجرد عودته، وكان ذلك نكبة لكل الذين دفعوا دماءهم للدفاع عن البلاد التي تخلى حكامها عنها، ولم تمضِ ثماني سنوات حتى نظم رجل يدعى رفائيل دل رييغو صفوف الثوار في الأندلس، مطالبًا بالعودة للعمل بدستور قادس، فاضطر الملك فرناندو السابع لإعادة العمل به، لكنه سرعان ما أرسل للفرنسيين كي يحتلوا بايون، آمرًا القساوسة بالصراخ على المنابر أن الديمقراطية أضاعت البلاد، فخرج المؤمنون ليهتفوا: تسقط الديمقراطية، عاشت محاكم التفتيش، وأمام هتافهم نزل الملك على رغبتهم وأوقف من جديد العمل بدستور قادس، فلم يجد الأندلسيون سوى محاكم التفتيش ليصبوا عليها غضبهم، فأشعلوا فيها النيران محرمين وجودها بينهم، وتوالت الثورات والانقلابات، لكنها جميعًا باءت بالفشل، ففي عام 1835 اندلعت ثورة

شعبية في مالقة، وسرعان ما انتقلت إلى إشبيلية وقادس وجيان وألمرية وقرطبة وغرناطة، ووضعت مجالسها الثورية دستورًا جديدًا عرف بدستور أندوخار بمقاطعة جيان، نصُّوا فيه على أن الحكم في إسبانيا كونفدرالي، مكونين جيشًا انتصر على جيش الملك في معركة مرمى الكلاب، وهو الوادي الذي كان القشتاليون يلقون فيه بالموريسكيين لتأكلهم النار، غير أن قادة الاتحاد حلوا أنفسهم بعدما وعدهم وزير الملك بالموافقة على مطالبهم، لكن النضال من أجل قومية أندلسية لم ينتهِ، حتى جاء بلاس إنفانتي وكاد يعلن دولة خاصة بالأندلس، لولا أن البلاد سقطت في يد فرانكو الذي ألغى الملكية وعصف بكل معارضيه، فلما انتهى عصره عادت البلاد للملكية على دستور جديد مستوحى من مبادئ قادس، وروح بلاس إنفانتي الذي لُقِّب بالأب الروحي للقومية الأندلسية في إسبانيا».

29

دفع بي فرناندو لخطبة هند ابنة الحبقي قائلًا: «سيكون أفضل عرس في البشرات»، لكن قلبي كان منقبضًا من شيء لا أعرفه، فظللت أؤجل الأمر لحين ظهور أبي من جديد، فمنذ صرخت فيه في خيمتي عقب مقتل ابن أمية وأنا ألتمس ظهوره، لكنه لم يأتِ، في النهاية وأمام إلحاح فرناندو وكلمات الحبقي المسمومة قلت فلتكن خطوبة فقط، فالإسبان قد كشروا عن أنيابهم وهناك أنباء عن تجهيزهم جيشًا جديدًا، دخلوا على ابن عبو وفاتحوه في الأمر فاستحسنه قائلًا: «كي تطمئن قلوب الناس، ولا يذهب بهم الفزع في الأودية والشعاب»، حملني فرناندو على كتفيه وهو يدور بي صائحًا: «هذا عريس البشرات»، بينما التهاني تأتيني من كل حدب وصوب، حتى إنني لم أكن أعرف على مَن أرد ومَن أقبل، هم أنفسهم لم ينتظروا ليعرفوا مَن العروس، فقد كان الحبقي يمشي بجانب فرناندو دون أن يلتفت إليه أحد، لكنهم راحوا يهنئونه بحفاوة في حفلة السمر، وأصروا على رقصي معه بالعصا، كما أصروا على أن أحمله على ظهري من موقع الحفل إلى خيمة العروس، فحملته وهرولت به والفتيان

يهتفون خلفي حتى خرجت هند من خيمتها في كامل زينتها، يومها رأيت بدرًا منيرًا يطل برأسه من كوة مظلمة، فألقيت بالحبقي وشخصت بنظري في جمالها، ولم أنتبه إلا على صياح الفتيان من حولي وضربهم كفًّا بكف وهم يضحكون، ثم صاحوا بي: «قبِّلها»، ففعلت، وراح الخجل يعلونا حتى اجتذبتها عشرات الأيدي من داخل الخيمة، وحين هممت بالدخول خلفها أمسك بي الحبقي ضاحكًا: «قلنا نصف إكليل وليس إكليلًا كاملًا»، فضحكت وأنا أقول: «حين يمن الله علينا بالنصر سنقيم عرسًا يليق بها».

قلت لها: «لم أكن أتخيل أنكِ بهذا الجمال»، قالت: «لم أكن أحلم أنني سأتزوج قبل أن تعصف بنا الدماء»، كان ذلك بعد حفلة السمر، فقد قرر الجميع أن يتيح لنا فرصة للتعارف، حين أبديت غضبي من جملتها راحت تعتذر عن صدقها، هونت من الأمر قائلًا إنني أيضًا لم أكن راغبًا في خطبتها إلا بعد أن تهدأ الأحوال، لكن الله أراد لنا أن نكون عريسي البشرات في أيام كهذه، وأخذت أعدها بمستقبل يليق بجمالها وحيائها، فكشفت عن وعاء به طعام: «دعنا نأخذ بركة الحفل»، هكذا قالت ثم نظرت إلى القمر الساطع في السماء باكية، سألتها عن سبب البكاء، حدثتني عن أمها التي قُتلت، وشقيقيها اللذين راحا في الأسر، وحلمها بحياة ليس فيها قتل ولا حرب، ليس فيها مسيحية ولا إسلام، مسحت على رأسها وأنا أبكي متذكرًا أمي وأختي وعمي باديث وزوجة ابنه بيلارا التي قالت: «سننتظرك على حالنا». وراح كل منا يحمِّل القمر أمنياته بعالم

ليس فيه غير المودة والسلام، لكن سحابة كثيفة طفت فجأة على وجهينا فاستيقظنا من أحلامنا على فاجعة استشهاد حسين التركي، ولم يمضِ شهر حتى خسرنا كمبيتة ومارو ونرجة وبرجة وقمارش وكوثر وبني مرغوشة، ودك دوق دي أركش بجيشه الكبير ومدافعه العملاقة مواقعنا في الجبل الأحمر بأربوطو والحصينة وقصر بنيرة، وأمر خوان بنقل كل مَن نجا من القتل إلى قشتالة مباشرة، فكنا نراهم من أعلى الجبل سائرين في سلاسل متباعدة كقطط مستأنسة وسط حراسة من جند مزودين بمطارق وهراوى، ولم يجرؤ أي منا على النزول لنجدتهم، في ذلك الوقت حضر رسل الإسبان لابن عبو مطالبينه بالاستسلام والدخول في طاعة فيليبي الثاني، لكن الأمير ألقى على مسامعهم خطبة عن الذل الذي لاقاه أهلنا منذ استسلم عبد الله الأحمر للملكين الكاثوليكيين، موقعًا معاهدة لم يدم احترام بنودها لأكثر من ستة أشهر، وانتهى إلى أن لديه من الزاد ما يكفيه للاعتصام بالبشرات عشرة أعوام كاملة، ولو أتى أمر الله بالهزيمة فإنه يفضل الموت عن قبول الهوان في بلد لا يحترم العهود ولا المواثيق.

كان فرناندو وبرناندينو بن عامر وكونسالفو الشنيش والحبقي، الذي أصبح قائدًا عامًّا للجيش بعد مقتل ابن مليح، ممن شهدوا اللقاء، وقد أُسقط في يد الجميع من عنف ابن عبو في الرد، حتى إن هرناندو برادة الذي تطوع بالوساطة في الصلح احمر وجهه ولم ينطق سوى بجملة واحدة: «لقد أغلقت كل النوافذ على نفسك يا صاحبي»، ثم خرج برفقة

مَن حضر بصحبتهم، بينما هاج الحبقي في ثورة لم نكن نتوقعها منه، حتى إننا خفنا أن يجرد سيفه ويضرب به ابن عبو أمامنا، فأخذه الشنش وابن عامر وخرجا ليهدئا من ثورته، ووقفت وفرناندو حائرين لا نعرف إلى أي الفريقين ننحاز، بينما ابن عبو يلعن ويسخط قائلًا: «الموت أشرف من الحياة بلا دين ولا أهل ولا وطن، الموت أشرف من كأس الذل التي يريدوننا أن نتجرعها حتى النهاية»، فرحت أهون عليه قائلًا: «إنها الحرب، وإننا يمكننا أن نطيل المفاوضات إلى أن نوقف زحفهم لترتيب أوضاعنا، ويكفي ما خسرناه من مدن وقلاع وأرواح». بدا على وجهه أنه يفكر في رجاله الذين بلبلهم الحلم بالحياة حتى ولو في ظلال الأسر، وبدا فرناندو كما لو أنه غير مرتاح لما يدور من حوله، فظل صامتًا حتى خرجنا نبحث عن الحبقي وبرادة، إلا أننا علمنا أنهما تركا معسكرنا في برشول وترفلش وذهبا إلى قمة جبل شلير، فأصدر ابن عبو قراره بعزل الحبقي وتعيين فرناندو قائدًا للجيش، وفوجئنا بمناشير يتناقلها الجنود فيما بينهم سرًّا بفتوى لشيخ مسجد البشرات لوبيز بن عدول يطالبهم بالاستسلام والخلاص من المصائب التي جرها ابن عبو على الجميع، حين بحثنا عنه لم نجده، وأدركنا أن الأمر باتت تشوبه المؤامرة، وعلمنا أن الحبقي وهرناندو برادة يراسلان الجميع، مطالبينهم بالضغط على الأمير للاستسلام، ثم ظهر رسل الإسبان من جديد، بصحبة دون ألونسو دي غرناطة، وهو واحد من أصدقاء ابن عبو القدامى، فراح يحثه على التفاوض والحصول على أفضل الشروط، أرسل الأمير للحبقي موكلًا إياه في التفاوض، فلما ذهب إلى الإسبان اتفق معه مجلسهم العسكري

على أن يذهب لدون خوان مسلمًا سلاحه ورايته طالبًا العفو عن ابن عبو ومَن معه، ففعـل، ومنحه دون خوان الأمان للجميع، على أن يرحلوا من البشـرات إلى مكان بعيد، ووافق الحبقي، ثم عاد إلينا بمندوبين ليتسـلَّما صك الاستسلام من ابن عبو، لكن الأمير ما إن علم بالشروط حتى صاح في الحبقي: «جئتنا بمَن يمن علينا بقبوله استسـلامنا؟ ولم تحفظ لأهلك البقـاء على أرضهـم ولا دينهم أو حتـى لغتهم وأزيائهم؟ فلِمَ كانت كل هذه الدماء؟». كان الحبقي ينظر في عين الجميع ملتمسًـا مَن يناصره ولو بكلمـة، لكن أحدًا لـم يجرؤ، كانت الشـروط مذلة ومهينـة، وكنا جميعًا نحلم أن نضع سلاحنا ونعيش حياتنا في هدوء، لكننا لم نتخيل قبوله بأقل مما رفضناه قبل ثورتنا المشـئومة، فقلنا إننا مع ابن عبو في رفضه، ولا بد من عودته لتغيير الشروط، فخرج كالذاهب إلى الموت، ثم عاد من جديد برسل جديدة دون تغيير، فعادوا كما حضروا، ولـم تمضِ أيام حتى وجدنا الحبقي برفقة مجموعة من القشـتاليين يتسـللون إلى كهف الأمير، صاح عليهم الحرس من المتطوعين الجزائريين بالتوقف، واشـتبكوا معهم في قتال عنيف، وسـرعان ما صحونـا على الجلبة التي انتهت بأسـر الحبقي ورجاله، وعلمنا منه أنه منح دون خوان وعدًا بتنفيذ اتفاقه منفردًا، فأمر ابن عبو بقتله، ثم أمرني بكتابة رسالة إلى دون خوان على أنها من الحبقي قائلًا: «حدثت الأمير ورجاله فيما اتفقنا عليه فقالوا إنهم لا يمكنهم تغيير دينهم ولا أزياء آبائهم، ولا يمكنهم مغادرة البشـرات والسعي في بلاد لم تطأها أقدامهم من قبـل، فإذا حفظتم لهم ذلك فيمكن التفاوض مع الأمير على التسـليم». ثم أمرني بكتابة رسائل لرؤساء المناطق كي يواصلوا الحرب،

ورسائل أخرى إلى أهل المغرب والجزائر يستحثهم فيها لدعمه، لكن الأمد طال، فسرعان ما علم الإسبان بمقتل الحبقي، وأدركوا أن الأمر محض خدعة، فجهزوا أربعة جيوش بقيادة دون خوان ودي سياسة ودون ركيصانص ودوق دي أركش، وبدأوا هجومهم الشامل على البشرات من كل جانب، كانوا يحرقون كل ما أمامهم، مطلقين مدافعهم على الجبال والوديان، حتى لاذ الجميع بالصخور والكهوف، ولم يكن لدى الإسبان وقت لينتظروا خروجهم منها، فكانوا يجمعون ما تقع أيديهم عليه من عشب وقار فيشعلونه فيها، موقنين بموتهم مختنقين في ظلمة كهوفهم، وراحوا يشعلون النيران في وادي شيش حتى أصبح كجهنم الحمراء، وكل مَن قبضوا عليه من الموريسكيين ألقوه فيه قائلين: «إلى مرمى الكلاب»، حتى عُرف الوادي بهذا الاسم، وصار الفزع من الاستسلام أكبر من الفزع من الحرب، فتشتت الجميع، وضاقت القلوب، وانكشفت المداخل، ولم يبقَ معنا سوى أربعمئة رجل لا نعرف كيف نصد بهم هذا الطوفان من القشتاليين، وفجأة ظهر كونسالفو الشنيش بعد شهر من ذهابه إلى المغرب، ظهر بصحبة عشرين رجلًا، قال إنه كان من المفترض أن يصل بصحبة مئتي متطوع، لكنه لم يستطع تجنب الاشتباك في الحرب. فهللنا فرحًا به، ودخلنا على الأمير ابن عبو في كهفه فهنأه على السلامة، مكلفًا إياه بأن يكون في الحرس الشخصي له، لكن لم يمضِ يومان حتى وجدناه يصيح فينا أن الأمير قد قُتل، دخلنا عليه فوجدنا رأسه مفصولًا عن جسده، ولا ندري كيف شاع الأمر بين الجنود بهذه السرعة، وكيف علم الإسبان به قبل الصباح، فنادوا علينا بالاستسلام، وكثفوا هجومهم

بالمدافع حتى إنه لم يكن هناك موطئ قدم إلا وتزلزل منها، فأدركت أنها النهايـة، وليس أمامي سـوى الجلوس بجانب جثة الأميـر منتظرًا أمر الله فيما هو قادم.

30

لا يعـرف مراد من أين علمت جدته بمجيء ناريمان، فالمرة الوحيدة التي جاءت فيها إلى البيت لم تكن الجدة قد استيقظت، هو نفسه لم يكن اطمأن بعد إلى أنها ابنة عمته، فلم يخبر جنى هانم بشيء، فمن أين علمت بمجيئها إلى مصر؟ حين سـألها عن ذلك أخذت ترفع صوتها مع المغنية التي تترنم بالدور الأندلسي القديم وكأنها لم تسمعه، فأعاد السؤال عليها بلهجة ضابط في قسم شرطة، حينها أوقفت صوت الكاسيت الرابض إلى جانبها قائلة: «تشممت رائحتها من بين عشرات العطور التي تضعها على ملابسـها، حين نزلـت القاهرة في المرة الأولى شـعرت أن قلبي ارتجف في صـدري، حتى إنني أغمـي عليَّ من فرحتي، وجئـت أنت فأحضرت لـي الطبيب، لكنني لم أخبرك بشـيء، فقد جاءني جـدك قائلًا إنك يجب أن تعرف بنفسك». لم يستطع مراد أن يمسك نفسه عن الضحك ونظرت الجـدة فـي وجهـه كما لـو أنهـا تقول: «هـل أدركـت أنني لسـت مصابة بالخـرف؟»، فتوقـف عـن ضحكـه سـائلًا: «وهـل صدقتهـا؟»، أومأت بالإيجـاب قائلـة: «العين الراعية لا تتـرك أبناءها في محنتهـم، وناريمان

لـك وأنـت لناريمان». لـم تكمـل جملتها حتـى رن جرس البـاب فأمرته أن يفتـح بـدلًا من الخادمة العجـوز، فتح الباب ليجد نفسـه أمام ناريمان بثـوب أبيـض كعروس في يوم زفافها، وقبـل أن يفتح فمه وضعت إصبعا علـى شـفتيه: « جئت مـن أجل جدتي وليـس من أجلك». ولم يسـتغرق الوقت أكثر من ذلك ليسـمعا من عمق الصالة صوت الجدة مناديًا عليها، فتركته غير مستوعب لما يجري وهرولت لتغمر الجدة بالقبل، شعر مراد أن أسـرار الموريسـكي بدأت تشـتعل أمامـه، وأنه أصبـح غريبًا حتى في بيته، فاتخذ كرسـيًّا نائيًا وجلس يشـاهد نسـختين من سـيدة واحدة، لكن إحداهمـا بالألـوان والأخرى بالأبيض والأسـود. حين أطلـق ملحوظته هذه هبَّت كلتاهما لضربه وهو يستغيث بالخادمة التي فتحت باب غرفتها قائلة: «عايز حاجة يا مراد؟»، فما كان من ثلاثتهم إلا أن سـقطوا في نوبة ضحك جعلت الخادمة تعود من حيث أتت مغلقة على نفسها.

على الغداء سألها: «لماذا لم تخبريني أنكِ التقيت بالجدة؟»، فأجابته: «ولِـمَ لم تطلب مني أن ألتقيها؟»، شـعر أن موقفه ضعيف فلزم الصمت، بينما حرَّكت الجدة كرسـيها متجهة إلى غرفتهـا كي يطببا جراحهما على مهـل، كان من المفتـرض حينها أن الموريسـكي سـيدخل كعادته تحت جلـده كقنفـذ يشـعر بالخطـر، لكنـه تذكر مـا قالـه صاحبه مقـدم الأمن. «لا ينبغي لهم أن يشعروا بضعفك»، فألقى بالشوكة من يده مستديرًا إليها بعينين محتدتين: «لأنني حتى الآن لا أعرف إن كنتِ راشيل أم ناريمان»،

كانت هذه الجملة بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير، فانهال سيل من الدموع لم تستطع معه ضبط مكياجها وهي تقول: «كان بإمكانك أن تسأل الجدة»، فأمسك بنفسه عن «لا أستعين بخرافات العجائز»، وهي بدورها لم تنتظر رده فأردفت: «أو تسأل قلبك يا بن عمتي»، وكانت هذه الجملة كافية كي يشعر بمدى الجرم الذي ارتكبه، فوضع يده على كتفها قائلًا بصوت مخنوق بالدمع: «إنني في متاهة لم أعد أعرف فيها الخطأ من الصواب، فكل شيء مشوش، وكدت أوقن أنني مصاب بالخرف والتهيؤات، وصرت أشك حتى في أصابعي»، وفجأة تذكر كلاهما حركات يد الرئيس الجديد وحديثه عن الأصابع، فلم يستطع أيٌّ منهما إمساك نفسه عن الضحك، وانتهزتها ناريمان فرصة لتغيير موجة العتاب قائلة: «هل تعرف أننا حصلنا على اتفاق لتعليمه فنون الإتيكيت، كان بعض رجالهم لدينا وتطرق الحديث إلى سلوكه وتصرفاته، في البدء كانوا فخورين باستعراض شجاعته حين أقسم اليمين الدستورية أمام الشعب في ميدان التحرير، وقد صورنا هذا المشهد وسوَّقناه عبر عدد من الوكالات المتعاونة معنا، كان مشهدًا عاطفيًّا قمنا بتقديمه على أنه شجاعة مفرطة، هم بدورهم شعروا أننا قدمنا عملنا بشكل محترف، فجاءوا ليبدوا الرغبة في التعاون بشكل أكبر، قلت إنه لا ينبغي للرئيس أن يستخدم لغة الجسد أكثر من اللازم، وشعرت أنهم لم يستوعبوا، فأشرت بإصبعي مثلما يفعل فلم يستطيعوا تجنب الضحك، وراحوا يبررون فعله بأنه رجل مسالم، انشغل لسنوات طويلة بتخصصه العلمي، قلت إن هناك

مؤسسـات كبرى يلجأ إليها الساسة لتعلمهم مثل هذه الأمور، وبدا الأمر بالنسـبة لهم مفاجأة، فاتفقنا على أن نتعاقد نحن مع مجموعة من الخبراء كي يرافقوه عدة شهور».

لسـنوات طويلة كان مراد يعتقد أنه لن يـرى ناريمان من جديد، وأنها كغيرها من الموريسكيين الذين ذابوا في الرمال أو بطون البحار، لسنوات طويلة كان يعتقد أنه آخر الموريسكيين في المحروسة، وأن بموته ستنتهي المسيرة التي بدأها جده رزق الله بن يونس، ذلك الذي خشي أعمامه أن يثير الناس عليهم برعونته وكبريائه، قد كان على استعداد لأن يقتل أو يُقتل لو شعر أن أحدًا شـكك في دينه، وكان أهل تونس قد بـدأوا في مضايقة الموريسـكيين الذيـن حطوا علـى بلادهم مقاسـمينهم رزقهم وأرضهم، فطمعوا في البساتين التي خضروها، والبيوت التي أقاموها، مشككين في دينهم وولائهم لهم، فخشي عماه الربيع وعمار أن يجلب عليهما غضب الحكام في البلاد، فيدخلان بأبنائهما شتاتًا جديدًا، حينها قرَّرا أن يتخلصا منـه في رحلة الذهاب بلا عودة، قائلين إنهم قد كثروا في المكان، وصار لأبنائهم رغبة في الزواج من التوانسة والبربر، ولم يترك لهم أخاهم يونس أو أبوهم محمد بن جهور ما يدلهم إن كان يجوز للموريسـكي أن يتزوج بغير موريسكية، وليس أمامهم سوى أن يستفتوا شيخ الأزهر بالمحروسة في هذا الشأن، راسمين له طريق الخروج من حومة الأندلس إلى مشارف مصر، فخرج من الحومة إلى بنزرت ومنها إلى المهدية فصفاقص، عابرًا الصحراء التي بين طرابلس وتونس، ولم يكن قد خرج منها من قبل، فلما

وصل إلى سرت سأل عن الطريق إلى الأزهر، لكن أحدًا لم يفهم من حديثه المختلط بالإسبانية ولهجة أهل تطوان، ولم يكن الأمازيغ يعرفون هذه ولا تلك، فزودوه بالماء والطعام وأشاروا له على نجم في السماء، فلما غاب عنه تاه في الصحراء الواسعة، وخشي على نفسه من الضباع والسباع التي راحت تعوي عليه، فصعد ربوة وهو يصرخ فيها أن تتوقف، في تلك اللحظة ظهر جده عبد الله بن جهور على جواده الأبيض مطاردًا السباع التي فرت من أمامه في الفلاة، فلما انتهى من أمرها سأله رزق الله عمَّن يكون فأجابه: «أنا جدك، أنا العين الراعية لأبنائي في التيه»، حينها بكى رزق من اليأس قائلًا: «خرجت منذ أسابيع قاصدًا المحروسة، فلا أنا وصلت ولا أنا قادر على الرجوع ، كلت قدماي من السير، وطاردني الظمأ والجوع»، فجلست العين الراعية بجانبه على الربوة سائلة بحزن: «ولِمَ كل هذا العذاب يا بني؟»، أجابه أن عميه يريدان أن يسألا شيخ الأزهر إن كان للموريسكي أن يتزوج غير موريسكية؟ فصمت الجد حتى شعر رزق الله أنه قال ما يغضبه، فراح يسأل: «ألك خصومة هناك يا جدي؟»، لكن الجد الذي امتطى جواده ضحك قائلًا: «خصومتي مع مَن أرسلاك، فقل لهما إنه لا يجوز»، لكن رزق الله هزَّ رأسه بالنفي قائلًا: «أعطيت عهدًا ولا بد أن أفي بالعهود، وما يقوله شيخ الأزهر أعود به إليهم»، فأردفه جده خلفه على الجواد وظلا يتبعان النجم الذي سطع في السماء، فلم يعرف رزق الله كم استغرق من وقت حتى أنزلته العين الراعية أمام باب الفتوح قائلًا: «هذه هي المحروسة، فاسأل أهلها عن شيخها».

كانت المحروسة قد انتهت قبيل وصوله بشهر من فتنة رجل ادَّعى النبوة، وأظهر كراماته دافعًا الناس إلى التجرُّد حتى من الملابس قبل أن تجيئهم القيامة، اتبعه السفلة والعوام من بيت إلى بيت، وانتشرت دعوته حتى صدقها الأغنياء وأهدروا أموالهم تقربًا لله، من بينهم أميرة تركية تركت قصرها ومزَّقت ثيابها وراحت تجوب خلفه الأزقة والحارات، وفرغت الحوانيت وكسدت التجارة وانتشر الخوف في قلوب الناس، وشعر السناجق والأغوات أن مُلكهم سيزول على يد ذلك النبي الجديد، فجهزوا وليمة ودعوه إليها يوم جمعة، فلما دخل البيت ومعه مجاذيبه وبهاليله أغلقوا عليهم الأبواب، وانهالوا على أجسادهم بالسياط، وأخذوه يستتيبونه على يد الفقهاء والشيوخ، لكنه أصرَّ على أنه رسول الله، وأن القيامة ستقع في اليوم الذي يموت فيه، فأفتى الأئمة بقتله، لكن السنجق أمر بحبسه أسبوعًا علَّ معجزة تحدث من أجله، ولما لم يُظهر كرامة طِيف به في الشوارع وعُلِّق على باب الفتوح والمنادي يصيح من أمامه: «مَن لا يملك النجاة لنفسه لا يملك الهلاك لغيره».

على باب الفتوح سمع رزق مَن ينادي بأن كوجيك محمد أبطل الحمايات التي فرضها مماليك الإنكشارية والعزب، فهلل الناس فرحًا متمنين دوام سعد كوجك ورجاله، فلما سألهم رزق عن الأزهر، نظروا إليه بملابسه الغريبة وكلماته غير المفهومة وأخذوا يسألونه عن بلده؟ فقال: «بنزرت»، قالوا: «فيمَ مجيئك؟»، قال: «أنا رسول». ولم يعرف ما الذي جعلهم يخرون من الضحك، فغضب قائلًا: «كأنها القيامة»، فقالوا:

«رسول وتنذرنا بالقيامة أيضًا؟»، وانهالوا عليه ضربًا، ثم حملوه إلى بيت الكتخدا رجب، فحبسه رجاله حتى ينظر في أمره صباحًا، ورزق الله لا يعرف ما الذي فعله من أجل ذلك، ولم تمضِ ساعات حتى اصفرَّ الهواء واشتعلت الريح وامتلأت البلاد بالتراب، فانتشرت بين الناس إشاعة أن رسولًا تحدث عن القيامة في يوم الجمعة محبوس في بيت الكتخدا، فتجمعوا وذهبوا إليه لاطمين الخدود وناثرين التراب على الوجوه، والكتخدا يسأل بفزع عن كل حرف قاله أو نطق به هذا الرسول، ثم ذهب فأخرجه من محبسه وهو ينحني ويستقيم أمامه مرات ومرات، ورزق الله لا يفهم ما الذي يجري، وكلما قال جامعة الأزهر فهموها على أنها جمعة الأزهر، وكلما قال إنه رسول شقوا الجيوب ولطموا الخدود، ورزق الله ينتقل من بيت الكتخدا إلى بيت المستحفظان إلى الدفتردار إلى الباشا، ولا أحد يفهم من لغته ولا كلامه سوى ما ردَّده العامة، حتى أمر كوجك محمد باعتقاله إلى يوم الجمعة، فإن قامت الساعة فقد صدق وقامت على الجميع، وإن صلى الناس ولم تقم فقد أحل دمه، وحتى الجمعة ظل رزق الله عزيزًا مكرمًا يخدمه الجنود ويتمسَّح به الأثرياء قبل الفقراء، وهو لا يفهم من أمرهم شيئًا، فلما عبرت الجمعة جلس الناس في الجامع الأزهر ينتظرون القيامة حتى صلاة العصر، فلما صلوه خرجوا بشيخ الشيوخ إلى سجن القلعة طالبين قتل النبي المدعي، لكن شيخ الشيوخ قال: «لا بد من استتابته، فإن تاب يعذر، وإن استمر على دعوته يقتل»، فأتوا به إليه قائلين هذا شيخ الأزهر، فانحنى رزق على يديه يقبلهما، والناس ينظرون

لبعضهم على أن به مسًّا أو جنونًا، حتى أخرج لشيخ الشيوخ ورقة ملفوفة في جورب من الكتان، فنظر فيها الشيخ ولم يفهم منها شيئًا، فقد كانت بالخيمادو التي اخترعها أجداده الموريسكيون، نظر الشيخ إلى ملابسه الغريبة سائلًا: «هل يعرف أحدكم ملابس أي بلد هذه؟»، وكان من بين الشهود مجاورون من تونس والمغرب، فقال أحدهم: «تونس»، سأله: «هل تعرف حديثه؟»، فاستوضحه الرجل عن مكانه وأهله ورحلته، وفي النهاية نظر في الورقة قائلًا: «هذه لغة إسبانية بحروف عربية، لكنه يقول إنه موريسكي ممن أقاموا في بنزرت بتونس، وإنه أتى برسالة من أهله لسؤالكم هل يجوز للموريسكي أن يتزوج بغير موريسكية؟»، وكان شيخ الشيوخ قد تعب من اللغط الذي أثاره في البلاد، وشعر بالغيظ من الفتنة التي وقعت بسبب سؤال كهذا، فأجابه: «ليس للموريسكي أن يتزوج بغير أهله»، ولم يكد يبدأ في شرحه لجملته حتى دخل رسول من السلطنة في كوكبة من الجند قائلًا إن السلطان رزق بتوأم، ولا بد من ذبح الذبائح وإقامة الولائم وتعليق الزينة والأنوار ابتهاجًا بالأمر، فنسي الناس ما حدث وانشغلوا ببطونهم، ولم يتذكر رزق الله في غمرة الفرح غير الكتخدا رجب، ذلك الذي قال: «إليَّ بالموريسكي كي نتندر عليه قبل سجنه»، لكن العين الراعية همست لحفيدها أن يطلب منه البشارة، فبعد يومين سيكون له شأن كبير، ضحك الكتخدا قائلًا: «هل عدت إلى الجنون؟»، أشار رزق الله بيده: «يومان»، قال: «لن نخسر الكثير»، ثم أمر بسجنه حتى ينتهي من أفراح السطان، ولم تكد الناس تتذوق الولائم

حتى صدر أمر الباشا في القلعة العالية بتنصيب رجب كتخدا سنجقًا، فنادى في جنده أن يأتوه بالموريسكي فأطعمه وألبسه وسأله: «ما الذي كنت تفعله في بلادك»، قال: «كنت أزرع الأرض وأبيع ثمارها»، فأمر له بدار وقطعة أرض كبيرة في رملة بولاق.

31

عاش جدي رفيق باحثًا عن السلام طيلة حياته، فقد شهد بعد رحيل جدته هانم خوف والده سميح على الموريسكيين من غضب العين الراعية، رآه يبكي من أجلهم حتى كف بصره ونحل عوده ولزم فراشه حتى مات، شهد حزن جمال ابن عمه فخري على ابنه عفيف بعدما علم أن العين الراعية غير راضية عنه، مؤمنًا بأنه لا ينبغي أن يجتمع ظلمان على قلب رجل، فلما طمع عفيف في مصنع الزجاج تركه له، محذرًا إياه من أن يطغى ذات يوم على ميراث أخيه أسعد، فلما صودر المصنع منهما احتضن رفيق الأخير، وزوجه ابنته نجاة، واعدًا إياه بتقسيم ثروته ما بينه وبين ابنه يوسف، فلما مات أسعد ونجاة حمل ابنيهما ناريمان ووديع وجلس يبكي بكاء اليتيم، لكنه كان يوقن في قرارة نفسه أن عفيف ظُلم بمصادرة المصنع، وأنه لم يحصل على ميراثه من أبيه؛ لذا لم يعارضه حين جاءه طالبًا أبناء أخيه منه، كان يعلم أنه ما جاء من أجل ذلك، وأنه مهما حصل على مال فإن العين الراعية لن تتركه يتمتع به؛ فباع حديقة البيت الكبيرة لرجل أعمال أقام عليها «مولًا»، وأعطاه ثمنها مع ناريمان

ووديع كشفعاء له، عسى أن يخففا من غضب العين الراعية عليه، وظل واقفًا على قدميه في مواجهة الخطوب حتى رحل ابنه يوسف، فظل يبكي حتى كف بصره، ولزم غرفته لا يخرج منها حتى أيقن بالرحيل، حينها نادى عليَّ قائلًا: «يا مراد.. أبلغ أعمامك أنني أحتضر»، فهرعت أطرق الأبواب بقوة المستجير من رخ عظيم سيحط بجناحيه الكبيرين على البيت العتيق، كنت أطرق الأبواب بكل ما لديَّ من قوة لطرده: «جدي يحتضر.. جدي يحتضر»، هكذا كنت أصرخ، وأقدامي تركل الدرجات تلو الدرجات، حتى انتقل خوفي إلى صدورهم، فرأيتهم يهرعون بملابس نومهم كأن السماء ستنطبق على الأرض، أو أن الطائر الخرافي سينحني ليتخطفهم من غرفهم، ولا ملاذ لهم سوى حجرة الجد، حين وصلوا وجدوه جالسًا في أزهى ثيابه، متعطرًا بالمسك والريحان، فتعجبوا من نضارة وجهه وبهاء طلعته، هو بدوره ابتسم في وجههم وأخذ يحكي رحلة جده يونس بن محمد بن عبد الله من بلاد المغرب إلى حومة الأندلس بتونس الخضراء قائلًا: «كونوا كمَن تبعوه في رحلته، غير عابئين إلا برضاه عنهم، موقنين أن عينهم الراعية تسير في معيته لمحاربة اللصوص وزجر الضواري، منقذة لهم من قسوة الخوف على الأرواح، وبأس الجوع على الأبدان. من تطوان البعيدة بدأ وبالجزائر غير المأمونة مرَّ، وعلى هوامش بيوت الناس في بنزرت قال انزلوا فلا باي الجزائر يأخذكم لمحاربة السعديين، ولا السعديون في المغرب يقذفون بكم في هجير الصحراء لمحاربة أسودها، كونوا خلف عميدكم من بعدي كما

كان أجدادكم خلف يونس في ترحاله وظلمته، فإن قال انزلوا بأرض فاعلموا أنه مأمور بها، وإن قال اخرجوا منها فاعلموا أن سيف العين الراعية يشير إلى غيرها، تعلموا الصمت أكثر من الكلام، فإن ارتبتم في شيء فردوه إلى عميدكم، واعلموا أن التيه خلف العميد أكثر رضا للعين الراعية من الخروج عليه».

رأيتهم يبكون في ضراعة لا مثيل لها، موقنين أنه سيختار واحدًا منهم ليحمل الراية من بعده، رأيتهم ينكسون رؤوسهم والدموع تبلل الوجنات والآهات تحرق الصدور، حين أجهده الكلام توقف ليلتقط أنفاسه، ونهضت الجدة جنى من مكانها باحثة عن دوائه المهدئ، لكنه أزاح يدها وراح يكمل: «الله يعلم أنني أبصركم بعين قلبي، وأرى ما في النفوس وخلف الأجساد، وإني قد تلقيت أمرًا أعلم أنكم ستخالفونه، وأشفق فيه على عميدكم من بعدي، فأقسموا لي بالطاعة له قبل أن تعلموا اسمه»، فأقسموا بالله أنهم لمطيعوه، ولن يخرجوا عن أمره مهما كان، حينها تناول دواءه وعدل من جلسته في سريره وهو يقول: «رأيت بالأمس جدكم على جواده مسرعًا، وفي يده كتابكم بتمامه قائلًا: اقرأ، ففتحته على صفحة بيضاء لا أعلم ما بها، فإذا بالسطور تستقيم، والكلمات تتضح بحروف ما بين النار والنور وهو يهتف في. اقرأ. فوجدتني أقول: لما قضى رفيق نحبه جعلنا جنى وصية على الأبناء من بعده».

رأيت الوجوه تسود، والراحات تصك الجيوب، والعيون تنظر في العيون، بينما الهمهمات تعلو ثم تعلو، فقال. «أريحيني يا جنى»،

وكان ذاك إيذانًا بأن الرسالة انتهت، فسحبت الوسادة من خلف ظهره، ووضعت يدها على كتفه لتريحه في سريره، بينما تسحبت الأقدام من الغرفة إلى الصالة ودرجات السلالم، وراح الهمس يعلو ما بين متعجب ومستنكر، ولم تكمل الصدور نفث زفراتها حتى سمع أصحابها صراخ الخادمة، فأيقنوا أن الروح صعدت لبارئها وأنهم أمام عهد جديد.

كان الجميع يوقن أن جنى هي آخر مَن يمكن أن يكون عميدًا لهم، ربما لأنهم كانوا يتطلعون إلى انتقال العمادة من بيت حبيب الله إلى بيت عميه موسى وإسماعيل، وربما لأن جنى كانت طيلة حياتها مدللة لا تعرف الكثير من أمورهم، لكن الأيام أبرزت لهم نقيض ما توقعوه، فقد كشفت عن وجه حازم إلى حد القسوة في كثير من الأمور، فقد مسحت دموعها على زوجها ووقفت تشرف بنفسها على أداء الطقوس، غسلت جثمانه بيديها ونزلت إلى القبر مطيبة ثراه بالماء والنرجس، بعدها أمرت بفتح فيلا حبيب لتلقي العزاء، محضرة المقرئين وجالسة على أريكة جدها حبيب في أول الصفوف، حين انتهت أيام الحداد ارتدت ملابسها وذهبت إلى الوكالة لتجلس في مكان جدتها هانم وعمها سميح وزوجها رفيق، ورأى الموريسكيون ذلك غير حسن، فأخذوا يضعون العراقيل عسى أن تترك الحال كما تركه رفيق لهم، لكنها كلما فاجأوها بمعضلة تمكنت من حلها، فاستسلم الرجال موقنين أنها قد تكون أفضل العمداء، لكن غيرة النساء لم تستسلم، فكيف لجنى الساذجة أن تكون العميد، رحن ينفخن في النار موغرات الصدور، حتى إذا وضعت يديها في دفاتر

الحسـابات مواجهـة كل منهـم بأخطائـه وتجاوزاتـه انفجـروا ثائرين في وجهها، قالوا إنها مخرفة وإنها تسعى للخلاص منهم، قالت إنهم خراف تسيرها النساء، فجلسوا في بيوتهم تاركين أعمالهم منتظرين لجوءها إلى أبوابهـم، لكنهـا كانت مؤمنة بأن اليـد القوية أفضل من اليـد الضعيفة في ضبـط الأمور، فأحضرت عمالًا جددًا، وتجـارًا جددًا، وظلت في عملها مـن الصباح حتى المسـاء، لا تعـرف الكلل ولا تنصت لترهات النسـاء، لكـن ذلك لم يدُم طويلًا، ففي صباح مشئوم ارتدت ملابسـها وخرجت مع غبشـة الصبح لتذهب إلـى عملها، غير أن الأسانسـير الذي لم يُصب بعطل من قبل سقط بها في بئره السحيقة، لتبقى في المستشفى أيامًا ظنوا خلالهـا أنها فارقت الحياة، لكنها نهضت من جديد، وخرجت من موتها بكرسـي متحرك، قالوا إنها قـد أصابها العجز، فجمعـوا بعضهم وجاءوا خلـف ابن عمهـم قنديل بـن داءود ذي الصـوت الجهير، قـال: «يا جنى صحتـك اعتلـت، والعائلـة مشـكلاتها كثـرت، ولا بد من رجـل يتحمل الأعباء»، فابتسـمت قائلة: «وما الـذي ترون يا بن عمي؟»، خفف الرجل مـن حـدة صوتـه موضحًـا: «آن الأوان كي تسـتريحي وتختـاري عميدًا يحمل عنكِ الأعباء»، فهزَّت رأسها: «وهل توافقونني؟»، استبشر الرجل خيـرًا وفتـح فمه وعينيـه بالسـرور: «بالتأكيد يا خيـر العمـداء»، فما كان منهـا إلا أن صدمته: «العميد من بعدي هو مراد بن يوسـف»، نظر الرجل نحوي بدهشـة غير مصـدق: «لكنه صغير»، رفعت وجههـا عن المفرش النائـم على سـاقيها: «مراد العميد، وكل شـيء بكتـاب»، هنالك انتفض الرجـل من مكانـه كما لو أن ثعبانًا لدغه: «إنك تعقدين الأمور»، ثم خرج

لا يحـادث أحدًا ممن انتظروه ولا ينظر فـي وجه أي منهم، وحدي الذي شـاهدت دموعها تنزف منذ مسـحتها عقب وفاة رفيق، حين سـألتها عما يبكيهـا احتضنتنـي قائلة: «هؤلاء ضلوا الطريق»، ولـم يمضِ يومان حتى راحـوا يبلغونها بعزمهم على الرحيل قائلين: «نريد نصيبنا من حبيب الله كما أخذ عفيف نصيبه»، فباعت الوكالة ووزعت أموالها بالتسـاوي على الرؤوس.

نهض مراد من الشيزلونج غير قادر على حفظ توزانه، فتلمَّس ما يمكنه الاتـكاء عليـه، ولم يكن هناك سـوى صديقه الطبيب، في الشـارع تنسـم الهواء وقرر أن يسير إلى البيت، لكن الطبيب أصر على اصطحابه، وأمام تمثـال طلعت حـرب وقفا يتطلعـان إلى غلاف كتاب عن الموريسـكيين ومحنتهـم في مكتبة شـهيرة، توقـع الطبيب أن يدخل مراد لشـرائه، لكنه أشار إليه باستكمال سيرهما، ثم فاجأه بالسؤال عن مصير الجلسات التي يقوم بتسجيلها على شرائط لديه، فتوقف الطبيب عن السير سائلًا إن كان مـا يزال يراوده الشـك تجاهـه، لكن مراد قهقـه عاليًا ثم قـال: «لي رجاء لديك، إذا مت، أو حدث مكروه لي، فلا تتخلص منها، ولكن قم بنشرها على الناس، علَّهم يعلمون ما الذي حدث للموريسكيين وأعقابهم».

32

ظللت جالسًا بجانب جثة الأمير ابن عبو في كهفه حتى جاءوا، هم أيضًا لم يتأخروا طويلًا، فلم تمضِ بضع ساعات حتى ظهر ضوء الفجر خارج الكهف، كان الليل بطوله قد انقضى بين كرٍّ وفرٍّ، وشعر الجميع أن الهزيمة أحدقت بهم من كل جانب، كان الخبر الذي انتشر كالنار في الهشيم قد قصم الظهور التي تخيلت أن بمقدورها الصمود، الجميع تبلبل وفقد القدرة على الصواب، فقد أعلن الإسبان الخبر وتدافع الجميع ليتأكدوا منه، وكل مَن رآه في حالته هذه خرج مذهولًا مما يجري، متمنيًا لو أن الأمير قبل بشروط التفاوض، ولم يمضِ كثير من الوقت حتى حاصر الإسبان قمة الجبل، معلنين أن مَن سيستسلم سينجو بنفسه وأولاده من الموت، وأن مَن له أقارب في الأسر سيفرج عنهم، كان الأمر أشبه بكرة الثلج التي بدأت على استحياء ثم ما لبثت أن تزايدت واتسعت، في البدء تناول الناس الأمر باستنكار، ثم ما لبثوا أن قرروا التفكير، وراح كل منهم يسعى للزعامة في غياب الأمير، حاول فرناندو أن يثنيهم عن الاستسلام جازمًا بأنها خدعة، لكن الشنيش ظهر

برجالـه وراح يدعو لترك القتال، قال إنهـم أكبر قوة وعددًا، وإنهم علموا بمقتل ابن عبو ولن يسـمحوا لأحد بالفرار منهم، والاستسـلام الآن خير مـن انتظار الموت في الصباح. تبلبلت الأذهان وقرر الجميع أن يتصرف وفقًا لهواه، البعض أصر على اسـتكمال الحـرب إلى أن يموت واقفًا في مكانـه، فـلا رغبـة لديه في البيـع أو التعذيـب، لا رغبة لديه فـي ترك دينه والمـوت علـى ديـن النصـارى، كانت الكلمـات تخـرج عاليـة، وكأنها تحاول أن تثبِّـت أصحابها على مواقفهم، لكنها لـم تثبت غير القليل، فقد هجم الإسـبان فجأة، وصارت قمة البشرات منطقة حرب خاسرة، فسلَّم الكثيـرون سـلاحهم على السـفوح وفـي الشـعاب، ونزلـوا صامتين مع الجنود، ومَن لـم يستسـلم مات في مكانه، فصارت الشـعاب المؤدية إلى قمة البشـرات ممرات الوصول السـريع إلى المختلفين في مركز القيادة، هـؤلاء الذين ألقى بعضهم بسـلاحه معلنًا أنه سيستسـلم، ولـم يكن أمام الآخرين القدرة على منعه، لكن فرناندو قال: «إذا كان علينا أن ننسـحب فيجب أن نبحث عن قمة أخرى نتحصن بها قبل أن نترك لهم هذه القمة، وحتـى يتحقق لنا هذا فلا بـد من الاختباء في الكهـوف والأحراش حتى يعـودوا إلـى بيوتهـم»، وافقـه الجميـع علـى ذلـك وتوالـت الصيحات بضـرورة الانسـحاب، لكن الإسـبان كانوا قد وصلوا، نعـم وصلوا حتى قبـل أن يتـم التفكيـر فـي كيفية الانسـحاب، فقد نـزل الشـنيش وأحضر مجموعـة منهم في الوقت الذي كان علـى فرناندو أن يضع خطته لذلك، فوجئ به يطلب منه تسـليم سـلاحه، فسأله بأي سـلطة يطلب ذلك، ورد

عليه الشنيش: «سلطة إمارتي عليك»، ودهش فرناندو من الرد قائلًا: «ومَن الذي ولَّاك علينا؟!»، فأجابه بأنهم الإسبان، ومن اليوم لا أمير سواه، ثم أمره أن ينادي في الرجال بالاستسلام حقنًا للدماء، وكان ضوء القمر يلمع في السماء، بينما النيران تشتعل في الوديان والسفوح، ودخانها الخانق يملأ الأفق في كل مكان، فابتسم فرناندو وسحب سيفه بسرعة البرق في مواجهة صديقه القديم، وراح كلاهما يكيل الضربات للآخر، حتى أنهكهما التعب فوقفا يلتقطان الأنفاس، قال فرناندو. «إذًا فقد قتلت ابن عبو بأمر من أسيادك»، وأجابه بأنفاس متقطعة: «هو الذي قتلنا جميعًا بعناده، هو الذي جعلنا في هذا الموقف الضعيف، كان يجب أن يوقع المعاهدة التي تضمن لنا الحق في الحياة، لكنه لم يرَ سوى نفسه، لم يرَ سوى الإمارة ولو على أشلاء أناس مثلنا»، حين سأله فرناندو إن كان ذلك مسوغًا لقتل الرجل، هجم عليه قائلًا: «ومسوغًا لقتلك أيضا»، لكن فرناندو تلقى الضربة بمهارة، وظل يحارب كما لو أنه يدفع بالإسبان جميعًا بعيدًا عن قمة البشرات، ظل يضرب بعنف حتى سقط الشنيش أمامه، دون أن يدري كيف سقط، فألقى سيفه وفرَّ نحوي في الكهف قائلًا: «علينا أن نحمل جثة الأمير ونهرب من هنا، علينا أن ندفنه كما يليق به كأمير لنا»، فانتبهت إلى أنني يجب أن أتوقف عن البكاء كي أفعل شيئًا، فنهضت من فوري لأمدد معه الجثة في بساط بمنتصف الكهف، لكننا كنا قد تأخرنا كثيرًا، تأخرنا في كل شيء، حتى موت الشنيش نفسه جاء متأخرًا بعدما دلهم على مسالك الطرق إلى

القمة، فلم نستطع أن نسير بضع خطوات في الخارج حتى وجدنا أنفسنا محاطين بعشرات منهم، كانت سيوفهم مشهرة نحوْ أعناقنا وصدورنا، فتركنا البساط يسقط بالأمير ورفعنا أذرعنا في الهواء، ولا نعلم إلى أين سُحبنا لنجرد من كل شيء، فتاه كل منا عن الآخر، وتناولتنا أيدٍ ألقت بنا إلى أيدٍ، فصرنا نهرول أمام الهراوى من أعلى إلى أدنى، أيدينا خلف ظهورنا وأقدامنا تتعثر في الرمال والأحجار والأحراش والحصى، أقدامنا أصيبت بعمى غريب، فكلما خرجت من حفرة اصطدمت بصخرة، وكلما عدلت توازنها على جرف انهار بها آخر، كان السفح في هذه اللحظة الصباحية الباردة أشبه بأسراب قطط خائفة مذعورة، أسراب قطط مستأنسة في طوابير مرتبكة، لا أحد يفتح فمه، ولا أحد يصرخ أو يتمرد، الجميع مستسلم بشكل غريب، كما لو أنه كان ينتظر هذه اللحظة منذ سنين. في الأسفل، حيث كان حقل أبي القديم، وحيث كان فرناندو يعلمني الحرب بالعصا، كانت نقطة تجمع الأسرى، أوثقونا ببعضنا بعضًا، ثم أمروا برحيلنا، كان الدخان يتصاعد من كل فج، والجثث ملقاة في كل مكان، البعض كان ينزف ويحتاج لمَن يُسعفه، البعض فارق الحياة، والدماء تفترش الرمال والحصى وتسيل من فوق الصخور في خيوط رخوة متجلطة، ونحن لا نعرف إلى أين المسير، نساء وأطفال وعجائز وقلة قليلة من الرجال، بعد فترة وجدنا تجمعًا أكبر، كانت تأتية قطارات من نواحٍ أخرى، بعضها كان مقتصرًا على النساء فقط، بعضها كان مختلطًا ما بين النساء والأطفال والعجائز، هناك أعادوا ربطنا في

صفـوف طويلة، وراحوا يصرخون فينـا بالتحرك، على مقربة من البيازين كانـت سلاسـل الأسـرى تتزايـد وتكثـر، أوقفونـا هنـاك ليعيـدوا ترتيبنا وتنظيمنـا، ورأيـت مجموعـة كبيرة مـن الجند تحاصر جـوادًا عليه رجل وجهـه للخلـف، «هـذا ابـن عبـو»، صرخـت امرأة فـي وسـط الصفوف فارتفعـت الأعنـاق عـن الصدور لتنظـر مَن يكـون، نظرت معهـم فرأيته الأميـر وقد مال عنقه على صدره، فتذكرت أنهم قد اجتزوا رأسـه، وأنني سهرت أنعيه طيلة ساعات والحرب تدور في الخارج، صرخت: «الأمير قد قتل»، ولا أعرف من أين جاءتني الضربة التي ألجمتني، كان الحارس قـد نـزل بهراوته إلـى كتفي، شـعرت أن كـرة الحديد اخترقت ملابسـي ولحمـي وهشـمت عظامـي، فلـم أسـتطع أن أفتح فمـي، وكلمـا فتحته اشتدت عليَّ أضلعي، فصرت أبكي غير قادر على إخراج صوت للبكاء، أئـن فـي صمت وأمشـي في صمـت، وروحي تنسـحب منـي في صمت أكبـر، حين دخلنا سـاحة غرناطة وجدنا النصـارى يحيطون بنا، ويهتفون باسـم الملـك فيليبـي الثانـي، واسـم شـقيقه غيـر الشـرعي دون خوان، وبعضهـم كان يهتف على اسـتحياء باسـم رئيس محكمـة التفتيش بدرو ديسـا، بينما الطبول تقرع والأناشـيد تغنَّى، والموسـيقى العسكرية تتقدم عـرض الأسـرى المهانين، يتبعها ابن عبو القتيل على جواده وكأنه أسـير مهـزوم، ابـن عبو الذي رفض أن يموت ذليلًا أحيوه ليكللوا رأسـه بالعار بعـد موته، لكننـي كنت أدرك أنه الآن يضحك في سـمائه، يخرج لسـانه إليهـم قائلًا: «خـذوا الجثة فقد نجـوت بكبريائي»، رأيت شـبحه يطوف

بعيدًا وهو يلوح لأتباعه قائلًا: «هذا ما أردت أن أنجيكم منه، هذا ما لم أرد أن تنالوه على يدي»، بينما شبح الشنيش مقيد في حبل طويل بنهاية سرج جواد ابن عبو الطائر على الرؤوس، ورأس الشنيش مكلل بالشوك، ملطخ بالقار. في النهاية توقفت الموسيقى عن عملها، وظهر دون خوان على منصة كبيرة فهتفت الجماهير باسمه، هتفت بشجاعة لم تمتلكها من قبل، وكأنها وجدت نفسها في الهتاف، فتحدث دون خوان لهم في الساحة الكبيرة، ورجاله ينقلون عنه، كانت الأصوات تتوه ما بين الهتاف والضجيج، في النهاية أشار إليهم بإعدام ابن عبو على رؤوس الأشهاد، فأحضروا خشبتين كبيرتين متقاطعتين على هيئة عروس خشبية، وأوثقوا جثته عليها، وطوقوها بإكليل الشوك، وقذفوها بالحجارة من كل جانب، وفي النهاية تقدم سياف ببلطة كبيرة في يديه، ثم ضربه ضربة أطاحت بالرأس عن الجسد، لكن دمه لم يسِل، ولم يكن للجماهير المحتشدة بفرحة النصر أن تدقق في وجود دماء من عدمه، فقد تناوله الفرسان بأقدام جيادهم، ثم مال أحدهم بحربته فغرسها في الرأس، ورفعه كعلم دار به في الساحة أمام الجميع، معلنًا أن هذه نهاية الشيطان الرجيم، نهاية مَن يفكر في الخروج على جلالة ملك إسبانيا العظيم، نهاية ابن أمية وابن عبو وابن جهور وكل أبناء العرب والبربر الزنادقة المهرطقين، بعدها أُخذنا إلى ساحة الكنيسة، وتُركنا مقيدين طيلة اليوم وجزءًا كبيرًا من الليل الطويل، كنا نتبول في أماكننا نساءً ورجالًا، فالخوف وانعدام الكرامة أزهقوا فينا كل شيء، ولم يعد يشغلنا انتظار المصير، في

منتصـف الليـل تعاطف بعض الحـراس مع بكاء الأطفال والنسـوة، كان الخجـل يقتل بعضهن، والمثانة لا تعرف أسـيرًا من حـرٍّ، فأخذوهن إلى جانـب مظلم ليقضين حاجاتهـن، لكن الأطفـال كان احتياجهم مختلفًا، بعضهـم كان يبكي من الجوع، بعضهم كان يصرخ من الخوف، وقلة هي التي كانت ترغب في العودة إلى البشرات، والرجال ساكنون في أماكنهم كأنهـم أصيبـوا بالتبلـد والجمـود، فلا خوف ولا شـفقة ولا بـكاء، بينما العيـون جفت فـي محاجرها، وماتت من التلهف علـى رؤية بقية الأهل، بحثـت بنظـري عـن فرنانـدو فلم أجـده، بحثت في النسـاء عن هنـد ابنة الحبقي فلم أعرفها من بينهن، وبحثت في ذاكرتي عن أي شـخص أعرفه وما زال حيًّا فلم أجد سـوى أن رجفة البرد شـملتني، وسـقطت عيني في النـوم، فرأيت مَن يقف أمامي بجواده، يمـد لي يده في الظلمة قائلًا: «قم يا محمد، ما الذي أجلسـك هنا؟»، حين فتحت عيني لم أجده، ولم يكن أبـي، لكنه كان العـم باديث، ولا أعرف لمَ حلمت بـه، فهل وصلت أنباء هزيمتنـا إليـه، أم أننـي الـذي أرغب فـي الذهاب إليـه. في الصبـاح أتى الحراس ملقين بالخبز على رؤوسـنا، فنسـينا مأسـاتنا ووضعنا لقيماتهم فـي أفواهنا، كنا نلوكها في صمت، بينما ضحكاتهم تصم آذاننا، كنا نبتلع كمـا لو أننا نبتلـع بعضًا من عظامنا، متذكرين هيئة ابـن عبو ومَن تركناهم فـي حفرهـم مقتوليـن موزعي الأشـلاء، لـم تكن لـدى أيٍّ منـا رغبة في الأكل، لكنـه الجوع الذي لا يرحم، والخوف الـذي يدفعك للتخفي منه في أي فعل، نمنا من جديد على أنفسنا ونحن نرتعد من وطأة المجهول،

حتى أيقظونا ليكتبوا أسماءنا في كشوف طويلة، ومرَّ يومان حتى علمنا أن الملك أصدر قراره بتفريقنا في مقاطعات الشمال، صفونا عشرات وقسمونا على القرى الصغيرة، تلك التي لا تثور ولا تعرف معنى الثورة، تلك التي ارتضت بالصفقة تاركة دينها وتاريخها من أجل الحياة، أُخذنا في قطار طويل يحيطه الحراس بجيادهم وهراويهم ، فظللنا نقطع المسافة سيرًا تحت وطأة البرد والحزن والجراح التي وصلت مع البعض إلى حد الغرغرينا، كنا ندعو لبعض الحالات بالموت، وندعو لأنفسنا بالرحمة على أي الوجوه، فلم يعد بمستطاعنا أن نجر أنفسنا وغيرنا في سلاسل الموت البطيء، حين وصلت مع مَن تم إرسالهم إلى طليطلة وجدت الناس يخرجون من بيوتهم لينظروا إلينا، كانوا ينظرون بعيون باكية وقلوب حزينة، بعضهم كان شامتًا ويلقي بسبابه وبصاقه علينا، وبعضهم كان يتلو صلواته للمسيح وكأنه يبرئ نفسه من معرفتنا، كان من بين هؤلاء العم باديث، رأيته يمسك عصا ويضرب البعض مساعدًا الجند في ضبط الصفوف، حتى إنهم نهوه عن ذلك، فقد أصدر الملك أوامره باحترام الموريسكيين، وصاح جندي: «لا يجوز لأحد ضربهم سوانا»، ثم انهال بهراوته على كل مَن رآه ينظر خارج الصف. في ساحة كنيسة طليطلة، تلك التي أمضيت ثلاثة أشهر مع العم باديث في ترميم زخارف أسوارها وحوائطها، وقفنا بالمئات في انتظار توزيعنا على القرى التابعة للمدينة، سجل القساوسة أسماءنا وجاءوا بمندوبين من هذه القرى لتسلمنا، ذهبت مع ثمانية رجال وعشر نساء وسبعة أطفال

إلـى كنيسـة طَلَبِيْـرَة الواقعة على نهـر تاجُـهْ غربي طليطلـة، كنت أعرف الطريـق أكثـر من غيـري، فكثيـرًا مـا قطعته لإحضـار الأحـجـار الملونة والأكاسـيد المطلوبة لورشة العم باديث، في ساحة كنيستها الصغيرة جاء القـس بتقريعـه لنا أمام شـعبه، ثم صاح فيهـم: «مَن له حاجـة في أي من هـؤلاء الأنجـاس فليتقـدم ليأخذه في حمايتـه، لا يخرج مـن القرية دون إذنـه، ولا يعمـل في شـيء إلا بأمـره، وله نصف مـا يتحصله مـن أجر»، فتهافت الناس على تفحصنا كرقيق سيدفعون ثمنهم، بعضهم كان يفضل النسـوة ولا يرغـب فـي الأطفـال، بعضهـم كان يبحث عن الشـباب غير راغب في العجائز، في النهاية لم يبقَ سـواي وثلاثة عجائز وطفلين، كان الـكل يـرى أننـي رقيق الحـال لا أصلـح لشـيء فيبتعد عني، حيـن تقدم نحـوي رجـل بدين تفوح منـه رائحة السـكر النتن لم يُعطِـه القس فرصة للتفكيـر: «هـذا يناسـبك يـا خوليـو، يتمتـع بالطـول والجمـال والحزن المناسـب لمجالسـة ضيوفك»، ولـم يراجعـه خوليو، فقد هـزَّ كتفيه زامًّا شـفتيه وكأن الأمـر لا يعنيـه، ثـم تركنـا ودخـل غرفـة القـس ليوقع على اسـتلامي، ثم جرني خلف جواده موثق اليدين، حتى وصلنا إلى بيت من دوريـن، فنزل صائحًا في خدمـه: «خذوا هذا الحزين وأعدوه لمجالسـة الضيوف».

33

فـي واحـدة من مفاجآتـه الغريبة خـرج الرئيـس على النـاس بإعلان دسـتوري حصَّن فيه نفسه ولجنة الدسـتور ومجلس الشورى من الطعن، ممـا جعـل النـاس تصفه بأنـه الحاكـم بأمـر الله، فقـد أطـاح بالمجلس العسـكري عقب مقتل مجموعـة من الجنود المصريين برفح في سـيناء، كان مشـهد الإطاحة بالمشير ورئيس الأركان خياليًّا، فلم يحدث الصدام المتوقـع، ولـم تهتز شـعرة في الجيش لأجلهمـا، فقط جعلهمـا ينتظرانه بغرفـة مجـاورة لمكتبـه بالقصـر الجمهوري، واسـتدعى أصغـر أعضاء المجلس العسـكري مكلفًا إياه بـوزارة الدفاع، والتُقطت له عدة صور آن أدائه اليمين الدسـتورية، وفي الوقت الذي راحت نشـرات الأخبار تذيع النبـأ كان المشـير ورئيس أركانـه يتلقيان خبـر إحالتهما إلـى التقاعد من الرئيـس نفسـه، ولـم يكن في اسـتطاعة أيٍّ منهما الاعتراض على شـيء؛ لأنهمـا معزولان عن العالـم، وجنـود الحرس الجمهوري تحيط بهما من كل جانـب، وليس فـي الإمكان سـوى الخضوع لأنامـل الزعيم الجديد وهي تعلِّق على صدر كل منهما نوط الشجاعة التي لم يعملا بها في ذلك

اليوم. كان الخبر صادمًا للكثيرين وفي مقدمتهم الموريسكي الذي راح يصرخ أن القمر أوشك على الاكتمال، وأن الكونت دراكولا آخذ في التحول.

حاولت ناريمان أن تشرح له ما جرى في الكواليس، وأن الرجلين اللذين أدارا البلاد لعام ونصف لم يتمتعا بالذكاء الكافي، وكل ما فعلاه حين علما بعزلهما أن اتصلا بأصدقائهما من الأمريكان ليجيئهما الرد بأن الأمر شأن مصري خالص، لم تكن ناريمان راغبة في إظهار مشاعرها على الملأ، فأخذت ترتجف في أحضان مراد وهي تردد: «نعم دراكولا سيقضي على الجميع»، لكن رجل الأمن الحاصل على دكتوراه في التاريخ ظل هادئ الأعصاب قائلًا: «الحرب خدعة يا صديقي»، ولم يكن ذلك مرضيًا للموريسكي الراغب في معرفة ما الذي يجري في البلاد، فظل يضغط على فكيه غيظًا ورجل الاستخبارات يرسم شبح ابتسامة باردة: «الدولة أكبر من كل هذه الزوابع».

كان مراد موقنًا أنهم أصبحوا بمثابة دراكولا المتعطش للدماء، دراكولا الذي انتظر مئات السنين في الأقبية المظلمة حتى يخرج مع التقاء المريخ بالمشتري في قوس زحل، فمع اكتمال البدر يخرج أنصاره من السجون ليحملوا مومياءه على أيديهم، مرتلين التعاويذ المحفوظة على صدورهم كي يمنحوه حق العودة للحياة، حينها ستكتسي عظامه لحمًا ويكتمل في صورة رجل مشوه قادر على إعلان نهاية العالم، بادئًا

بتذويب المفاصل وإلغاء الحدود، ومنتهيًا بصك الجميع على شاكلة تشبهه، فلا يبقى أحد دون أن يصيبه الوباء.

كانت ناريمان شبه مختفية في هذه الأيام، وكثيرًا ما أغلقت هاتفها أو امتنعت عن الكلام، بينما مراد يشعر أن العالم من حوله على جمرة من نار، ولا يعلم ما الذي خبأته الأقدار في الكواليس، كان خوفه يتعالى كل لحظة من أن تصبح القاهرة مدينة للأشباح التي تلتصق بالأعناق ولا تتركها قبل أن تتحول إلى كائنات خرافية لا تعرف غير النزوع إلى الموت، وكان رجل الأمن الحاصل على دكتوراه في التاريخ الإسباني مختفيًا، ولا يُعرف له مكان بعدما ترك موقعه بدار الكتب، ومراد يبحث عمن يرشده إلى الصواب ويرفع عنه مخاوفه، ولم يكن هناك سوى الطبيب المختفي في عيادته، فأسلم نفسه للسير وسط المتظاهرين حتى وصل إلى باب اللوق، وعلى نقيض ما توقع وجد العيادة تعج بمرضى ينتظرون الدخول، كان أغلبهم صامتًا وعلى وجهه ملامح ذهول أو جنون، شعر مراد أنه يختنق وليس باستطاعته ترك الثورة في الشارع من أجل انتظار صديقه الغارق في عمله، فأبلغ مساعدته أنه سينتظره على مقهى إستراند.

كانت المناضد مكتملة العدد، وجميعها مشتعل بجدل يصل إلى حد الشجار، حتى الذين حاولوا أن يبدوا غير مهتمين بالأمر كانت قطع النرد تخرج من أيديهم كما لو أنها تبادل لإطلاق النار، بحث بنظره في المكان عن مقعد شاغر فلم يجد، وكاد يستدير عائدًا للشارع لولا أنه لمح

رجلين نهضا لدفع الحساب والخروج، كانت المنضدة التي تركاها في عمق المقهى فقطع المسافة إليها في لمح البصر، مناديًا على النادل كي يحضر له شايًا وشيشة، حين جاءه الأخير بما طلبه انتبه مراد إلى ملامحه المحفورة وأسنانه البارزة، فارتعد من فكرة أن يكون التحول قد بدأ في الناس، وأسلم نفسه لزخات متوالية من الدخان المتصاعد في فضاء ملبد بالضجيج، كان الجدل دائرًا حول ماهية الرئيس، البعض يراه مجنونًا وآخرون يرونه المهدي الذي سيملأ الأرض عدلًا، ظل مراد منصتًا للنقاش الدائر على المنضدة المواجهة له دون أن ينتبه للرجل الذي جلس معه على منضدته، كان في السبعين من عمره، طويلًا إلى حدٍّ ما، بدا كما لو أنه غريب عن المكان وجاء في مهمة محددة، حين استدار نحوه وجده يبتسم قائلًا: «لِمَ كل هذا الحزن يا بني؟»، للحظة لم يعرف بِمَ يرد عليه، فملامحه مألوفة وصوته الدافئ يرن في أذنه، فأجابه بسؤال: «مَن تكون؟»، وابتسم العجوز: «يمكنك أن تعتبرني جدك، فأخبرني عن سبب حزنك»، تحير مراد في الرد مستسلمًا للهدوء الذي تسرب إلى أعضائه وذهنه، وما لبث أن هز رأسه قائلًا: «أحوال البلاد والعباد يا جدي»، فألقى الرجل بعينيه على وجهه: «خائف؟»، هنالك انتابت مراد رجفة هزت كل ما فيه، ولم يعد يعرف إن كان بمقدور الجالس أمامه أن يفهم أسباب خوفه أم لا، لكن الرجل بدا كما لو أنه سمع ما يدور في ذهنه، فتنهَّد بعمق قائلًا: «خلقنا من خوف إلى خوف، ولا ينفع حذر مع قدر، فكل شيء بكتاب؟»، هزَّ مراد رأسه مؤمِّنًا على الكلام، وشرد بذهنه متذكرًا الجملة التي اعتادت جدته على قولها: «كل شيء بكتاب»،

رفع رأسـه ليسـأل محدثه عن هذه الكلمة التي توارثتها العائلة أجيالًا بعد أجيال، لكنه لم يجده، دار بعينيه سـريعًا في المقهى بحثًا عنه، على البعد رآه من ظهره خارجًا من الباب، فألقى بما معه من نقود على المنضدة وفرَّ ليلحق به، لكن الزحام كان قد تضاعف في الشارع، والناس بدت كما لو أنهـا أمواج بحر غاضـب، جال بنظره بينهم بحثًا عـن العين الراعية، تلك التي ذابت مع النسـيم المتدفق من النيل إلى سـراي عابدين، بينما صوتها يرن في أذنه كالصدى: «كل شيء بكتاب».

تسـحبت يده على السـور الحديدي للسـلم كأنها تتلمس منه الأمان، وأخـذت أقدامه تضرب بوضوح الدرجات الرخامية كأنها تطرد أشـباحًا تتقافـز من حوله، كان همه الآن هو الصعود بأسـرع ما يمكن للجدة التي تنـام في الظلام، حيـن فتح الباب وجد ضوءًا خفيفًا يتسـرب من غرفتها، تلبَّسـه الفزع لكنه سرعان ما لملم شتات نفسه ودخل لمواجهة المجهول الـذي لا يعرفـه، فوجـئ أن ناريمـان جالسـة بجانبهـا وفي يدهـا بطارية صغيـرة، لم يعرف إن كان عليه أن يحتضنها أم يثور غاضبًا لاختفائها عنه كل هـذا الوقت، لكنهـا فاجأته بثورة أكثـر غضبًا، متهمة إيـاه باللا مبالاة وعدم القدرة على تحمل المسئولية، سائلة كيف له أن يترك جدته في هذا الوقت وهذه السـن ليغوص في غمار المتظاهرين، بدا لنفسـه أنه شخص موصـوم بالخطأ، وأن فشـله وضعفه لا حدود لهما، فتسـحبت أقدامه به إلى الظلام، ليلقي بنفسـه في فراشـه باكيًا كطفـل عاجز عن الكلام، حين جاءت لتعتذر عمَّا فعلت سـمعت نشيجه المكتوم، فتصاعد غضبها عليه

من جديد: «توقف عن هذا، فلم تعد صبيًّا، ولن تبقى طيلة الحياة مدللًا»، رفع رأسه ليسخر من كلماتها لكنه وجدها تسقط بجانبه في نوبة بكاء مرير، شعر أنها تحمل على كتفيها أكبر منها، فأخذ يربت كتفها متسائلًا عما حدث، قالت: «آن الأوان لنحصل لنا على وطن»، مسح عينيه ونظر في الضوء الشحيح بالمكان إلى وجهها: «كيف؟!»، تنهدت كمَن يلقي باعتراف أخير: «الموريسكيون يعدون لمؤتمر سيطالبون فيه الإسبان بمنحهم الجنسية مثلما منحوها لليهود، ولا بد أن يكون لآل جهور ممثل هناك».

34

صرت في بيت خوليو البدين خادمًا لضيوفه السكارى، كان ذلك من أبغض الأمور إلى نفسي، فأنا أمسح الأرض وأحمل النبيذ وأقدم الخبز والنساء لهم، كنت أستغفر الله في صدري عشرات المرات كلما طلبوا مني شيئًا، وظللت أشعر بالمهانة كل لحظة حتى شاءت الأقدار أن التقيت ثابيرا دي قرطبة، ذلك الذي طلب من البدين أن يبحث عمَّن يقص عليه الحكايات القديمة، كنت أنظف مائدة بالقرب منه، ولم يكن لدى خوليو أي من الشعراء أو الحكائين، فأخذ يعتذر للرجل مؤكدًا أنه سيحضر واحدًا منهم، لا أعرف كيف واتتني الشجاعة لأقول: «يمكنني أن أحكي لك عن ملوك الأندلس»، فنظر خوليو بغضب تجاهي، لكن ثابيرا ابتسم سائلًا: «هل تعرف حقًّا؟»، نحيت خوليو جانبًا وأنا أقول: «جربني»، غير أن البدين لم يعجبه ذاك السلوك، فأزاحني قائلًا: «هذا الموريسكي لا يعرف غير التمجيد في أهله، ولن يفيدك إلا في تعكير صفوك وإشعال الفتنة في المكان»، احمرَّ وجهي وغلت الدماء في عروقي وكدت أضربه بما في يدي، لكنني خفت العواقب، وما بين الرغبة في الثورة عليه

والخوف من عقابه اختنق صوتي وغلبتني الدموع، فنهض ثابيرا ليُجلسني على كرسيه، قائلًا له بغضب مكتوم: «أهكذا ستجعلونه مسيحيًّا صادقًا، أم أنكم جميعًا ترغبون في أن تكونوا أعضاءً بمحاكم التفتيش، إنكم لا تتركون لأمثاله سبيلًا سوى أن يضعوا خناجرهم في أعناقكم ذات مساء؟»، حينها شعر خوليو بالخوف وارتبكت كلماته وهو يبرر موقفه، ووصلني خوفه وهو يتباسط معي طالبًا زجاجة نبيذ أخرى لثابيرا، لكن الأخير أصرَّ على أن يحضرها خوليو بنفسه، ثم استدار لي قائلًا: «كلي آذان مصغية»، أخذت نفسًا طويلًا قبل أن أبدأ قائلًا: «كان الخليفة هشام المؤيد آخر خلفاء بني أمية، تولى مُلكه في سن صغيرة، فلما أطاح به المستعين وحبسه في سجن الإمارة، أرسل سرًّا لعلي بن حمود قائلًا: لك ولاية العهد من بعدي، على أن تخرجني من السجن، أو تأخذ بثأري إن أصابني المستعين بمكروه، فجمع علي رجاله وخرج داعيًا لنصرة هشام المؤيد، جاوبه كثيرون وانضموا لدعوته، فخرج بجيشه من ملقة قاصدًا قرطبة، فلما انتصر على المستعين أحضره بين يديه سائلًا عن الخليفة، لكن المستعين قال: قتلته، فأمر علي بضرب عنقه أمام الناس، وجلس في كرسي الإمارة داعيًا الناس لمبايعته، وملقبًا نفسه بالخليفة الناصر، بادئًا عهده بالتقرب من أهل قرطبة، وإبعاد البربر عن حكمه حتى دانت له المدينة وأحوازها، لكن البربر قتلوه وأرسلوا لأخيه القاسم أن يأتيهم ليستلم الخلافة، متخطين حق ابنيه يحيى وإدريس في الحكم، فما كان من يحيى إلا أن جهَّز جيشه وخرج من ملقة لملاقاة عمه القاسم في قرطبة،

وشعر الأخير أن البربر لن يقفوا بجانبه، فترك المدينة دون أن يتنازل عن الخلافة وفر إلى إشبيلية حيث ترك ولديه يحكمانها، فبايع الناس يحيى ابن علي بن حمود ولقبوه بالمعتلي، فارتمى في أحضان البربر حتى تضرر الناس من أفعالهم، فلما فكر في تقليص سلطاتهم قاموا بخلعه، وأرسلوا من جديد لعمه القاسم أن يأتي ليحكم قرطبة، فجاءهم وهو موقن أن سلطتهم في الحكم أعلى من سلطته، فتركهم يفعلون ما يريدون في الناس، حتى ضجروا منه ومنهم وقاموا بالثورة عليه طاردينه ومَن معه من البربر، مغلقين أبواب مدينتهم في وجوههم، فحاصروها حتى تضوَّر أهل قرطبة من الجوع، ولم يجدوا أمامهم غير الخروج لحربهم، ففتحوا أبوابهم وأخذوا يطاردونهم حتى فرقوا شملهم، مجمعين أمرهم على ردِّ الخلافة إلى بني أمية من جديد».

في نهاية الليل كان ثابيرا قد ترك مبلغًا كبيرًا من المال مكافأة لي، فودعته مع خوليو حتى باب الخان، مرحبين بعودته ليستمع للمزيد في أي وقت، لكن خوليو جذبني من عنقي معنفًا: «هل آويتك عندي لتنقل الفتنة من غرناطة إلى طلبيرة؟»، ولم تكن لديَّ رغبة في إفساد ليلتي الجميلة، فمازحته: «وهل كنت تريدني أن أحكي قصص القديسين وخرافاتهم؟»، فتوقف عن غضبه سائلًا: «وهل تعرف شيئًا منها؟»، وجدتها فرصة لأنقل نفسي من منزلة الخادم إلى مرتبة الشاعر، متذكرًا القصص التي نسختها في بيت العم باديث، فقلت بفخر: «أعلم الكثير»، ولم أكن أتوقع أن

يتحول خوليو أمامي فجأة إلى كلب ذليل، فقد نهض من مكانه وأخذ يقبل رأسي قائلًا: «أنت من الآن صديقي، وشاعري المفضل».

في اليوم التالي وجدته وضع تختًا في صدارة المكان، وأرسل لي بثياب جديدة معطرة، وقبل أن أدخل على الناس وجدته يقول: «الليلة سيمتعنا شاعرنا الكبير ألبرتو دي قرطبة بقصة القديس أنطونيو الشجاع»، ثم دفع بي نحو الأريكة بين تهليل وصياح من السكارى، ولم يكن في ذهني شجاع ولا ضعيف، لكنني اختلقت كلامًا سرعان ما وجدته ينتظم حول قديس يدعى أنطونيو، خرج من بيته قاصدًا الانضمام لجيش الإمبراطور، غير أنه ضلَّ الطريق ودخل قرى الموريسكيين على الجبال، ولم يكن معه سوى عصا يتكئ عليها، فلما علم الموريسكيون بأمره خرجوا عليه بأسنانهم التي تقطر دمًا راغبين في قتله، حينها لجأ لكهف صغير كي يحتمي به، فأشعلوا النار ببابه ليقتلوه، فما كان منه إلا أن استحضر المسيح في عينيه، وبكى متضرعًا حتى تحولت عصاه إلى سيف على هيئة صليب كبير، أشار به إلى النيران فتراجعت أمامه، وخرجت تطاردهم حتى عادوا إلى بيوتهم، وأخذوا يجتمعون حول شيوخهم قارئين تعاويذهم السحرية مستنجدين بالمردة والشياطين، لكن القديس أنطونيو كان شجاعًا، فكلما خرج عليه مارد أخذ في محاربته حتى قضى عليها جميعًا، ثم اقتحم البيوت المحفورة في الجبال مشعلًا فيها النيران باسم المسيح، حينها خرجت الشياطين كأسراب الجراد الهائم في الهواء، فأخذ يجمعها في مخلاته ويلقي بهما إلى وادي

الكلاب المشتعل بالنيران المقدسة، ثم جمع مَن بالقرية وأمر كلًّا منهم أن ينزل لينتشل مارده من الجحيم، فكان كلما نزل واحد التهمته النيران باسم المسيح، فلما انتهى من القرية وشياطينها انتقل لغيرها لينظفها من المردة والوحوش، حتى فتح الطريق لجيوش البابا الذاهبة لتخليص بيت المقدس من حكم الزنادقة الملحدين.

كان السكارى يرسمون علامة الصليب على صدورهم ووجوههم وهم يتابعون خرافاتي عن أنطونيو الشجاع، بينما خوليو يجلس منتشيًا في ركنه وكأنه بعث من جديد، فقد زادت مبيعاته وكثرت التحايا باسم القديس الشجاع، وصاروا كل ليلة يطلبون مني أن أحكي لهم عن قديس جديد، والبدين يزيد في مكانتي لديه، كنت أبتكر شخوصي هازئًا من خرافات محاكم التفتيش، والسكارى يهللون لاسم القديس الأريب أو الشجاع، الشخص الوحيد الذي لم يهلل لشيء هو ثابيرا، فقد اعتاد الجلوس في مكانه متابعًا ما يجري إلى أن تنتهي قنينته فيلقي للبدين بأكثر من حسابه ثم يفر خارجًا من الخان، وظل على هذا الحال حتى حضر في يوم مبكرًا قبل الجميع فسألته: «هل تريدني أن أحكي لك عن القديسين ومعجزاتهم؟»، فضحك ساخرًا: «مثلي لا يسمع لهذه الترهات»، حينها سألته: «ألا تؤمن بقدراتهم؟»، فضحك ثم وضع عينه في وجهي هامسًا: «ليس لموريسكي أن يؤمن بالخرافات»، أصابتني جملته بالدهشة والفرح، فهو آخر مَن كنت أتوقع أن يكون موريسكيًّا، ربما لأن كل مَن عرفتهم منهم كانوا فقراء مستضعفين، فوجدتني أقول: «موريسكي

وثـري؟!»، فابتســم موضحًا أن والـده كان تاجـرًا كبيرًا، وأنه شـارك في حرب البيازين، وحين هاجر إلى البشـرات تركها ليقيم بين المدجنين في طليطلـة، «وهناك زادت ثروتـه، وورثت التجارة عنـه»، يومها علمت أن العم باديث لم ينكرني حين رآني في الكنيسة بطليطلة، لكنه تتبع أخباري حتـى علم أنني صـرت لدى هذا البديـن، فاتصل بثابيرا كـي أكون تحت عينه وسـمعه، حين سـألته عن أخبـار طليطلة ومَن بها هزَّ رأسـه: «الهرم زحف على باديث، والورشة هجرها مَن فيها»، تسرب الحزن إلى نفسي، واجتاحنـي الشـوق لرؤية باديث وزوجتـه وبيلارا، قلـت: «أريد رؤيته»، قـال: «محاكـم التفتيـش تترصد الموريسـكيين فـي كل مـكان»، فطفت سـحابات الحـزن على وجهي ولزمت الصمت حتى قـال: «لكل معضلة حل، فصبرًا آل جهور».

ظللـت أنتظره كل ليلة حتى يئسـت مـن مجيئه، وأيقنـت أن مصيري البقـاء فـي ذلك الخـان حتـى نهاية حياتـي، لكننـي فوجئت ذات مسـاء بالبديـن يصعـد إلـى غرفتي ووجهه مسـود كأنه بشـر بموت عزيـز عليه: «ثابيـرا يريـدك»، فتهلل وجهي وغيرت ملابسـي ونزلت لألقـاه في ركنه المعتـاد: «ظننتـك نسـيتني»، فـرد ضاحكًا: «مـا كان لـي أن أجيئك دون أن يُقرئك باديث السـلام»، فأخذت أسـأل متلهفًا عن أخباره وهو يقول: «ليـس قبـل أن تحكي لـي عما حدث في قرطبة بعد القاسـم»، فجلسـت علـى الأريكـة قائلًا: «طـرد القرطبيون القاسـم بـن حمود ومَـن معه من البربـر مجمعيـن أمرهم علـى رد الخلافة لبنـي أمية، وجلسـوا يخايرون

أنفسهم ما بين محمد بن العراقي وعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار وسليمان بن المرتضى، متوافقين على اختيار المرتضى خليفة لهم، لكن عبد الرحمن بن هشام دخل عليهم بجنده طالبًا البيعة لنفسه، فبايعوه تحت السيف ملقبينه بالمستظهر، فما كان منه إلا أن وضع العراقي وابن المرتضى في سجن قصره، وأرسل للثغور أن يأتوه ولاتها بالبيعة فرفضوا، وأمسكوا أموالهم عنه، فأخذ أموال الأثرياء لينفق بها على جنده، وزاد في أمره أن استقبل البربر في قصره، فأيقن الناس أن ثورتهم على القاسم ورجاله ذهبت مع الريح، فنهضوا في حشود ليخرجوا المعتقلين من السجن، نازعين عبد الرحمن بن هشام من كرسي الخلافة حاكمين عليه بالموت، ثم بايعوا ابن عمه محمد بن عبد الرحمن بن الناصر بالخلافة، ملقبينه بالمستكفي، غير أنه سرعان ما أساء السيرة، مضطهدًا أولي الرأي حتى فروا لاجئين إلى يحيى بن حمود في ملقة، فثار الناس من جديد وطاردوه حتى فرَّ بنفر من رجاله إلى إقليج، وفيها سألوه عمَّا حمله معه من المال لهم، فلما لم يجدوا معه شيئًا قتلوه وفروا هاربين، فظلت قرطبة دون خليفة حتى جاءها يحيى، لكنه كره البقاء فيها، فعين لحكمها وزيريه أحمد بن موسى ودوناس بن أبي روح، تاركًا معهم حامية من البربر لحفظ الأمن، ثار الناس على البربر من جديد، طاردينهم من مدينتهم ومعهم وزيرا يحيى، ثم بايعوا هشام بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر بالخلافة، فحكمهم عامين من مدينته في ألبونت، ثم جاءهم ليتلقى منهم البيعة من جديد، وظن الجميع أن عهد الفوضى انتهى، لكن وزيره الحكم بن سعيد القزاز جمع السفلة من

حولـه، وأطلق العنـان لأهوائـه، فاضطربت الأحوال وامتعـض العقلاء، وكرهـوا الخلافة وبني أمية مثلما كرهـوا البربر وحكمهم، فأجمعوا على إنهـاء عصـر الخلافة وتولية واحد مـن بينهم، ولم يكن هنـاك غير الوزير أبـو الحـزم بن جهور مؤهلًا لذلـك، غير أنه قال لهـم: ابحثوا عن غيري، فربمـا وجدتـم مَن هو أصلـح مني، فـردوا عليه: لـو وجدناه مـا جئناك، فقـال: لكننـي لن أغـادر بيتي، ولا أترسـم برسـوم الخلافـة أو الحجابة، ولا أقطـع بـرأي دون رأيكـم، فقالـوا: مـن أجل هـذا جئناك، فاسـتقرت الأحوال ونشـطت الأسواق وسميت دولة بني جهور بدولة الرأي وحكم الجماعة».

جلـس ثابيـرا طيلـة الحكـي يصفـق مبتسـمًا، بينمـا خوليـو يتميَّـز غيظًـا فـي مكانـه، منقـلًا عينيـه بيـن الضيـوف كمـا لـو أنـه يبحـث عن مفتشـي الكنيسـة بينهـم، حيـن أنهيـت قصتـي نزلـت بجانـب ثابيـرا: «خوليـو سـيجعلها ليلـة سـوداء»، هكـذا قلـت، فرفـع ثابيـرا كأسـه في الهـواء مزيـدًا من حنق البديـن، ثم همس فـي أذني: «هذا كلب وسـادته لا دين لهم سـوى المال، فلا تنشـغل به»، هززت رأسي وأنا أضحك من جملتـه، لكنني وجدت خوليو قائمًا على رأسـي يقـول: «جاء اليوم الذي أنـزل فيـه لأمثالـك الخمـر»، فأغلقت فمـي متوقعًـا بيعي غدًا في سـوق الرقيق، أو تجديفي على سـفينة متهالكة فـي طريقها للعالم الجديد، ولم يخب ظني كثيرًا: «غدًا سـأعيدك إلى الكنيسـة»، هكذا قال وأنا أنظر إلى ثابيرا مسـتجيرًا، لكـن الأخير التزم الصمت، ولـم أعـرف إن كان عليَّ أن أضحك أم أجثو على قدمي طالبًا من البدين العفو، ولم يكن أمامي سوى

أن ألقي في جوفي بمزيد من الخمر متذكرًا باديث وبيلارا وفرناندو، فرحت أنشد:

أيها الراكبُ الميمِّم أرضي   أقرئ من بعضي السَّلام لبعضي

ظللت أشرب علّي أنسى ما ينتظرني في الغد، فرأيت وجه أبي وهو يردفني خلفه على الجواد منطلقين من قريتنا في رحلة لا تنتهي بين السهول والهضاب، رأيت باديث يعلمني كيف أحفر الخشب على هيئة الجص ملائكة وشياطين، وفرناندو الجريح يبكي دون أن أدري كيف تفرقت بنا المصائر، بينما بيلارا تجلس على سلم بيتها قائلة: «سننتظرك على حالنا»، فلا أعرف أهي التي قتلت سفوح البشرات أم هند ابنة الحبقي، رحت أصرخ في أبي الجالس في ركنه المظلم: «كيف عدنا من جديد غرباء؟»، وثابيرا يهتف في البدين. «أنت قاتل»، والآخر يلطم على وجهه: «توقف عن محاباة هذا الحقير»، واستغرق الأمر كثيرًا من الرجفة والبكاء، حتى حملني الخدم إلى غرفتي، وأنا أصحو وأغفو ما بين طليطلة والبشرات، وأبي يحملني على جواده نحو قمة تجلس في أعلاها بيلارا بوجهها المشرق، وطفلها الصغير يصيح: «مَن أنت كي تبكينا جميعًا»، وأنا أهتف: «إن رأيتم فرناندو فأبلغوه أن الثورة لا تحنو على الضعفاء».

في الصباح انتبهت على جسدي وهو يهتز فوق بغل عجوز في طريقه للكنيسة، رأيت البدين يقول للقس: «أرسلوه للجحيم»، فقلت إن الجحيم أفضل عندي من رؤية هذه الوجوه، لكن ثابيرا جاءني بخدمه فحملوني

إلى بيته، ثم تركني وغاص في ظلمة ردهة بعيدة، بعدها رأيت باديث وفي يده صبي يهرول نحوي، هممت بالقيام لاحتضانه، لكنه ألقى بنفسه على صدري وراح يبكي، جاوبته بكاءً ببكاءٍ وعناقًا بعناق، بينما حفيده يسأل: «مَـن هـذا يا جدي الذي تبكينـا لأجله»، فرفع باديث رأسـه عني: «هذا يا بدرو عمك محمد، ابن شقيقي عبد الله بن جهور».

35

كان علـى رزق الله أن يتخذ أول سـفينة متجهة إلى تونس بعدما رأى جـده غاضبًا، فقد اسـتقر في البيت الـذي منحه له السـنجق رجب، وقام بزراعة الأرض التي خصه بها، منتظرًا أول حصاد منها، كان قد نسـي في غمـار فرحة الناس به وأنسـهم له ما قد جاء من أجلـه، لكن جده زاره في المنـام قائـلًا: «مباركة الأرض التي أنت زارعها»، فـي البدء قال إن العين الراعية راضية عنه، غير أنه ما لبث أن رأى جده من جديد ضاربًا باب بيته بسـيفه الطويل: «أين وعد الحر لأهلـه؟»، حينها انتفض من نومه فارتدى ملابسـه وأخذ يطرق باب السـنجق طالبًا الإذن في الرحيـل، «أأغضبناك في شـيء أيها الموريسـكي الطيب؟»، هكذا قال رجب، فبكى رزق: «ما شهدت معكم سوى الخير، ولا أظنكم تريدون لي سواه»، فنهض السنجق محتضنًا له: «عِدنا إذًا بأن تعود لنا»، غير أن رزق الله خشي أن يقطع بوعد جديد لا يسـتطيع الوفاء به، فتعلل بطول الطريق وكثرة العثرات ، ضحك السنجق: «ما نريد سوى وعد، إن تيسر فقد وجب عليك»، ثم أخرج كيسًا من الذهب قائلًا: «هذه هديتنا لأهلك في بلادهم البعيدة».

حين وصل إلى حومة الأندلس بحث عن أهله فلم يجدهم، سأل عنهم فقيل له الربيع وعمار باعا محصولهما على الشجر لتاجر من بنزرت، ووقعا له على أوراق تضمن له عدم الرجوع في بيعهما، فأحضر رجاله وعبيده وحصدوا الثمار، لكنهم لم يتركوا الأرض، فلما سألوا عن السبب قيل لهم إنهم وقعوا على عقود ببيعها، وإن هذه الأرض لم تعد الآن أرضهم، فغلت الدماء في العروق وتشاجروا، فجاءت الشرطة وحملت الجميع إلى بيت القاضي، قال الأخير إن العقود صحيحة وإن عليهم الاعتذار للرجل وعدم الدخول إلى أرضه من جديد، فلم يتمالكوا أعصابهم وراحوا يصرخون فيه بأنه قاضي سوء يحابي مَن يدفع له، فانتفض الأخير من مكانه قائلًا: «لم يبقَ إلا النصارى كي يشككوا في ديننا وذمتنا»، آمرًا رجاله بجلدهم ليكونوا عبرة للجميع، فشاع الخبر بأن الموريسكيين تنصَّروا من جديد، وأن القاضي يردهم إلى دينهم، وغلب الشيطان على العقول فتجمع الفضل والربيع وأبناؤهما مقررين إعادة أرضهم بالقوة، موسعين العبيد ضربًا حتى فروا إلى سيدهم، فأصدر القاضي أمره بترحيلهم عن بيوتهم من حومة الأندلس.

فكر رزق الله في الأمر مدركًا أنه لا يملك من القوة غير الحيلة، فحمل هدية السنجق رجب في يده وذهب إلى والي المدينة قائلًا: «ما كان لأهلي أن يعرفوا العربية وقد تربوا بعيدًا عن ديارها، وما كان لهم أن يبيعوا أرضًا أصلحوها بأيديهم بعدما فقدوا أرضهم وبلادهم»، فنظر الوالي إلى زيه ورسمه قائلًا: «على رسلك يا رجل، من أين جئت وفيمَ

كل هذا الغضب؟»، أخرج رزق كيسه وأخذ يمرر قطعه الذهبية بين يديه موضحًا: «جئتكم من والي المحروسة طالبًا الصدق والعدل»، فأفسح له الوالي بجانبه وأخذ ينصت لقضيته، ثم صاح في قائد شرطته: «الطيور المهاجرة لا بد أن تعود إلى بيوتها».

في الصباح جلس رزق الله يستقبل أهله وهم عائدون من سهول بنزرت ومجيردة وقرى نابل وزغوانن، كانت بيوتهم على ما تركوه عليه، كأن الشرطة والقاضي لم يكونا سوى حارسين عليها، فتدفقت دموعهم وهم يقبلون كل جزء فيها، وجلسوا يشكرون رزق على فعله الحسن، لكنه قال: «ليس للموريسكي أن يتزوج بغير أهله»، حينها تذكروا فيمَ أرسلوه، وشعروا بالخجل وغضب العين الراعية عليهم، فما حاق بهم ما كان إلا غضب عليهم، فنهض الربيع من مكانه طالبًا الغفران، فما أرادوا إلا الخلاص منه، خوفا من رعونته وطمعًا في أرضه، لكنهم لم يجنوا سوى الخراب والبوار، حينها صرخ الفضل في أبيه الربيع وعمِّه عمار أنهم محض خونة جبناء، وكاد الشجار بين الموريسكيين يصل إلى حد القتل في ذلك اليوم، حين هدأت الأعصاب وعاد كل إلى رشده تناوب الربيع وعمار على الاعتذار لرزق الله مقبيلن رأسه ويديه، لكنه قال: «لقد أبدلني الله أرضًا خيرًا من أرضكم، ودارًا أفضل من دياركم، ولا أريد منكم سوى أن تزوجوني إحدى بناتكم، فليس للموريسكي أن يتزوج بغير موريسكية»، فزوجه عمه الربيع ابنته أمان الله، فبنى بها في دار أبيه، ثم حملها معه على السفينة الذاهبة إلى الإسكندرية عائدًا إلى المحروسة.

ظلت الجدة جنى تحكي لمراد والطبيب عما جرى لـرزق الله مع أهلـه حتى داعب النوم جفنيها، فتثاءبت ونظرت في عين الطبيب قائلة: «ألا يستحق هذا أن يكون في كتاب؟»، فنظر الطبيب ومراد لبعضهما مبتسمين وخرجا إلى شرفة البيت بحثًا عن الهواء الطري، هنالك قال مراد لصديقه: «رأيت مرضاك قد كثروا»، فاتخذ الأخير سمت الحكماء وهو يقول: «الناس في الأزمات يبحثون عمَّن يخفف من هواجسهم»، رفض مراد أن يكون ذلك كل عمل الطبيب، وعلق الأخير بأن ثمة أنواعًا من القلق تموت باستسلام الناس لها، ودور المعالج لا يخرج عن التمهيد لذلك، تعجب الموريسكي من أن يكون الاستسلام حلًّا، ووافقه صديقه بأن ذلك في الظاهر يبدو كحل، لكنه بالتكرار يتحول إلى مرض أبرز أعراضه هو السلبية والعدمية، أخذ مراد يبحث في ذهنه عمَّن تنطبق عليه هذه الأعراض، فوجد نفسه وكل مَن يعرفهم بمَن فيهم الطبيب الذي يعيش شبه منعزل عما يدور حوله من أحداث، وكأنه موريسكي يعيش أسفل جلده، فسأل ساخرًا: «هل أنت موريسكي؟»، وعلى نقيض ما توقع فوجئ بعيني الطبيب تروغان بعيدًا، كما لو أنه يهرب من شيء ما. «أنا.. أنا»، هكذا قال بارتباك ودفعت ضحكته الباهتة مراد لأن يعاود الضغط من جديد، وأمام إصراره وجد الطبيب نفسه يقول: «ربما، فأنا لا أعرف لي عائلة غير أبي الذي مات في سن مبكرة، فعشت يتيمًا يتنقل من مكان لآخر، ولا أعرف إن كنت أحب العزلة أم أنني موريسكي يحمل الخوف بداخله».

36

عدت إلى اسـمي الذي تعرفني به طليطلة: خوسيه أرماندو، واجتمع مَن بقي من أصدقائي القدامى ليسـلموا علـيَّ، بينما أعلن العم باديث أنه سـيترك لي الورشـة كي أديرها بمـا تعلمته من فنون جديـدة، حين رأيت بـدرو يقـف بجانبي مسـتاءً ربَّت كتفـه: «لا يمكننـي تقديـم جديد بدون صاحب المكان»، هكذا قلت فهلل الجميع استحسانًا، وعادوا يسألونني عن البلاد التي زرتها لتعلم الفنون، فأخذت أتهرب حينًا وأتذكر ما سمعته عـن بلاد عديدة في بعض الأحيان، ناسـجًا من خيالـي حديثًا مطولًا عن جمالهـا ومبدعيها، ووجدت النسـاء أفضل ما ينصـت إليه الناس فتفننت في وصف محاسـنهن ومغامراتي معهن، فاقتنع البعض بما قلت وتوقف البعض عن المجادلة خوفًا من فتح أبواب الألم على العم باديث.

كنـا قد عدنـا من طلبيرة ليـلًا فوجدنا بيـلارا وزوجة العـم باديث في انتظارنا، بكيت وأنا أحتضنهما وجلسـنا نستقبل المرحبين بعودتي، حين قررت الذهـاب للنوم رأيت بيلارا على السـلم فقلت: «كيف حالكم؟»، قالـت: «كمـا تركتنا»، ولمحت في عينيها نظرة حزن لم أستطع تحملها،

لـم تكن الحمى قد فارقت جسـدي بعد، فقد لازمـت الفراش في طلبيرة شـهرين ما بين العـرق الغزير والهذيـان الذي يأخذني من البشـرات إلى غرناطـة ومـن طلبيرة إلـى طليطلة، حتـى أيقن باديث وثابيـرا أنني راحل لا محالـة، واستسـلما للأمر فـي انتظار هذه اللحظة، لكنهـا لم تأتِ، فقد جاءنـي أبـي قائلًا: «مـا عهدنـاك بهـذا الضعف»، ابتسـمت معاتبًـا: «لم تركتني؟!»، لكنه لم يجب، وظل الصمت معلقًا على وجهينا حتى أوشك النهـار على الغروب، فرفع رأسـه: «آن لي الرحيـل»، وبلهفة قلت: «هل آتـي معك؟»، نظر مليًا في وجهي ثم قـال: « ينتظرونك الآن في طليطلة، فانهض لهم»، فتحت عيني لأرى بدرو يختبر قدرتي على رؤيته، ابتسمت محـاولًا الحديث معه، لكنه لم يحدثني وفـر صائحًا على باديث وثابيرا: «إنـه حـي.. مـا زال حيًـا»، فرأيتهما يهـرولان نحـوي: «حمـدا لله على السـلامة؟»، فابتسـمت قائلًا: «ثمة مَن ينتظرنـي الآن وعليَّ النهوض من أجلـه»، وفي صبـاح اليوم التالي امتطينا البغال لنبـدأ الرحلة نحو طليطلة الجميلة.

لم يسـتغرق الطريق أكثر من خمس سـاعات، لكنها كانت طويلة بما يكفي، حدثني فيها باديث عن والدته التي تزوجها جدي محمد بن جهور بعـد خروجه مـن البيازين، كان يريـد أن يثبت لمحاكـم التفتيش أنه صار موريسـكيًا صالحًا بالنسـبة لهـم، فأعلن تنصره وذهب إلـى صديق له في طليطلـة من المدجنيـن طالبًا زواج ابنته، فضحك الرجـل قائلًا: « أعرف مَـن يمكنـه أن يـزوِّج ابنته لرجل عجـوز مثلـك»، فتزوج وعاد بعروسـه

الجديدة إلى البشـرات، لكنه لم يلبث أن مات تـاركًا ثمرة في بطنها، قال باديـث: «كنت أنا هذه الثمرة التي لـم ترَ زارعها»، فحملته أمه إلى طليطلة لتعيش مع أهلها، لكن أشقاءه ظلوا يزورونه حاملين معهم المال والهدايا حتـى تفرقت بهم المصائـر، جميعهم توقفوا عن الزيارة مـا عدا عبد الله الذي لم ينسَ يومًا أن له أخًا في طليطلة.

حيـن سـألته عن سـبب خـروج آل جهور مـن غرناطة قـال إن جدتي لوالدي كانت السبب، فلم تكن تريد أن تنسى عزها القديم، كانت تخرج كل يوم في خدمها وجواريها إلى الحمَّام الكبير، وتعود في أبهتها كأن ابنها ما زال وزيرًا، وأن أجدادها ما زالوا ملوكًا، ولم يستطع القشتاليون احتمال ذلـك، فتركوا عسـكرهم يضيقون عليهـا حتى نزلت وصفعـت أحدهم، ونشب الشـجار بين خدمها وبينهم، وتنادى الناس أن القشتاليين يعتدون على امرأة في السـوق، فخرجـوا لنجدتها وفرَّ الجند مـن أمامهم، لكنهم كانـوا يدركون أن ذلك سـيعقبه هجوم كبير، فظلوا جالسـين على أبواب بيوتهم حتى جاءهم ذلك الهجوم، فانتفضوا مخرجين ما خبئوه من سهام وسـيوف لملاقاتهم، فقتلوا بعض الجنود وطردوا الآخرين، وشـعروا أن بإمكانهـم اسـتعادة مُلك أهلهم، فاحتلوا الأبـراج وأقاموا المتاريس، وما لبثـوا أن هاجمـوا قصر الحاكم وأرغموه على الفـرار، وانتخبوا من بينهم حكومـة لـم تدم أكثر من أيام، فقد تغير قائد جند غرناطة بقائد جديد قدم اعتذاره عما فعله سـلفه، مُقرًّا لأهل البيازين حقوقهم في صون حرماتهم ودينهـم وأموالهم، وزاد في الأمر أن حمل أبنـاءه وزوجته ليقيموا بينهم،

قائـلًا: «هـم رهائن لديكم إن خالفنـا عهدنا معكم»، فتخـدَّرت الأعضاء وعادت الحسـابات للـرؤوس، فنزلوا من الأبراج ورفعـوا المتاريس عن المدخـل، ومضت الحياة في سـلام حتى فوجـئ الجميع بجيش مجريط يحاصـر الحـي، ففر أعضاء الحكومـة ورجالها إلى الجبـال، وجاء قرار فرنانـدو وإيزابيـلا بترحيـل أهل البيازين عـن بيوتهم، ولم تمضِ شـهور حتى صدر قرار التنصير، وجاءت بنفسها إلى غرناطة لإعلان بدء تطبيقه، ولم يكن لأحد أن ينسى أن آل جهور كانوا السبب في ثورة البيازين.

فـي الصباح وضعت بيلارا الفطور ثم تركتني مـع العم باديث وحدنا فـي غرفـة الجلوس، فأومأت سـائلًا: «أمـا زلت على وعـدك لي؟»، فهز رأسـه بحزن: «كان بيدرو صغيرًا، والرأي له الآن»، شـعرت أنه يرفع يده عـن خطبتـي لبيلارا، وقلت ربمـا كان يريدني أن أرتبـط بها كي لا أذهب إلى البشـرات، فرحت أزج بنفسـي في طريقي إلى الورشة، حين وصلتها لم أجد بها سوى صبي لا يعرفني، فقال إن بدرو يجيء في الظهيرة دائمًا، وباديـث قـد يأتـي أو لا يأتي، جلسـت مكانـه طالبًا أن يحضر لـي نعناعًا مغليًّا، حين جاء بدرو سألته عمَّن كانوا يعملون مع جده، قال إنهم فتحوا ورشًـا أخرى وأخذوا ينافسـوننا بما تعلموه منا، ثم تركني وذهب لبعض شئونه، طلبت من الصبي أن يحضر لي قطعة كبيرة من الصلصال، فرحت أشـكلها على هيئة عجوز ضخم بلحية طويلة وعصا يهش بها على غنمه، حيـن عاد بدرو أبدى دهشـته سـائلًا: «مَن هـذا؟»، قلت: «النبي موسـى يسـوق خرافه في الصحراء»، وسرعان ما ظهر العم باديث مبديًا إعجابه،

فضحكت قائلًا: «غدًا يندم مَن تركوا ورشتنا خاوية»، وشرعت في عمل مجسَّم كبير من التمثال، قال باديث: «ما الهدف؟»، فرددت بثقة: «ليس لمثلك أن يبخل على الكنيسة بما أعطاه الله»، فبرق في عينيه ضوء شفيف وهو يقول: «أنت المسئول الآن»، غير أنه في الصباح أرسل إليَّ المزيد من المواد التي قد يحتاجها التمثال للاكتمال، وما إن انتهيت حتى قلت لبدرو أن يصطحب جده إلى الكنيسة طالبًا حضور رئيسها القس أنطوان لرؤية التمثال، حين حضر الرجل كانت طليطلة بتمامها قد علمت بالأمر، وحين أعلن افتتانه به عقَّب العم باديث أنه هدية للكنيسة كي تشملنا برعايتها، كان ذلك بمثابة الفتح العظيم، فقد صنعنا من التمثال نسخة وضعناها أمام الباب لنذكر الناس أننا أصحاب التمثال المنتصب على قاعدة من خشب السرو في مدخل الكنيسة، فتهافت الكثيرون على طلب نسخ منه، ولم يكن أمامنا سوى أن نصنع قالبًا من الجبس نضغط فيه الطمي فنخرج عشرات النسخ، وجلس باديث على مكتبه يسجل الطلبات ويجني الدوقات الذهبية، وللحظة شعرت أن طليطلة صارت كهلًا يتمسح بالدين، فطلبت من بدرو أن يكتب على باب الورشة: «توجد قصص جديدة عن القديسين المشائين»، ورحت أملي على بعض الصبية ذوي الخط الحسن ما كنت أرويه للسكارى في حانة خوليو بطلبيرة، فما كان من الناس إلا أن دفعوا ثمن القصص قبل أن يتسلموها بأيام، وأخذ الأثرياء يطلبون عمل تماثيل أمام مداخل بيوتهم، بينما الكنيسة لا تقوم بترميم أي جزء في بنائها دون استشارتنا، وكثيرًا ما طلبنا آباؤها

لتزيين حجراتهم وبيوت أصدقائهم، مقترحين أشكالًا جديدة من النحت والتصويـر لتوضـع في أركانهـا، فصار اسـمي الأكثر ترددًا فـي طليطلة، وصارت الورشة الأكثر جذبًا للناس.

كانت الشهور التي أمضيتها مع بدرو في العمل قد أقنعته أنني والده الذي لم يرَه، وكلما طلب منه الناس شيئًا كان يقول: «اسألوا أبي»، حتى وجدته ذات مساءٍ يقول: «ليس لأمي أن تتزوج من رجل غريب»، كانت سعادتي وقتها بلا حـدود، وشـعرت أن آبائي وأجـدادي جميعًا راضون عنـي، فذهبت للعم باديث طالبًا يدها، هي بدورها كانت تنتظر هذه الفرحة منذ سنوات، خرجنـا بكامـل حلتنا إلى الكنيسـة ليتلو القـس أنطوان موعظته ويرشـنا بمائـه المقـدس، عقدنا الإكليـل بالكنيسـة وعدنا إلى البيت مسـرورين، لكنني همسـت في أذن عمي باديث أننـي لا يمكنني الزواج من بيلارا إلا على الطريقة الإسلامية، فهز رأسه قائلًا: «أمهلني يومين»، فتأجل دخولنا حتى أحضر شـيخًا وثلاثة موريسـكيين برفقة ثابيرا، فوضعنا أيدينا تحت يده ورحنا نردد في سـرنا خلفه الفاتحة قابلين الزواج على مذهب الإمام أحمد بن حنبل.

بعد أيام أخبرتني بيلارا أنها تريد إعلان إسلامها، قلت إن بدرو بالكاد يحتمل زواجنا، فلن نزيد الفجوة بيننا وبينه بذلك، فمازحتني قائلة: «يبدو أنك لا تريد أن يزداد عدد الموريسكيين في هذه البلاد»، فتعلق ذهني بهذه الكلمة، وظللت أفكر في أمر الموريسـكيين الموشكين على الانقراض، ورحت أفكر في إحياء أرواح المسلمين في أجسادهم، وظل الأمر يدوي

في رأسي كدوي النحل حتى صعدت على سطح المنزل في جوف الليل بحثًا عن الهواء، وللحظة تخيلت أنني مؤذن يرفع الأذان للصلاة كما كان أهلي في البشرات يفعلون، ودون أن أفكر وضعت يدي على فمي كالبوق ورحت أهتف بالتكبير وتلاوة الشهادتين، شعرت حينها أنني أزحت ثقلًا عظيمًا من على صدري، كنت كلما ارتفع الصوت تلاشى الخوف من أعماقي، لكنني ما إن أنهيت ثورتي حتى وجدتني أفكر في العواقب، فارتد إليَّ الخوف واجتاحني البرد حتى ارتعدت مفاصلي، فهرولت إلى بيلارا قائلًا: «دثريني»، سألتني عمَّا حدث فقلت: «صرخت في الناس بالأذان، ولعل الجند قادمون إلى البيت الآن».

في الصباح لم أذهب للورشة، وظللت لا أغادر فراشي ولا خوفي يغادرني، وحين زاد انتظار باديث لي قرر العودة للسؤال عني، أبلغته بيلارا أن الحمى عاودتني، لكنه فاجأها: «هل خرج من البيت الليلة؟»، فأبدت دهشتها وارتبكت في الإجابة سائلة عن السبب، فقال: «الناس يتحدثون عن رجل رفع أذان المسلمين بالليل، والجند يبحثون عنه في كل مكان»، لم يكن أمامي سوى النهوض سائلًا عمَّا حدث، قال إن منازل الموريسكيين تم تفتيشها وتحطيم نوافذها وأبوابها، ومَن وُجد عنده كتاب أو ثياب عربي سيق إلى المحكمة. وضعت يدي على جبهتي باحثًا عن الحمى اللعينة لكنني لم أجدها، فأشار لي أن أساعده في حمل تمثال كبير للمسيح كي نضعه أمام الورشة.

لا أحد يعلم مَن الذي رفع الأذان في منتصف الليل التالي، كان صوته عاليًا وراسخًا كما لو أنه اعتاد على رفعه مئات المرات، أنا نفسي

سمعته من غرفتي وخرجت متنصتًا على مصدر الصوت، بدا لي للحظة أنه بعيد، وبدا للحظات أنه أقرب مما أتوقع، لكنني لم أستطع تحديد مكانه، وجلست في الصباح سائلًا عما حدث، البعض قال إنه لم يسمع ويعرف بشيء، والبعض أكد الواقعة في همسٍ كمَن يتحدث عن أمر مخلٍّ بالشرف، ومن العيون والأصوات كنا نتكهن بمَن ظل على إسلامه ومَن انخرط في مسيحيته للأبد، كنا نتجنب أصحاب الأصوات العالية، ونبحث عن الخائفين كما لو أن أصابع الاتهام تشير نحوهم، وحين نسأل عن حال الذين أخذوا لمحكمة التفتيش كان الكل يتأسى لحالهم، متفننًا في وصف ما وقع لهم من تعذيب وضرب أمام الجميع، فما بالنا بدخولهم على الآلات ذات التروس والأسنان والمقابض، حين قلت إن علينا إعالة أبنائهم تفرق الناس من حولي، شعرت أن ثورتي لم تأتِ إلا بتعذيب الأجساد بعدما ماتت الأرواح، وجلست شاردًا أنظر للدوقات العشر التي وضعتها كي يكملوا عليها، موقنًا أن الخوف هو الذي يقتل الرجال، لكنني فوجئت بعد قليل أنها صارت عشرين، ولم يمض كثير من الوقت حتى وجدت في يدي ما يزيد على مئة وخمسين دوقة، لبيدأ التفكير في طريقة لتوصيلها لبيوت من أخذتهم الشرطة للسجن، كانت بيلارا صاحبة الحل العظيم، فقد وضعتها في صرر ونزلت بها إلى السوق، ومن أسفل عباءتها كانت تلقي بها في مداخل البيوت، كان ذلك بمثابة انتحار علني، لكنها فعلتها قائلة: «هل أستحق الآن أن أكون موريسكية؟»، فضحكت قائلًا: «إنك بألف من المدجنين»، واحتفلنا بإعلان إسلامها.

37

فوجـئ مراد أن أكثر من عشـرين شـخصًا في صالة بيتـه يتحدثون، ما إن طرقـت أقدامه الردهة حتـى خفتت أصواتهم، فراح يتطلع إلى الوجوه التي لا يعرفها، وبطبيعة الموريسـكي في ساعة الخطر دخل سريعًا تحت جلـده، وكاد يطلق لأقدامه العنان متراجعًا لولا أن صوت ناريمان لاحقه من عمق الردهة المؤدية لغرفة الجدة: «اتأخرت ليه يا مراد؟»، فتوقف في مكانه سـائلًا إن كان ثمة موعد بينهما؟ لكنهـا جذبته من يده وأخذت في تعريفه بالحضور، قائلة إنهم ما بقي من الموريسـكيين بالمحروسـة، فقد كلَّفت أصدقاءً بالبحث عمَّن هاجروا من بيت الموريسـكي، فكان هؤلاء كل مَن استطاعوا التوصل إليهم.

تطلع مراد في الوجوه منتبهًا إلى أنهم جميعًا في العشرين من العمر، وضعت ناريمان مسـحة من الحزن على صوتهـا وهي تقول: «آباؤهم لم ينـج أي منهـم من غضب العين الراعية»، وسـرعان ما جذبتـه من أفكاره بورقة ممهورة بخاتم دار الكتب قائلة: «هذه صورة طبق الأصل من وثيقة وقف الموريسـكي»، كان وجهها متهللًا بالفرح كما لو أنها حققت نصرًا

عظيمًا، بينما التف الموريسكيون الجدد من حولهما متسائلين عما تعنيه الورقة، راحت تتلو عليهم بصوتٍ مسموع: «هذا ما أوقفه الملتزم عطية الله بن إبراهيم الخولي بن رزق الله بن يونس بن محمد بن عبد الله بن جهور الموريسكي المقيم في المحروسة على عائلته ومَن وفد منها على رواق المغاربة بالجامع الأزهر، مئة وخمسون فدانًا بجوار بحر النيل بزمام دائرة قليوب، تُدار بواسطة شيخ الأزهر أو مَن ينوب عنه في إدارة الوقف، ولا يحق التصرف فيها إلا بإذن من عميد العائلة». ثم قرأت التاريخ وأسماء المشايخ الذين وقعوا عليها.

كانت فرحة الموريسكيين بلقياهم كبيرة، وكادت الصالة تشتعل من الصياح بالفرح، نظر مراد في عيني ناريمان سائلًا: «كيف حصلتِ عليها؟»، أجابته أن أصدقاءها بحثوا عنها وسط آلاف الوثائق حتى وجدوها، فتركها وراح يبحث عن جدته النائمة في غرفتها، انتبهت الأخيرة على طرقات أنامله لشباك سريرها، رفعت عينيها إلى وجهه بحزن وهي تقول: «أبلغتهم أنك العميد، وليس في يدي شيء»، لم يعرف بِمَ يُدلي للجالسين في انتظاره بالصالة، فخرج إليهم آسفًا: «لست عميدكم ولا أملك من الأمر شيئًا»، أُسقط في يدهم، وأخذوا يتطلعون إلى ناريمان عسى أن تنقذهم بشيء، لكنها هي أيضًا كانت في حيرة من أمرها، ولم تعرف بِمَ تجيب العيون المصوبة نحوها، فتركوها وتسحبوا بأقدامهم كأسراب قطط عرفت طريقها للخروج، وحدها ناريمان التي بقيت لتصرخ في وجهه: «لماذا؟»، ولم يكن أمامه سوى السؤال عن

الموعد المرتقب لمؤتمر الموريسكيين، لكنها حملت حقيبتها ونظرت في وجهه بمقت شديد قائلة: «تم تأجيله».

حاولت جنى هانم التماسك قدر الإمكان أمام أسئلة مراد عما يجري من حوله، قالت إنها تجاوزت الثمانين، وقدرتها على معرفة الصواب من الخطأ صارت ضعيفة، فربَّت كتفها وهمَّ بالخروج، لكنها لاحقته بصوت واهن: «هذا اختبارك يا مراد، ولا ترقي دون اختبار»، ظلت كلماتها تتردد في أذنه حتى زادته ضعفًا على ضعف، وخرج لا يعلم إلى أين يمكنه الذهاب، فكل ما يسيطر على ذهنه أنه بحاجة لمكان يختلي فيه بنفسه مراجعًا حساباته، تذكر جده رفيق وعزلته باكيًا في غرفته، تذكر حبيب الله وقسوته على أبناء عمومته، وهانم التي حافظت على شمل العائلة طيلة أيامها، وجنى التي انفرط العقد من بين يديها، وظل في دوامة التذكر، حضرت ناريمان في ذهنه قائلة: «الأرض في مقابل الأرض»، بينما صديقه ضابط الأمن راح يقول إن الباشا الكبير ألغى الأوقاف، وإن لم يلغها فلا توجد قوة على الأرض يمكنها هدم البيوت والشوارع والميادين من أجل أناس تركوا أرضهم كل هذه السنين.

ألقى بجسده للنوم كي يرى العين الراعية على جوادها تمرح في بقعة واسعة خضراء، وسط جبال مكسوة بالزيتون والساسبان، أخذ يركض خلفه سائلًا عن سر فرحه، لكن المسافة بينهما لم تكن تطول ولا تقصر، ظل يلهث خلفه وهو يصعد نحو قمة جبلٍ عالٍ، بعدها رآه ينزل عن جواده ليدخل في كهف صغير، كانت الظلمة فيه تبدو كجدار سميك،

ظل يمشي على غير هدى حتى تكشفت له معالم المكان، عبر ضوء خفيف في العمق البعيد من الكهف رأى جده جالسًا يملي كلمات أخيرة على شخص بجانبه، كانت الدهشة كبيرة حين رأى صديقه الطبيب، سأل مراد جده عما يفعل في هذا المكان، فابتسم وهو يضرب بيده على الدفتر الكبير: «هذا عهدنا لك.. فأين عهدك لنا؟!».

كانت البلاد قد حسمت موقفها من الدستور ودخلت تحت جلدها كموريسكي ساعة الخطر، ولم تكن هناك مطالب سوى تغيير الحكومة، الشيء الوحيد الذي حرَّك المياه الراكدة هو كلمة «تمرد»، والتي وضعت على منشور وضع خارطة جديدة للبلاد، لم يكن مراد في حاجة للانشغال بشيء سوى اختباره الخاص، فقرر الانسحاب باحثًا عن طريقة لترتيب أفكاره، فكر في مكان يختفي فيه عن راشيل وعيونها، ولمعت في ذهنه فكرة أن يكون قريبًا من جدته بعيدًا عنها، رأى أبواب الموريسكيين المغلقة على حالها منذ سنين تظهر أمامه، فحمل صندوق مفاتيحها وخرج ينظر أيها يصلح خلوة تليق باختباره الكبير، على بسطة السلم وجد القط الكبير واقفًا في انتظاره، لا يزوم ولا يكشر عن أنيابه، فقط يومئ برأسه كما لو أنه يقول: «اتبعني»، ترك أقدامه ترتقي الدرجات خلفه، وكلما فتح بابًا وجده يسبقه متفقدًا المكان، رأى النوافذ مغلقة وقطع الأثاث مغطاة بالبياضات كالشواهد العظيمة، بينما روائح الرطوبة والهواء العفن تحول بينه وبين القدرة على البقاء فيها، فظل يصعد خلف القط حتى وصلا إلى الباب الفاصل بين السلم والسطوح، لم يكن مراد منتبهًا إلى أن لقياه هناك،فأخذ

القط يضرب الباب بقدميه حتى فتحه، فتسلل منه النسيم العليل، ورأى مراد بوتقة الضوء القادم من لوحات الإعلانات المعلقة على العمائر المحيطة، كانت غرفة الغسيل مغطاة بالقرميد كطائرة موشكة على الإقلاع، حين فتحها وجد كرسيًّا ولمبة كهرباء وتسلل إليه شعور بأنها كانت خلوة أثيرة لواحد من أجداده، حينها نزل فأحضر حاسوبه وحقيبة ملابسه وما يحتاجه من أوراق وأقلام، وجلس أمام الشاشة البيضاء كاتبًا بخط كبير: «متاهة الموريسكي الأخير»، لم يكن في ذهنه أكثر من ذلك، لكنه أخذ يرسم شجرة العائلة منذ جده عبد الله بن جهور حتى ناريمان، محددًا فروعها وأصولها، مَن بقي منها في تونس ومَن جاء إلى المحروسة، مسجلًا أسماء مَن سكنوا في بيت حبيب الله ومَن خرجوا منه، ومَن تولَّى العمادة، ومن أصابه غضب العين الراعية، ثم قادته أنامله لأن يكتب تعريفًا بكل منهم، ذاكرًا ما جرى في عهده، دون أن يدري أنه شرع في وضع كتابه الكبير.

38

كان شعوري بالذنب كبيرًا تجاه الموريسكيين الذين أخذتهم المحكمة، وما كان لي أن أطلب كل يوم من الناس التبرع لرعاية أولادهم، كان ذلك بمثابة إعلان للشرطة بأنني الذي أطلقت صيحة الأذان، وكان علَيّ التفكير في اتجاهٍ آخر، فأعلنت أنني سأصنع تمثالًا كبيرًا ليوحنا المعمدان كهدية جديدة للكنيسة، أحضرت المواد المطلوبة وبدأت في العمل، وقطعت مرحلة كبيرة فيه ثم توقفت ذاهبًا إلى الكنيسة، يومها طلبت لقاء الأب أنطوان شارحًا كم يحتاج تمثال بهذا الحجم إلى جهد ومواد وعمال، ومن ثم فليس أمامي سوى أن ألجأ إلى الآباء كي يمنحوني معونتهم، يومها لم يستوعب الرجل، فكنيستهم لن تعطي شيئًا لأحد حتى لو كان المسيح ذاته، حينها طرحت ما أردت الوصول إليه: «هل يمكنكم أن تدعموني بصك يسهل لي جمع تبرعات من الناس لإكماله؟»، نظر القساوسة لبعضهم كأن الأمر لا يعنيهم، فوافق أنطوان على منحي ذلك الصك، كان ذلك إنجازًا لم يتوقعه أي من باديث ولا بدرو ولا حتى بيلارا، فقد صارت لدينا القدرة على دخول كل البيوت

دون خوف أو معارضة من أحد، في المساء جلست معهم نتحدث بسعادة عمـا وصلنا إليه، لكـن اجتماعنا ما كان له أن يكتمـل دون حضور ثابيرا، هـذا الذي أرسـلت إليه سـرًّا، فوجدناه على العشـاء يطرق البـاب قائلًا: «هل لكم في ضيف جائع؟»، رحبنا به وأنهينا عشاءنا ورحنا نتحدث عما جرى في طليطلة، قال سـمعت أن مؤذنًا صاح في أذن القساوسة، وندت عني ضحكة جاوبتها ابتسـامة من العم باديث، بعدها أعلن الأخير لثابيرا أنني صرت مفوضًا من قبل الكنيسـة في جمع تبرعات لعمل تمثال كبير، حيـن أخبرتـه عن هدفي وجدت الحزن يطفو على وجهه: «وهل سـتترك الذين يعملون لدى خوليو وأمثاله؟»، فتذكرت الحال التي كنت عليها مع البدين، وانتبهت إلى أن هناك مَن يحتاجون للمسـاعدة أكثر ممَّن هدمت نوافذ بيوتهم، فجلسـنا نضـع خطتنا للأمر، قال إن لديـه خطة في تهريبه، لكـن الأمر يحتـاج لمزيـد من المـال، قلت: «هل سـنردهم إلـى بيوتهم في البشـرات؟»، قـال: «ما المانع؟»، ورددت بأن الإسـبان لن يسـمحوا بعودتهـم، ضحـك قائـلًا: «في الجبـال متسـع للجميع»، هززت رأسـي بالموافقة قائلًا: «أمهلني يومين كي أجمع ما نحتاج إليه».

فـي الصباح أخذت أحد مسـاعدي ورحت أتجول فـي المدينة طالبًا المسـاعدة لإكمـال تمثـال المعمدان وهو يعمِّـد المسيح بالماء، رحت أبحث في الوجوه عن الموريسـكيين المختبئين بين المسيحيين القدامى والمدجنين، كانت ملامحهم واضحة وخوفهم ظاهر، كنت أقف في وجه كل منهـم هاتفًـا: «اترك شـيئًا للمسـيح»، ومَن كان يمد يـده ليمنح كانت

تعـود بالمنحة ومعها ما يزيد، لا أعرف كيف انتشـر أمر جمعي للمال في المدينة وأجوارها، فأخذ القساوسـة يسـألونني عن القـدر الذي تحصلته طالبيـن نصفه، معينين كاهنًا يدور معي كمشـرف علـى عملي، هو بدوره كان فاسـدًا كأغلبهم، كنت أجلسـه فـي خان على نفقتـي وأذهب لأتفقد ما أريده، وحين أعود أعطيه نصيب الكنيسـة وشـيئًا لنفسه، كنت أعلم أنه يزيد مبلغه مما سيسـلمه لرؤسـائه، ولـم يكن يشـغلني ذلـك، فعملي كان يسـير وفقًـا لمـا أردت وبحماية مـن الكنيسـة ذاتها، ظل الأمـر على هذا النحو شـهورًا حتى دخلت بيت واحد من الأثرياء، سـألته باسـم المسيح أن يسـاعدنا على إنجاز مـا بقي من التمثال، أخرج مئـة دوقة أمامه قائلًا: «لكننـي أريد التمثال»، فابتسـمت موضحًا أن ذلك يكلِّفه ألف دوقة على الأقل، فسـحب يده قائلًا: «حين تتم عملك جئني به وأنا أنقدك ما تريد»، كان الأمـر بالنسـبة لـي طرفة، وفكـرت في عمـل تمثال آخر وبيعـه إليه، لكـن ثابيرا أثار الرعب في نفسـي قائلًا إن هذا الرجل مهووس باسـتعباد الموريسـكيين، ولا بد أن هذا اختبار، بعدها سـمعنا أن لصوصًا هاجموا بيتـه وأخذوا مـا به من ذهـب وأمـوال، وأن بعضًا من رجاله سـهلوا لهم الأمـر وفروا معهم هاربين. وظـل تمثال المعمدان دون اكتمال جملة من السـنين، فقد نسيت الكنيسـة أمره، ولـم يعد قساوسـتها يسألون عنه، فقد انشـغل الجميـع بهجمات اللصـوص وهروب الموريسـكيين من بينهم، وكثـر التوتر على مداخل القـرى ومفارق الطرق، وتكـرار الاعتداء على الشـرطة والقساوسـة والأثريـاء فـي وضـح النهـار، وفي الأخيـر جاءت الحرب بين البرتغال والسعديين لتغطي على ما دونها من أخبار.

في تلك الآونة تزوج بدرو من ابنة تاجر كبير، فأصر على إقامته ببيت يخصه، لكن باديث رفض الأمر حتى نصحه ثابيرا بأن ذلك أفضل لأسرارنا وما نحن فيه، فاشترى له بيتًا على مقربة من الورشة تيسيرًا لمتابعة شئونها، كانت السنوات تتسرب من أيدينا كالماء، لكن السؤال الذي لم أكن قادرًا على نسيانه: «أين ذهب فرناندو؟»، فظللنا نبحث عنه في كل المدن دون جدوى، وبعد عشر سنوات من البحث التقى رجال ثابيرا برجلين أضرما نارًا في كنيسة، كانت الشرطة قد أخذت في مطاردتهما ولم ينقذهما منها غير رجال ثابيرا، حين علموا أنهما من أهل البشرات سألوهما إن كانا يعرفان فرناندو بن جهور، قال أحدهما إنه عمل معه كجندي وإن آخر أخباره كانت منذ عامين، التقاه في طريقه إلى طليطلة، لكنه لم يعرف وجهته بالتحديد، حين حكى ثابيرا ذلك أيقنت أن فرناندو ما زال حيًّا، وأن الأمل ما زال قائمًا لألتقي به، وظللت أتوقع ظهوره بين لحظة وأخرى، مضت أعوام كلما سمعت فيها بحضور غريب إلى طليطلة أسأل عن أوصافه وهيئته، وربما بحثت عنه وذهبت لرؤيته، لكن بدرو جاءني قائلًا إن تاجرًا من بلنسية يسأل عني، فذهبت للقائه، وما إن رأيته حتى شممت فيه رائحة فرناندو، قلت: «هل رأيته؟»، فوضع يده في جيبه مخرجًا ورقة أخذت في قراءتها متشممًا كل كلمة فيها، قال إنه بحث عني في كل مكان حتى علم أنني في طليطلة، فلمَّا جاء لرؤيتي لم يستطع لقائي ولا حتى مجرد الظهور لي، قال: «مباركة عليك حياتك الجديدة، لكنني سأظل موريسكيًّا ما حييت»، حينها ارتجف قلبي

وغلبني البكاء، وكدت أشـهق لافظًا أنفاسي حزنًا، فقد أضعت ابن عمي بيـدي، لكن الرجـل أخذ في مواسـاتي موضحًا أنه بصحـة جيدة، وعقل رزين، وأنه أوصاه حين التقاه على مفارق طرق بلنسية أن يخفي الأمر كي لا يفسد عليَّ حياتي، قال أيضًا إن قبضة محاكم التفتيش هناك أقل وطأة، وإن الموريسـكيين ما زالوا يمارسـون عاداتهم بحريـة أكبر، لكن الرجل صدمني في نهاية حديثه قائلًا: «لكنني لا أعرف له مكانًا غير الجبال».

كان إنجابـي مـن بيلارا قد تأخر إلى أن خشـيت أن تكـون قد عبرت سنوات القدرة على الإنجاب، فأخذت تلح علي للزواج بأخرى، ورحت أتعلل بأنني لو فعلتها سـيقتلني العم باديث، فاشـترت جارية موريسـكية ووهبتها لي، ثارت الدماء في عروقي فما ينبغي لي أن أمتلك نفسًا كرمها اللـه، فمـا كان منها إلا أن منحتها صكًّا بحريتها، ثم جعلت باديث يحضر شـيخًا ليعقـد لي عليها، لكـن المفاجأة التي حدثت بعد شـهور أن بيلارا هـي التـي حملت، فأنجبت يونـس قبل أن تحمل الجاريـة لتنجب الربيع وعمـار وتمـوت عقب ميـلاد مجيد بأيـام، فوهبت بيـلارا نفسـها لتربية الأبنـاء جميعًـا، فلا تخرج مـن البيت إلا بهـم، ولا تعـود إلا بصحبتهم، تضع لوحًا من الخشـب في غرفتها وتجلس طيلـة اليوم لتعليمهم مبادئ القراءة والحساب، بينما شغلت عنهم بجمع المال لتحرير الموريسكيين وإعادتهم إلى بلداتهم أو جبال بلنسية، حيث فرناندو الذي ظللت أترقب أخبـاره لسـنوات، حتى توصل رجال ثابيـرا إلى مكانه. وسـرعان ما قرر ثابيـرا الذهـاب إليه داعيًا إلى الثورة، فقد ازداد جشـع النبلاء في بلنسـية،

وزادت رغبتهم في استعباد الناس، مذكرينهم دومًا أنهم الذين يحمونهم من محاكم التفتيش، واضعين كل يوم مزيدًا من الضرائب على كاهلهم، حتى باتوا غرباء في ديارهم، يومها قال ثابيرا إن الثورة يمكنها أن تبدأ من هناك لتنتقل إلى غرناطة وإشبيلية، وإن فرناندو يرى الرياح في بلنسية، فالبحر أمامها والجبال خلفها، وجنود بني عثمان ليسوا ببعيد في الجزائر وتونس، والبروتستانت الكارهون للكاثوليك يختلطون بالغجر والموريسكيين في الجبال، ولن يراهن النبلاء على دخول الجيش إلى أراضيهم، فيفقدون محاصيلهم وزروعهم ولا يستعيدون الفقراء الذين استعبدوهم إلى حظيرتهم من جديد، فودعته مرسلًا السلام إلى فرناندو، عسى أن نلتقي قريبًا.

لكنني لم ألحق بهما، ولم أرَ أيًّا منهما، فقد شُغلت بمرض العم باديث، وعكفت على متابعة شئون الموريسكيين في طليطلة وحدي، متحملًا مزيدًا من الطلب على قطع التماثيل الجديدة، فمنذ أن نصبنا تمثال المعمدان في وسط المدينة وشهرتي صارت تتخطى حدود طليطلة، وأصبحت الورشة معروفة للجميع بورشة المقدس خوسيه أرماندو، وبقدر ما أعفاني ذلك من الذهاب للكنيسة في الآحاد بقدر ما وفر لي رعاية القساوسة وإبعاد الشبهات عني، وجلست أتابع من بعيد أخبار الثورة التي نشبت في بلنسية، فقد أضرب الناس عن العمل في المزارع والحقول، ولجئوا إلى الجبال مكونين جماعات تُغير على المقاطعات، منتخبين من بينهم أميرًا، وواضعين لأنفسهم هدفًا واحدًا

وهو أن تكون بلنسية للموريسكيين وحدهم، لكن الإسبان الذين أوشكوا على حرب جديدة مع الإنجليز والهولنديين كانوا قد تعلموا الدرس من البشرات، فلم ينتظروا أن تحسم الأمر حامياتهم في بلنسية، وفوجئ الجميع بقطع الأسطول الكبير تتحرك لتحاصر الشواطئ، وفرق الجيش تحاصر الجبال، بينما المدافع الكبيرة تدك كل ما أمامها، ولم تمضِ أيام حتى أسقطوا الحكومة الجديدة وأعدموا أعضاءها، علمت من بعض رجالنا أن ثابيرا وفرناندو فرَّا في الجبال نحو الشمال، وأن شهداء سقطوا بالمئات والألوف.

ظللت أكتم غيظي حتى مات عمي باديث ناطقًا بالشهادتين على صدري، فصممت على دفنه بالطريقة الإسلامية، وجلست أصلي على جثمانه في البيت قبل حمله إلى الكنيسة، وحين عدنا من المقابر فتحت خزانة كتبه، وأخرجت منها مصحفًا جلست أقرأ فيه بصوت واضح على الأريكة التي أمام البيت، حيث كان يفضل الجلوس في المساء، فانتشر الخبر بأن المقدس خوسيه أرماندو موريسكي، وكان ذلك بالنسبة للكنيسة صاعقة لم تعرف ما الذي ينبغي عليها حيالها، حضرت الشرطة وساقتني ركلًا وصفعًا إلى ظلمة السجن، حيث ثبتوا رسغي بالمسامير في لوح خشبي وتركوني أنزف أمامهم، لم ينشغلوا بكوني موريسكيًّا، فذلك ما لم يريدوا الاعتراف به، فما أغضبهم هو أنني أمسكت كتاب الموريسكيين بالراحتين اللتين رممتا جدران الكنيسة وصنعت تماثيل المسيح وموسى والمعمدان، ولولا أن بدرو باع بيته ودفع كل ما يملك

عطايا لأعضاء المحكمة، موضحًا أن موت باديث أصابني بلوثة، ما تركوني أمر بخطيئتي من بينهم، فأفرجوا عني شريطة ألا أخرج من البيت، وما كان لي أن أخرج بعدما هشموا عظام يدي، فانتقل بدرو بزوجته إلى بيتنا لمراعاتي، وكان حظه بذلك سعيدًا، فبعد سنوات من تأخر زوجته في الإنجاب علم أنها حامل، وسرعان ما أنجبت له روميرو، فكان عليه أن يدير شئون الورشة التي انفض الجميع عنها.

في تلك الأيام علمنا أن فيليبي الثالث اتخذ قراره بترحيل الموريسكيين عن البلاد، حينها شعرت براحة الذاهب إلى الموت، وجلست أناقش الأمر مع بيلارا التي قالت إن بلادها حيث أكون، لكنها لا تملك من أمر بدرو شيئًا، وفاجأتنا الكشوف التي علقوها على مداخل الشوارع والحارات، فقد شملت اسم بدرو ولم تشمل اسم زوجته، ولم يكن أمامه سوى أن يطلب منها الرحيل معه، لكن والدها أقنعها بالبقاء من أجل ابنها، وفي ساحة الكنيسة وقف يودعها هي وروميرو، طالبًا منها الحفاظ على الورشة والبيت، وأن يبقى اسم المقدس خوسيه أرماندو عليها، بينما جلست بيلارا تحصي المال الذي معنا للطريق، وظلت زوجة مجيد الله موزعة بين أن تأخذ طفلها الذي لم يتجاوز العامين أو تتركه للكنيسة كي ترعاه، فما كان مني سوى أن قلت: «اتركيه فلن يحتمل الطريق»، لكنها صرخت في وجهي بأنني سبب شقائهم، فغضب زوجها وقدم الطفل رغمًا عنها للقس الواقف أمامهما، كنت أعتقد أن حياة الرضيع مسلمًا أو مسيحيًّا أفضل من الموت في رحلة لا نعلم ما

يخبئه القدر لنا فيها، لكنني لم أكن أدرك أن حياته ستودي بحياة والديه، وفي النهاية يتفرق عني يونس والربيع وعمار، وتموت بيلارا التي لولاها ما عرفت معنى الحياة.

39

مضت أيام لا يذهب فيها مراد إلى عمله ولا يخرج من بيته، أيام أغلق فيها هاتفه وأهمل نفسه واعتكف للكتابة كأنه يستشفي من مرض عظيم، أيام أصبح صديقه الطبيب فيها همزة الوصل بينه وبين العالم، يأتيه في المساء بالأخبار وما يحتاجه من ورق وطعام، كان مراد قد أحضر بطانية وطابعة كمبيوتر وجلس على فراش قديم يكتب ما يعِن في ذهنه من مشاهد وأحداث، لم يكن معنيًّا بترتيب الفصول أو المقاطع، فقط يضع أرقامًا ويترك أنامله تتحرك على لوحة المفاتيح، لاحظ صديقه أنه صار شبحًا مهوش الشعر، رث الثياب، طويل الأظافر، متسخ البدن، بينما الحمَّى والعرق الغزير يهاجمانه بشكل غريب، حاول أن يقنعه بالعودة للراحة في شقته لكن مراد كان يتعامل مع الأمر على أنه من مهيئات الكتابة، فكلما ازداد ارتعاشه أيقن أن عليه كتابة المزيد، كان الطبيب يتعجب من قدرته على احتمال الألم، وزادت دهشته حين رأى الحمى تقل حدتها كأن المرض آخذ في التلاشي، وفي النهاية سلم الطبيب بأن هذه طريقة جديدة للعلاج، فترك عيادته ومرضاه وجلس يتابع حالته،

ولـم يكد يصدِّق حين قال إنه انتهى من عمله، فنزلا يتحسسان في الظلمة الطريـق إلـى غرفته، على السـلم لاحظ الطبيـب أن ثمة قططًـا تنام على الدرجات، فهمس لنفسـه: «كأنهم كانوا مغرمين بالقطط»، وفوجئ بمراد يقول: «أو لعلهم من فرط خوفهم صاروا قططًا»، حينها لزم الصمت حتى سـأله الموريسـكي: «هل يمكن لمَن ماتوا أن يتحولوا إلى قطط؟»، كبح الطبيـب ضحكة لم يشـأ لها الظهـور، فأكمل الموريسـكي: «ما نراه الآن ليس سـوى أرواحهم التي تزور البيوت»، فانتابت الطبيب رجفة الخوف موقنًا أن هذا البيت مسـكون، فتمتم قائلًا: «ولِـمَ تخبرني بذلك؟»، فنظر إليه مراد بوهن شديد: «لأنني صرت قادرًا على معرفتهم».

فـي تلك الليلة اشـتدت الحمى، وأخذ مراد يرتجـف تحت وطأتها، غارقًـا فـي العـرق الغزيـر والهذيـان الـذي لا ينتهـي، مـا بين البشـرات وطليطلة، ومـا بين القاهرة وحومة الأندلـس، كان يحادث بيلارا وحبابة وفرنانـدو وباديث، يحـادث ناريمان وجنى وعبد اللـه بن جهور وحبيب الله أبو جذام، كان يهذي والطبيب لا يدري كيف ينقذه، في النهاية اتصل بالمستشـفى فأرسـل عربة إسـعاف حملته فاقد الوعي، ليظل أيامًا ما بين الحياة والموت، حين اسـتعاد وعيه وجد فمه تحت جهاز تنفُّس وفي يده أنبـوب محاليل، ابتسـمت الممرضة في وجهه مسـرعة بمنـاداة الطبيب، جسَّ الأخيـر نبضه ورفع الجهـاز عنه مربتًـا كتفه، حينها ظهـرت الجدة بكرسـيها المتحرك قادمة من الباب الزجاجي الكبير، قالـت: «هل يسـقط الموريسـكي هكذا؟!»، ابتسـم في وجهها محاولًا الاعتذار، لكن لسـانه

كان مخدرًا ولم يطاوعه على الكلام، ألقى برأسه على الوسادة شاردًا، حيث جده الذي ترك جواده وأخذ ينحني على الصخور جامعًا أعشابها المتفرقة، حين سأله عما يفعل أجاب دون أن يتوقف عن عمله: «أجمع أبنائي»، فلزم مراد الصمت منتظرًا أن يفرغ له، لكن الأخير حمل ما بيديه وامتطى جواده غير منصت لصراخ حفيده، كان يهتف خلفه في أفق مشبع بحمرة الغروب: «كيف عرفتهم؟»، ويجيبه صدى الصوت المتردد بين ألواح الجبال: «العين لا تكذب والدماء لا تموت»، هنالك انتبه من غفوته على صوت جدته: «كتبت وثيقة العمادة باسمك»، نظر إليها فرأى وجهها مليئًا بالتجاعيد، غريبًا، وضوء عينيها صار خافتًا، لم يعرف بمَ يجيبها، لكنه هزَّ رأسه: «أين ناريمان؟»، تنهدت بحزن: «تجهز نفسها للسفر»، ثم حركت كرسيها خارجة من الغرفة لتتركه وحيدًا كما كان، نظر بغضب نحو الحائط فرآه كشاشة بيضاء تتحرك ناريمان فيها بهاتفها وسط شخوص لا يعرفهم في بلد غريب، بينما الطبيب يعتزل الحياة في عيادة وسط القرى، ورجل الاستخبارات يعطي التحية لرؤسائه عائدًا للمحروسة من بين الجبال والوهاد، صرخ فيه: «أريدك»، وهزَّ الأخير رأسه كأنه يجيب النداء، شعر الموريسكي أن غضبه انتهى، وأنه الآن يمكنه الخروج من سجنه إلى الفضاء العظيم، رأى الموريسكيين تائهين في بلاد عديدة، وهمَّ أن ينادي عليهم بأسمائهم لولا أن الممرضة الصغيرة أيقظته من شروده: «هناك من يريد أن يراك»، لم يكن ضابط الأمن بحاجة لأن يرفع اللثام عن وجهه كي يتعرَّف عليه، كان يكفي مراد أن ينظر لوجهه قائلًا: «تأخرت كثيرًا»، فضحك المقدم: «كأننا على موعد؟!»،

حينها جلسا يتحدثان عما جرى، وما الذي عليهما فعله، وطال حديثهما ساعة أو أكثر، فخشي رجل الاستخبارات أن تفاجئه راشيل، لكن مراد ابتسم: «لن تأتي»، فربَّت الرجل كتفه: «إنكم أبناء عم».

كانت ناريمان أول ما سأل عنه حين عاد إلى مكتبه، قيل إنها لم تظهر منذ أيام، وإن رجلًا فرنسيًّا كان مسئولًا عن العمل في غيابها، حينها قرر الاتصال بها، متجاوزًا عن عدم زيارتها له في مرضه، قائلًا إن عليه الآن أن يجمع ولا يشتت، لكنها لم ترد، ظل يحاول مرات ومرات دون جدوى، فقرر أن يفاجئها في مكتبها، عازمًا على إزالة الخلاف الذي نبت بينهما حين جمعت في بيته مَن قالت إنهم موريسكيون، حين ذهب لم يجد العاملين مرحبين به، قائلين إنها سافرت وحين تعود سيبلغونها بمجيئه، يومها شعر بالإهانة ونظرات السخرية التي أخذت تطل من العيون خلفه، فنزل من المكان متسائلًا عما يجري، موقنًا أن راشيل قررت القفز من السفينة قبل أن تغرق بمَن فيها، فاتصل بصديقه رجل الاستخبارات ليتأكد من أمرها، لكن الأخير لم تكن لديه معلومة عنها، ورأى أن جدته هي آخر مَن يمكنه أن يلجأ إليه، فغيَّر وجهته إلى بيت الموريسكي، كان يتقافز كقط فزع وهو يصعد الدرجات تلو الدرجات، شيء ما كان يدعوه للسرعة في الصعود وفتح الأبواب مناديًا على جنى هانم، لكنه لم يجدها لا في الشرفة ولا في غرفتها ولا حيث تنام الخادمة النوبية العجوز، وقف مذهولًا لا يعرف أين يمكن لسيدة مقعدة في سنها أن تذهب بخادمة لا تستطيع الكلام، حين ساوره الشك أن حنينها للماضي دفعها لرؤية

شـقق الموريسـكيين المغلقة، حمـل مفاتيحه وهرع يفتـح الأبواب، كان ينـادي عليها كالمجنون أو الباحث عن طـوق نجاة، ظل يقطع الدرجات لهاثًـا حتـى وصل إلى معتكفه بغرفة الغسـيل، لكنه لـم يعثـر لها على أثر، شـعر وهـو ينزل الدرجات كمـا لو أنه يسـقط في بئر سـحيقة، مدركًا كم كانت أدوار الموريسـكيين عالية ولا يدري، وكم كانت الدرجات كثيرة، والسـلم الدوار يسـتغرق وقتًا طويـلًا في الوصول إليهـا، للحظة توقع أن صديقـه الطبيب لديه ما يخفف عنـه الجنون، لكن هاتفه كان مغلقًا، حين وصـل إلـى الشـارع وقف كطفـل تائـه لا يعرف أيـن يمكنه العثـور على عجـوز وخادمتهـا، كانت البلاد تسـتعد وقتها لموجة جديـدة من الثورة، فالناس بـدأوا يتوافدون على الميدان، والتمرد بـات واضحًا في العيون، جلس يفكر على المقهى المجاور للبيت بعمق لا حدود له، لمحه النادل فاقترب منه سـائلًا: «هو انت بعت البيت؟»، ففتح عينيه بدهشـة وذهول، لكـن الأخير أشـاح بيـده: «هتخبـي ليه؟ ما الشـارع كله عارف، وشـركة الاتصالات سـابت الفيلا »، حينها انتبه إلى أن الشـركة مغلقة، فدارت به الأرض موقنًا أن راشيل أضاعت منه كل شيء.

40

لـم يعلـم محمـد بـن جهـور أيـن نـزل ولا أيـن سـيلتقي أولاده، فقـد حملـه المـوج إلـى شـاطئ غيـر الـذي واعدهـم بالانتظـار عليـه، كانـت محـاولات الجميـع قـد فشـلت فـي إقنـاع الربـان بإكمـال المسـيرة حتـى الشـاطئ، لكنـه قـال إن السـفينة عطبـت، ولا يمكنـه الدخـول أكثر لأن القاع قريب، وبعد شـد وجذب استسـلموا لحديثـه، نزلـوا إلـى الماء ضاربيـن بأذرعهـم الموج، قاصدين الشـاطئ المختفي في الظلام، لم يكن محمد ولا بيلارا من أهل السباحة، فساندهما بيدرو معتقـدًا أن الرمال قريبة، وأنهما بمعاونة منه يمكنهما الوصول إلى الشاطئ، لكنهم حين بحثوا بأقدامهم في الماء عن القاع لم يجدوه، صرخ فيـه محمد أن ينتبه لأمه وأخذ يحاول السـباحة كالآخريـن، فحال بينهما الموج حتى لم يرَ أيٌّ منهما الآخر، جاهد محمد بكل ما يملك من خوف وحـرص على الحياة حتى مرت الموجة الأولى، فأخذ يعيد اتزانه ملتقطًا أنفاسـه، باحثًا عن زوجته وابنها بين مئات الأجساد المتناثرة على صفحة الماء، حينها توقع أن الأمر قد انتهى وعادت الحياة لصفوها، غير أنه رأى

علـى البعد موجـة أخرى كالجبل قادمـة عليهم، صرخ في بـدرو وبيلارا أن ينتبها لحالهما، لكن الموجة كانت أقوى من سـابقتها بكثير، فعصفت بالجميع، هو نفسـه استسـلم للموت فاقدًا الوعي، ولم يشـعر بنفسـه إلا وهو ملقًى على الشـاطئ بأعضاء مخدرة وسـعال لا ينتهي، والدنيا تظلم وتضـيء فـي عينيه، بينما وشـيش البحر يتعالى سـريعًا مـن حوله، حينها رأى الذين التفوا حوله، كانوا يضغطون على صدره وبطنه مدلِّكين أنامله ويديـه، وجـوه كثيرة كانت تنحني عليه كملائكـة جاءت من أجله في يوم الحشـر، الكلمـة الوحيدة التـي نطق بها كانـت: «بيلارا»، سـاعدوه على الجلوس لكن خوفـه عليها جعله ينتفض واقفًا لينادي من جديد، صعقته كثـرة الجثث الملقاة على الرمـل، صعقه خوفه من أن تكون بيلارا بينهـم، أخذ ينظر في الوجوه مقلبًا الجثث فاغرة الأفواه والأعين، في الظلام تعثر ببـدرو وهـو يلطم خديه أمام أمه، كانت بيلارا ممددة على الرمل مسـلمة الـروح محدقـة في مجهـول لا يعرفه، هزَّهـا موقنًا أنها لـن تتركه وحيدًا، هزَّها حتى خشي بدرو عليه من الجنون، فاحتضنه باكيًا.

كانت الرحلة من بدئها قاسية وشاقة، خمسة أيام من السير على الأقدام حتـى وصلـوا إلى الجزيرة الخضراء، مَن فرَّ إلـى الجبال قد فرَّ، ومَن بقي شـهد مصيره في أسراب الموت البطيء، الكثيرون رحلوا من قبل، مئات الألوف هاجرت على مدار أعوام ثلاثة، كانت بلنسـية في أول الأمر حين فشـلت ثورتها، وصرخ القساوسة والجند في وجه الملك بأنه لا مفر من إلقاء الموريسـكيين في البحر، لكن النبلاء كانوا يخشـون على مزارعهم

وبساتينهم من البوار، فظلوا يراجعونه في قراره، غير أنه كان يخشى من نزول الأتراك على شواطئه في الجنوب، فكر كثيرًا ثم وقَّع قراره بتهجير موريسكيي بلنسية، وسرعان ما ترك الأمر للقساوسة وقادة الجند، فأعدوا جداولهم بالأسماء والمناطق والبيوت والعائلات واضعين علاماتهم على الأبواب، مستبيحين الأراضي والأموال والأعراض والدماء باسم المسيح، حين علم الجميع أن الأمر جاد ولا رجعة فيه، فكروا في الفرار، أهل بلنسية كانوا الأفضل في ذلك، جبالهم تتصل بالغجر الجوالين على الحدود، وتحمل الهاربين من البروتستانت المضطهدين كالموريسكيين في دينهم، فلِمَ لا يجتمع الضعفاء، قرى كثيرة باعت أرضها وبيوتها وفرَّت بأموالها نحو الشمال، فحرَّم الملك التنقل بالمال، حرَّم البيع أو الشراء على الموريسكيين في كل البلدان، البعض حفروا خنادق ودفنوا أنفسهم فيها، والبعض اختفوا في الكهوف عسى أن تمر الموجة من على الرؤوس سريعًا فلا تصل إليهم أيدي الجند ومقارعها، لكن الكثيرين جُمعوا في قطارات طويلة من القرى إلى المدن، ومنها إلى الشواطئ حيث السفن القادمة من طنجة وسلا وتطوان وشفشاون والعرائش والجزائر وتونس، لكل قرية يوم يساق أهلها إلى الكنيسة لتفتيشهم وتجهيزهم للرحيل، كان القساوسة يفاوضونهم حتى على أبنائهم، البعض كان يرفض والبعض كان يستسلم خوفًا من المجهول، وأملًا في عودة قد تكون قريبة، في الصباح كانت طوابير المُرحَّلين تنطلق كقطعان ماشية أو أسراب قطط خائفة نحو الجنوب، ولم يكن مسموحًا بالتوقف لأكثر من مرتين في اليوم، واحدة في الظهيرة وأخرى مع المساء، حتى إن الناس كانت تحلم بالراحة فلا تجدها، ينامون في سيرهم ويتبولون على أنفسهم ويصرخون. «قد

تعبنا»، فلا ينالهم غير السـهام وضرب المقارع على الرؤوس والأكتاف، ومَـن تنفـد دوقاتـه منهم فـلا طعام له ولا شـراب، ولا ينقـذه من الموت جوعًا غير اقتسام طعام موريسكي آخر، على طول الطريق كانوا يتنفسون النتـن الصادر من جثث نافقة لمن سـبقوهم، متعثرين بجيف وبقايا عظام يزيحونها بأقدامهم، في المسافة من إشبيلية إلى الجزيرة الخضراء اجتاح الجنـون زوجة مجيـد بن محمد، مصـرة على عدم السـير والعودة لابنها الذي تركوه للقساوسة في طليطلة، فقررت أن تفك وثاقها وتنطلق خارج الصفوف، نالها سـهم اسـتقر في صدرها، هاج زوجهـا مجيد غاضبًا من أجلهـا، وثارت حمية الرجال لكسـر الأغـلال، فتوقف السـير وارتبكت الصفـوف وهجـم الجنـد بالمطارق والسـيوف ليقضـوا على الثـورة في مهدها، كان مجيد وخمسة آخرون قد حُكم عليهم بالموت أمام الجميع، وطحنت المطارق أجسـاد يونـس والربيع والفضل حيـن رفضوا الحكم علـى أخيهـم، فبكى محمـد مقبلًا أيـدي الجنود كي يرفعـوا غضبهم عن أبنائه، ويمنحوا القتلى كرامة الدفن، فرقَّت قلوبهم إليه، ونزلوا على طلبه مانحين الجميع راحة قبل أن يكملوا الطريق من جديد.

حين وصلوا إلى الجزيرة الخضراء كانوا قد أصبحوا كائنات بلا معالم، فظلوا منكَّسي الرؤوس في انتظار السفينة القادمة، حين أتت وضع الربان خطته للصعود عليها، جاعلًا النساء في جانب والرجال في جانب، وبادئًا بمَـن يملك دوقات خمس كـي يضمن مكانًا قبل الجميـع، بعدها يصعد العجائـز والصغـار ثم النسـاء، ثـم يأخذ بقيـة حمولته من الرجـال الذين لا يملكـون المـال، كان محمد راغبًا في الصعـود بعائلته كاملة على ظهر

سفينة واحدة، لكن الربان تلا قواعده، فصعدت بيلارا برفقة بدرو، وأصر يونس والفضل والربيع على أن يكونوا مع أبنائهم، آملين أن يكون لهم مكان في نهاية الأمر على ظهر السفينة مع أبيهم، لكن السفينة امتلأت، وصرخ ربانها أنها لن تحتمل المزيد، فلم يسمح الحراس بركوب أحد، وأقسم الربان أن سفينتين في طريقهما إلى الجزيرة، فودع يونس والفضل والربيع أباهم مواعدينه باللقاء في الصباح، كان الليل قد مضى نصفه والموج يضرب بأمواجه المتلاطمة السفينة المكتظة مسقطًا البعض عنها وقاذفًا الرعب في قلوب الآخرين، وراح الملاحون يقاومون غضبه بجَلَدٍ غريبٍ نازحين بأوانيهم الماء الذي طغى على الألواح والدُّسر، كانت وجهة السفينة إلى بن لوشي، لكن الموج حدا بها إلى طنجة، وعلى مبعدة فرسخين توقفت ليعلن ربانها أن عطلًا أصابها، ولا يمكنه الدخول إلى الشاطئ القريب، لم يكن لأحد أن يصدق ولا أن يبصر الشاطئ من مكانه، فراح الشد والجذب يبلغ أشده حتى يئس الناس وقرروا المجازفة للنجاة، لكن بيلارا لم تنجُ وخرجت منه فاقدة الحياة.

41

ظهرت العين الراعية لمحمد بن جهور على شاطئ طنجة قائلة: «لم يبقَ إلا القليل»، بكى محمد قائلًا: «لكن الحياة لم تنتهِ»، حينها سألته: «أي البلاد تريد؟»، فقلب كفيه: «كل البلاد سواء، فخذني لأرض مطمئنة»، حينها امتطى عبد الله بن جهور جواده وأخذ يقطع السهول والهضاب والوهاد، بينما محمد وبدرو يتوكآن خلفه من طنجة إلى محلة القصر الكبير، ومنها إلى جباليا المحيطة بتطوان، حين رآها محمد على البعد توقف ليملأ صدره بهوائها قائلًا: «كأنني أشم ريح البشرات»، فداعبه بدرو: «نحن ضيوفك يا بن جهور»، حينها هزَّ محمد رأسه وأكمل سيره حيث لا يدري، فلما أخذ بهم التعب كل مأخذ قالا نأوي إلى حديقة بيت تحمينا من الضباع والذئاب، وكان بيت القاضي محمد بن عياش أول دار ذات حديقة في طريقهم، كان بابه كأنه قطعة قدَّت من جسد سفينة عظيمة، فأومأ محمد لابن أخيه: «اطرق لنا هذا الباب»، حين خرجت صبية في العشرين من عمرها استملح بدرو وجهها قائلًا لعمه: «كأن ريح البشرات أجمل»، فابتسم الأخير طالبًا أن تبلغ سيدها أن محمد بن جهور

يريـد النـزول بحديقتكم الليلـة، فأغلقت الباب خلفهـا وغابت حتى ظنا أن طلبهمـا غير مجاب، فاسـتدارا قائلين: «لأن تسـتبيحنا الوحوش على نواصي الطرق خير من إراقة ماء الوجه»، لكنهما لم يقطعا بضع خطوات بعيـدًا عن البيت حتـى خرج الرجل بعبيده وخدمه قائـلًا: «ما أخرني عن الأمير ابن الأمير إلا استقباله كما يليق بالأمراء».

جلـس ابن جهـور في ضيافـة القاضي بـن عياش عدة شـهور قبل أن يصل أبناؤه إلى تطوان، فقد انتظروا يومين على شاطئ الجزيرة الخضراء حتـى أتتهـم فأقلتهم إلى بن لوشـي حيـث من المفترض أن تصل سـفينة أبيهـم وزوجتـه بيـلارا وابنهـا بدرو، لكنهـم حين سـألوا النـاس قالوا ما رأيناهم مروا بديارنا، فأخذوا يتنقلون ما بين العرائش وأصيلا وشفشاون وغيرها من مدن الموريسـكيين حتى وصلوا إلى تطوان، فعلموا أن أباهم بصحبـة القاضي الكبيـر، وأنه يجلس كل يـوم بالمسـجد الجامع ليقصَّ علـى الناس ما جرى لأهلـه في الأندلس، فأقاموا معًا بضع سـنين عكف فيها ابن جهور على أن يكمل كتابه عن موريسـكيي البشـرات ومحنتهم، لكن البربر اعتدوا على موريسـكي كان في طريقه للمدينة فقتلوه، فحكم عليهـم القاضي ابـن عياش بدفـع دية كبيرة لأهـل الرجل، فلـم يعجبهم ذلـك، واتهموه أنه يحابي النصـارى، فغضب القاضي وأمر بجَلدهم أمام النـاس، فما كان منهم إلا أن كمنوا له بعـد يومين بالقرب من بيته فقتلوه، كان يومها بصحبة ابن جهور الذي أخذ يصيح طالبًا النجدة دون أن يغيثه أحد، فظل يبكيه حتى لحق به بعد شهور.

حين مات محمد بن جهور خرج الموريسكيون في تطوان وطنجة وشفشاون ومحلة القصر الكبير لوداعه، كان الجميع موقنين أنه آخر الكبار الذين خرجوا من الأندلس، لكن موته هو وصديقه ابن عياش ما كان إلا بداية لظهور الفتن وفساد الرأي، فقد أخذ الموريسكيون يتهمون البربر بأنهم أجلاف لا يعرفون الحضارة، ورد عليهم البربر بأنهم خسروا دينهم وسيحيون ويموتون نصارى، وبات كل فريق منهم يكيد للآخر حتى أوشكت المدينة على الحرب، فظهر عبد الله بن جهور لحفيده يونس قائلًا: «اجمع أهلك واذهب إلى تونس»، لكن بدرو رفض الرحيل قائلًا: «لم يبقَ لي ما يستحق الشتات من أجله».

كانت الرحلة أطول مما توقع يونس، وشعر إخوته أن خروجه بهم ما كان إلا محض هوى في نفسه، ولولا أن أمارات جدهم أخذت تلاحقهم لاعتدوا عليه وتركوه عائدين، كانوا كلما أحكموا قبضتهم ليفتوا في عضده وجدوا ما يلزمهم بالخضوع لرأيه والسير خلفه، ففي تلمسان نهبت أموالهم، وفي وهران هاجمهم الأعراب وكادوا يأخذونهم أسرى، ولولا أن العين الراعية لم ترضَ لهم بالهوان، وأخذت تطارد الأعراب في الشعاب، لكان مصيرهم في أسواق الرقيق، وعلى مقربة من تونس توافقوا على قتل يونس والخلاص منه، فما لبثوا أن عصفت الريح، وتكاثف السحاب وهطلت الأمطار وزأرت الوحوش حتى اعترفوا له بذنبهم، فانقشع الظلام وظهرت النجوم وفرَّت الذئاب، فظلوا ملازمينه

حتى وصلوا قصبة الحاكم في تونس الخضراء، فدخل يونس على الداي خوجا ملقيًا السلام، ومعرفًا بنفسه وآله وما جرى لهم في البلاد البعيدة، فهشَّ له الرجل وأجلسه بجانبه قائلًا: «أوصاني أبي عثمان داي بريح الأندلس ونسيمها، فما بالكم وأنتم ملوكها وأبناء ملوكها!»، فابتسم يونس: «لا نريد إلا أن نكون من عموم الناس»، حينها أرسل الرجل مناديه في المدينة معلنًا أن الداي استضاف آل جهور في حومة الأندلس، فمَن أراد منكم إكرامه فليكرمهم، لكن الأيام سرعان ما ولَّت، ومات خوجا ومَن أتى بعده، ونسي الناس أن بني جهور لم يكونوا إلا من الحفنة التي قبضت على الجمر، فطمعوا في أرضهم وشكَّكوا في دينهم.

42

في اليوم الذي زحفت فيه الجموع إلى ميدان التحرير جلس الموريسكي على المقهى المجاور لبيته يحصي خسائره في الحياة، فقد اختفت الجدة وخادمتها مثلما اختفت ناريمان والطبيب، أبلغ الشرطة وبحث في المستشفيات وسأل كل مَن يعرف ومَن لا يعرف دون أن يصل إلى جواب مبين، شعر أنه بمثابة شجرة عجوز تكاثفت عليها الريح من كل جانب، فجلس ينظر للعابرين براياتهم وأعلامهم وأناشيدهم المليئة بالحماس، متابعًا الجموع وهي تمر في مشهد طويل لا ينتهي عبر الشارع الكبير، طاف بخياله وجه ناريمان فتذكر قدر الشبه بينها وبين جدته، ولم يعرف لأي منهما اجتاحه الحنين فجأة، فأجهش بالبكاء كطفل ضلَّ طريقه في الزحام، حين رآه النادل على هذا النحو اقترب منه سائلًا: «فيه حاجة يا أستاذ مراد؟»، فتوقف عن البكاء ومسح وجهه بيده ناظرًا إليه: «لا مفيش»، ثم نهض كمَن تذكر موعدًا لينساب مع العابرين في نهر الشارع الكبير، كانت علامات الفرح آخذة بالجميع، بدت له القاهرة كما لو أنها أنهت أيام حدادها، وجد نفسه محاطًا بالجموع المتدفقة في

الشوارع إلى الميدان الكبير، فلما لم يبقَ فيه موطئ لقدم أخذ الناس يطوفون في الأزقة والحارات والميادين المحيطة، كانت النساء في ميدان طلعت حرب تحتفل بفرح لا حدود له، وباتت الحياة متوقفة على إيقاع صرخاتهن في المكان، توافد الحشود جعل العالم أضيق من ثقب إبرة، وجعل الناس كما لو أنها لا تعرف في حياتها غير الثورة، قال في نفسه: «ما أشبه اليوم بالبارحة!»، وتسحَّب بأقدامه إلى حيث الرصيف الذي اعتاد من عليه التطلع إلى «محنة الموريسكي» في فترينته، حين وجد المكتبة مغلقة استدار بوجهه متطلعًا للتمثال القابض على وثيقة حجرية ليقرأها على الجموع المحتشدة أسفل منصته، تذكر وثيقة وقف العائلة وتخيلها تنام الآن بين آلاف الوثائق في دار الكتب، فهز رأسه واستدار متجهًا نحو باب اللوق، لكنه بعد خطوات فوجئ بمَن يطرق على كتفه هاتفًا: «رايح فين؟»، هكذا وجد نفسه وجهًا لوجه أمام مقدم الأمن، فارتمى في أحضانه وقررا الجلوس على مقهى لتدخين الشيشة ومتابعة الأمواج البشرية في تدفقها.

حين سأله المقدم عن أحواله كاد يخبره أن جدته اختفت وراشيل باعت البيت، لكنه بعد تردد طويل ابتسم قائلًا: «ألَّفت كتابًا»، بدهشة رسم المقدم علامات البهجة على وجهه سائلًا عن المكان الذي سيصدر منه، لكن مراد لم يكن في خطته النشر ولا حتى التفكير فيه، فابتسم المقدم: «دعِ الأمر لي، عندي صديق ناشر»، ثم التفت عنه لمتابعة مسيرة آخذة في التقدم بطبولها وأعلامها.

كان على مقدم الأمن أن يستأذن لمتابعة عمله، فنهض مراد لا يعرف إلى أين يمكنه الذهاب في هذا الزحام، في النهاية ترك أقدامه تحدد مسارها كما تريد، ولم يكن لها أن تتخذ مسارًا غير الذي تعودت عليه، فوجد نفسه يتحرك في مواجهة القادمين من دار القضاء العالي، كان الجميع يتحدثون عن أن الأمر انتهى، وأن ثمة خارطة طريق جديدة للبلاد، حين وصل إلى بيت الموريسكي قطع الممر المؤدي للمدخل الخلفي، موقنًا أن التاريخ لا يقوم على مصادفات.

نفث زفرة طويلة من أعماقه وأخذ في صعود السلم المشبع برائحة الرطوبة والغبار، متفكرًا في جدته التي ما عاد له أن يستمع لحكاياتها عن أجداده، حين ارتقت أقدامه بضع درجات لمحها على بسطة الدور الأول جالسة في ضوء شفيف كما لو أنها في انتظاره، مسح عينيه ونظر في وجهها النضر وثيابها ذات الألوان الزاهية، ثم همَّ أن يلقي بنفسه في أحضانها سائلًا: «أين كنتِ يا جدتي؟»، لكنها أوقفته بإشارة من أناملها: «تأخرت يا بني»، فوقف مذهولًا لا يعرف بمَ يجيب، واستغرق الأمر جهدًا منه ليقول: «على أي شيء؟»، فابتسمت: «هذا ما لم يقله الموريسكي»، ثم همَّت بالقيام فانحنى ليعاونها، لكنها أشارت إليه من جديد كي يلزم مكانه، وأخذت في صعود الدرجات كما لو أنها لم تكن يومًا مقعدة، كانت تمشي في هالة من نور لا تلهث ولا تنظر لأبواب البيوت، توقَّع أنها ستدخل شقتها لكنها لم تفعل، فقد أكملت الطريق نحو الصعود،

فظل يسير خلفها كطائر صغير معلق بفرع شجرة كبيرة، حين وصلت إلى الباب الفاصل ما بين السلم والسطوح استدارت إليه: «ليس الآن يا مراد»، حين فتحت الباب تدفق منه ضوء لا حدود لوهجه، شعر مراد بأنه غير قادر على فتح عينيه، فوضع يده على وجهه ليرى من تحت أنامله كيف دخلت جدته في ذلك السطوع المبهر، كما لو أنها قطرة انسابت في نهر عظيم.

حين فكر في الصعود خلفها وجد الباب مغلقًا أمامه، فألقى بتحية السلام عليها واستدار للنزول، سمع أصداء صوتها من خلفه تقول: «ولك مني السلام»، حينها أخذت أقدامه تتحسس الدرجات وروحه تحلق في البعيد، شاعرًا أنه نصفان، أحدهما يمشي على الأرض والآخر يطير في السماء، رأى النجوم مبعثرة في الفضاء، والموريسكيين يسعون خلفها على الأرض، فتح باب شقته وجلس في كرسيه يتابع الأحداث، كانت راشيل على الشاشة تتحدث من بلد عربي عن الشرعية وصناديق الانتخاب، رآها ترتدي حجابًا وتلقي كلمات نارية كما لو أنها خطيب على منبر كبير، فابتسم متعجبًا من تغير الأحوال، وزادت ابتسامته حين فتح بريده الإلكتروني فوجد رسالة بموعد مؤتمر الموريسكيين، وأن كل ما عليه أن يملأ استمارة التعريف بشجرة العائلة، فملأها وبضغطة واحدة على زر في لوحة المفاتيح حجز مكانه بين الحضور.

«تمت»

القاهرة - الجمعة 3 أكتوبر 2014

تعريف بالكاتب

- صبحي موسى.. شاعر وروائي مصري، من مواليد 1972 بمحافظة المنوفية.
- حصل على ليسانس الآداب في علم الاجتماع من جامعة شبين الكوم عام 1994.
- صدر له من الأعمال الروائية: «صمت الكهنة»، و«حمامة بيضاء»، و«المؤلف»، و«أساطير رجل الثلاثاء» التي حصلت على أفضل عمل روائي لعام 2014 من معرض القاهرة الدولي للكتاب.
- وله من المجموعات الشعرية: «يرفرف بجانبها وحده»، و«قصائد الغرفة المغلقة»، و«هانيبال»، و«لهذا أرحل»، و«في وداع المحبة».
- عمل مديرًا عامًّا للنشر بالهيئة العامة لقصور الثقافة لمدة عامين، ويعمل الآن رئيسًا لتحرير مجلة «الثقافة الجديدة».

بمجرد اختفائه من الصالة أخذ الشخص المرافق يخرج جهازًا من حقائبه، وراح يوجهه نحو الأركان والجدران والأسقف باحثًا عن شيء ما، حين خرج مراد من غرفته سأل بغضب عما يحدث، فردت راشيل بأن ذلك حفاظًا على سلامته، ولم يكن ذلك مقنعًا له، فجاءت نبراته بغلظة لم يتوقعها أي منهم: «لا أعتقد أن أمري يشغل أحدًا كي يتجسس عليَّ».. هنالك انطلقت ضحكة مشبعة بالأنوثة والدلال: «ليس هناك أهم من عميد الموريسكيين لننشغل بأمره»..

***

هذه الرواية تأخذ القارئ إلى عوالم شجية، وتربط بين الماضي الأسطوري المفعم بالألم، والحاضر الاستثنائي المشبَّع بالأمل.. من خلال شخصية «مراد»، الموريسكي الأخير، أو عميد الموريسكيين، الذي يعيش في مصر حياة أشبه بحكايات جدته عن المجد الغابر، وحماية العين الراعية للأبناء والأحفاد، وكفاح الأجداد لاستعادة المُلك الضائع، وغيرها من تفاصيل أجاد الكاتب في سبكها، وأبدع في حبكها؛ ليصل الماضي بالحاضر، عَبْرَ أسلوب شيِّق، رصين.

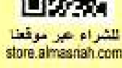


صبحي موسى.. شاعر وروائي مصري، صدرت له عدة أعمال روائية وشعرية، منها: «صمت الكهنة»، و«أساطير رجل الثلاثاء» التي حصلت على أفضل عمل روائي لعام 2014 من معرض القاهرة للكتاب، و«قصائد الغرفة المغلقة»، و«لهذا أرحل».عمل مديرًا عامًّا للنشر بالهيئة العامة لقصور الثقافة لمدة عامين، ويعمل حاليًا رئيسًا لتحرير مجلة «الثقافة الجديدة».

اللوحة للفنان الأسترالي إدوارد هارلموت







الدار المصرية اللبنانية